مُحَمَّد حسنين هَيكل

مَدافع آيَة اللّه

قصَّة إيران والثورة

دار الشروق

مَدافـع آيـة اللــه



الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
الطبعة الثانية
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
الطبعة الرابعة
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
الطبعة الخامسة
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
الطبعة السادسة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)


بسم الله الرحمن الرحيم

«لو كان لي كالله في فلك يد   لم أبق للأفلاك من آثار
وخلقت أفلاكاً تدور مكانها   وتسير حسب مشيئة الأحرار»

(رباعيات عمر الخيام)

«كم فرقة عسكرية تتبع البابا ؟»

(قول منسوب إلى «ستالين»)

«ولكن ... من هو الخميني ؟ ! ! »

(الامبراطورة فرح في ابريل ١٩٧٨)

مُقَـدّمة الطّبعَـة العَربيّـة

اقتربت من «دراما» الثورة الإيرانية وهي ما زالت عند فجرها . وكان الأفق ما زال معتماً من حولها ، ولم يكن الخيط الأبيض قد استبان بعد من الخيط الأسود فيها . كان نجاح الثورة وارداً ، وكان ضربها وارداً أيضاً !

كان ذلك عندما التقيت بـ «آية الله روح الله الموسوي الخميني» لأول مرة في باريس يوم الواحد والعشرين من شهر ديسمبر ١٩٧٨ . وأعترف أن ما رأيته استهواني وقتها وشدني إليه . فقد شعرت أنني أمام تجربة فريدة في التاريخ الحديث .

كنت قبل ذلك أعتقد أن «الثورة الشعبية» بالمعنى الحرفي لهذا التعبير قد فات زمانها ، ذلك أن اختراع الدبابات والمدافع المنصوبة على أبراجها قد قلب موازين القوى بين الجماهير الثائرة وبين السلطة الحاكمة . وتصورت ـ بناء على التجربة الثورية المصرية وتجارب أخرى في العالم العربي والعالم الثالث عموماً ـ أن أي ثورة جديدة لم تعد تملك الآن إلا أحد خيارين :

● أن تجعل من القوات المسلحة ـ بدباباتها ـ طليعة لزحفها .

● أو أن تقوم بشكل ما بتحييد القوات المسلحة والإلتفاف وراءها ـ أو أمامها ـ واصلة إلى أهدافها .

كان ظني أن الثورة السوفيتية هي آخر ثورة استطاعت فيها الجماهير غير المسلحة أن تواجه جيش السلطة وأن تنتصر عليه . وحتى الجيش الذي واجهه الشيوعيون في روسيا القيصرية كان جيشاً مهزوماً وضائعاً ، فقد تسعة أعشار سلاحه أمام الالمان قبل أن يفقد العشر الباقي منه أمام الثوار .

كانت الثورة الإيرانية ـ على هذا النحو ـ شيئاً يختلف عن كل ما رأيناه وعرفناه على طول المسافة الممتدة من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٧٧ ـ ستون سنة كاملة .

ثورة شعبية ، ثورة جماهير عزلاء ، تواجه جيشاً في عنفوان قوّته .

جيش جرى بناؤه وإعداده وتسليحه بواسطة نظام بالغ القسوة والشدة ، حمّل نفسه بمسؤولية حفظ الأمن في منطقة هي أكثر مناطق عالم اليوم قلقاً وتوتراً وتعرضاً للخطر .

ثم هو إلى جانب ذلك جيش ترعاه وتسانده واحدة من أعتى القوى الدولية في العالم وفي التاريخ لأنها تعتبره ـ في البحر والجو والأرض ـ شرطيّها الحارس وديدبانها الذي لا تغمض له عين !

ثم هو ـ أخيراً ـ جيش تهابه وتخشاه وتحسب له ألف حساب كل تلك الدول ـ والدويلات ـ القابعة في خوف أو استكانة على شطآن الخليج والمحيط الهندي .

* * *

الثورة ـ بعد ذلك كله ـ ذات طابع يختلف كثيراً عن المألوف في العصر الحديث ... الثورة دينية . على وجه التحديد إسلامية .

* * *

الثورة ـ فوق ذلك ـ يقودها رجل لا تربطه بالشباب ـ وهو حافز الثورات عادة ـ أي صلة . على العكس . هو رجل جاوز الثمانين ، فإذا خطا فقَدَم على الأرض وقَدَم إلى القبر . وبصرف النظر عن عدد السنين فإن الرجل الذي يقود الثورة ـ بعد الثمانين ـ رجل لا علاقة له بزماننا ولا بالأفكار المؤثرة والفاعلة فيه . قلت عنه في مقال كتبته «للصنداي تيمس» وقتها أنه يبدو كرصاصة انطلقت من القرن السابع واستقرت في قلب القرن العشرين . بدا لي وقتها في باريس وكأنه فعلاً ـ شكلاً وموضوعاً ـ شخصية من شخصيات الفتنة الكبرى في الإسلام ـ عادت إلى الحياة بمعجزة لتقود معسكر (علي) بعد انتصار الأمويين وبعد مصارع الشهداء من آل البيت ـ وبعد ثلاثة عشر قرناً من الزمان أوصلتنا ـ بعد مسيرة تاريخية طويلة وشاقة ـ إلى عصر الصراع بين الشيوعية والرأسمالية ، والسباق على الأسلحة النووية ، والمنافسة للسيطرة على الفضاء ، وفض أسرار الخلايا (الجينات) ، والتحكم في الاليكترونات !

هكذا وجدتني «مدهوشاً» بـ «دراما» الثورة الإيرانية .

إنني لم أجد بديلاً لتعبير «الدهشة» في وصف موقفي مما كان يجري على الساحة الإيرانية .

فـ «الدهشة» ليست هي بالضبط «الانبهار» وليست هي بالضبط «الفضول» !

«الدهشة» شعور يفاجأ فيه الإنسان بما لم يكن يتوقع ، ثم يقوده هذا الشعور إلى محاولة البحث والتقصّي والمتابعة علّه يصل إلى سدّ الفجوة بين ما كان يتوقع ، وبين ما وقع فعلاً .

وهذا ما حدث لي ...

وتلك المحاولة هي موضوع هذا الكتاب !

* * *

ومنذ ذاع أمر اهتمامي بـ «الدراما» الإيرانية إثر ما نشر لي عنها في الصحف العربية والعالمية ـ سُئلت كثيراً ، وفي مراحل متعددة ومتتابعة :

ـ ما هو رأيي فيما يحدث على الساحة الإيرانية اليوم ؟ هل الثورة ما زالت في طريقها ، أو هل ضاع منها الطريق ؟ هل هي ثورة أكلت أبناءها كما تفعل بعض الثورات ، أو هي ثورة أكلها أبناؤها كما قال بعضهم عن الثورة الإيرانية بالذات ؟

وكان ردي دائماً أن هناك أسئلة يصعب ـ بل يستحيل ـ الرد عليها بـ «لا» أو «نعم» .

إن «الثورة» ـ الثورة عموماً ـ قضية معقدة .

إن «الثورة» أشبه ما تكون بعملية انفجار هائلة ، تجيء بعد أن يكون شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ، قد تحمّلوا بأكثر مما تحتمله طاقتهم اقتصادياً وسياسياً وفكرياً ، وهم في عملية الانفجار يحطّمون ليس قيودهم وسلاسلهم فقط ولكن كل الحدود والسدود ، ثم يحاولون وضع أساس مختلف لمجتمع جديد سيد وحر .

لكن «من» الذي يضع الأساس الجديد ؟ و«متى» ؟ و«كيف» ؟

أسئلة عويصة ، ظلت على طوال التاريخ ـ برغم كل ما قيل ويقال عن «قوانين الثورة» ـ بغير جواب .

وحتى الثورات «العلمية» التي اتخذت لنفسها هذ الوصف ، أو أسبغه عليها المتحمسون لها ، تلك الثورات التي كانت تقودها طلائع حزبية منظمة ، وتهديها عقائد اجتماعية محددة ـ لم تستطع أن تقدم أجوبة مقنعة ، أو كافية لقضية الثورة وتعقيداتها . والثورة الشيوعية الكبرى نفسها شاهد ، فالاتحاد السوفيتي لم يستطع حتى الآن أن يقدم حلاً لمسألة الحرية السياسية . كما أن الحزب الشيوعي القائد في الصين ذاب كتمثال من الملح أمام سطوة البيروقراطية ممثلة في الجهاز التنفيذي أو في القوات المسلحة بعد غياب مؤسسة «ماوتسي تونغ» ونفوذه الأسطوري الشخصي . والإتحاد السوفيتي والصين الشعبية هما أضخم التجارب الثورية في القرن العشرين . وليست هناك حاجة ـ بعد ذلك ـ للإشارة إلى «تشيكوسلوفاكيا» حيث أخضع حزب شيوعي حاكم بالقوة للغزو العسكري ، ولا إلى «بولندا» حيث تتصادم الآن بروليتاريا العمال مع حزب البروليتاريا !

إنني بالطبع لا أريد أن أقلل من أهمية ظاهرة «الثورة» ، ولكني فقط أريد أن ألفت النظر إلى «إنسانية» هذه الظاهرة . فمهما قيل عن «قوانين الثورة» وعن «علمية الثورة» ـ فإن الموضوع الأساسي لها ـ كما هو في التاريخ كله ـ هو موضوع الإنسان على القمم وعند السفوح وفوق القاع . الإنسان بكل مواريثه وبكل نزعاته ، وبكل طموحاته ، وبكل غرائزه . ثم إيقاع الزمن اللازم والضروري لإنضاج تجاربه وتمهيد الطرق الوعرة إلى مطالبه الحقة والعادلة .

وربما استطعت القول بأن الثورة تختصر المراحل ، لكنه لا الثورة ولا أي شيء آخر في مقدوره أن يلغي الزمان وأن ينقل شعباً أو أمة من التخلف إلى التقدم ، وأن يخلق الموارد البشرية والطبيعية من الهواء ، وأن يحتكم للتنظيم والتخطيط والعلم والتكنولوجيا ، وأن يعطي السيادة لقيم الحرية والعدل السياسي والاجتماعي ـ كل ذلك في طرفة عين ، أو في عدد من السنين هي بحساب التاريخ طرفة عين !

من هنا ـ هكذا كنت أقول لسائلي ـ فإن الوقت ما زال مبكراً للحكم على الثورة الإيرانية . وربما كان أكثر ما نحتاجه في شأن الثورة الإيرانية اليوم ، هو محاولة الفهم أكثر من محاولة الحكم . وأتذكر أنني قلت في مؤتمر عام لاتحاد الصحفيين العالمي في دورته السابقة في مدينة «فلورانس» في إيطاليا :

ـ اننا نتعلم لغة شعب من الشعوب لكي نستطيع أن نتكلم معه ، ولكن علينا أن نتعلم تاريخه إذا كنا نريد أن نفهمه .

هكذا تصبح أمامنا بدل القضية قضيتان :

- قضية الثورة في حد ذاتها كظاهرة إنسانية عامة .
- وقضية الشعب الثائر ذاته كتجربة تاريخية خاصة .

وبدون ذلك تصبح محاولاتنا رحلات إلى بحار الظلمات !

* * *

لكن محاولة «الفهم» ليس معناها السقوط في مهاوي «التبرير» .

والحقيقة ـ فيما أظن ـ أن الثورة الإيرانية لم تستطع مواجهة بعض التناقضات الطبيعية التي اعترضت طريقها بأسلوب مستنير . وكان التخوف من ذلك بادياً منذ أول لحظة ، وذلك بسبب الطبيعة الخاصة للعملية الثورية في إيران ، ونوعية القيادة التاريخية التي تولت قيادتها .

ولعلي أزعم أنني ناقشت هذا مع «آية الله الخميني» في أول مرة لقيته فيها في فرنسا في شهر ديسمبر ١٩٧٨ ، وقبل أن يتحقق انتصار الثورة على أعدائها وينهار نظام الشاه ، وقبل أن يعود هو إلى إيران بثلاثة شهور كاملة .

ان مناقشاتي معه في ذلك الوقت نشرت في جريدة «الوطن» وغيرها من الجرائد العربية التي تنشر معها مقالاتي باللغة العربية ، وكان ذلك في شهر فبراير ١٩٧٩ ـ أي نفس الشهر الذي عاد فيه «الخميني» إلى طهران .

قلت له ، ونشر ما قلته في حينه :

ـ إذا استعملت تعبيراً عسكرياً لتصوير الوضع الآن ، فإنني أظن أنك بسلاح الدين تستطيع أن تقوم بدور المدفعية البعيدة المدى وأن تهدم نظام الشاه فوق رؤوس أصحابه . لكن ذلك لا يحقق النصر . تحقيق النصر ـ في الثورة كما في الحرب ـ يتحقق بالمشاة الذين يحتلون المواقع ويتولون تطهيرها ويتحملون مسؤولية المحافظة عليها .

إنني أسمع دوي مدافعك ، ولكني حتى الآن لا أرى أثراً لمشاتك .

إن المشاة في الثورة هم الكوادر السياسية ، وهم جماعات الفنيين والخبراء

القادرين على تنفيذ مهام الثورة وبرامجها .

ولم تكن لدى «الخميني» ـ كما أوردت في ذلك الوقت ـ إجابة مقنعة على هذا السؤال . وعلى أية حال فقد كان هدير المدافع ، وبروقها ورعودها ، يغطي في ذلك الوقت كل الأسئلة والإجابات .

ومنذ ذلك الوقت المبكر ، وعند الفجر من العملية الثورية ، كانت هناك تناقضات ظاهرة للعيان لا تنتظر غير انتصار الثورة لكي تفرض نفسها :

١ ـ التناقض بين رجال الدين ورجال السياسة ، وتصورات ومفاهيم كلا الطرفين .

٢ ـ التناقض بين الذين قاوموا من الخارج ضد نظام الشاه وبين الذين تحملوا من الداخل جبروت «الطاغوت» وسطوته ، وأيهما له الحق الأول وأيهما تكون له الكلمة النافذة .

٣ ـ التناقض بين فكرة الدين ـ وهي شاملة ـ وبين فكرة الوطنية ـ وهي محدودة .

٤ ـ التناقض ـ أو التناقضات ـ بين الواقع الجديد في إيران وبين الواقع في المنطقة من حوله .

٥ ـ التناقض بين الأحلام والحقائق في العلاقات الدولية والإقليمية وحتى المحلية ، وبالذات مشاكل الأقليات العنصرية في إيران .

٦ ـ التناقض بين الجماعات الثورية وبين المؤسسات الدائمة في إيران ، وفي مقدمتها الجهاز الحكومي وجهاز القوات المسلحة .

وهكذا ، وهكذا .

مجموعة متشابكة من التناقضات ربما يجملها العنوان الذي اختاره «لينين» لأطروحته الشهيرة عن «الثورة والدولة» . ولم يكن مؤكداً لي أن «الخميني» قد قرأ أطروحة «لينين» ، وعلى فرض أنه كان قد قرأها فما أظن أنها كانت تفيده في كثير !

* * *

وقد كانت حركة هذه التناقضات على أشدها طوال الشهور الثلاثين ـ حتى الآن ـ للثورة .

في التناقض بين رجال الدين ورجال السياسة ـ مثلاً ـ اختفى مجلس الوزراء

الأول الذي تولى الحكم كله بعد الثورة ـ «بازرجان» ، «سنجابي» ، «يزدي» ، إلى آخره !

في التناقض بين الخارج والداخل ـ مثلاً ـ عاد «أبو الحسن بني صدر» ـ أول رئيس للجمهورية الإسلامية في إيران ـ إلى المنفى في باريس ، وذهب «آية الله بهشتي» ـ أول رئيس للحزب الجمهوري الإسلامي ـ إلى لحد في حديقة الزهراء ، مثوى الشهداء قرب طهران !

في التناقض بين فكرة الدين وفكرة الوطنية ـ مثلاً ـ وجدت الثورة الإيرانية نفسها تتحول من ظاهرة إنسانية إلى ظاهرة شيعية محاصرة في إيران .

في التناقض بين الواقع الجديد في إيران وبين الواقع الإقليمي ـ مثلاً ـ وجدت إيران نفسها في حرب مسلحة مع العراق .

في التناقض بين الأحلام والحقائق ـ مثلاً ـ ضيعت الثورة الإيرانية سنة كاملة في مشكلة الرهائن تحت شعار «إذلال الولايات المتحدة» أعدى أعدائها ، ووجدت الثورة نفسها في معارك مع «الأكراد» و «الأذربيجانيين» و «البالوش» ـ وهم من مواطنيها .

وفي التناقض بين الجماعات الثورية وبين المؤسسات الدائمة وجدت الثورة نفسها عاجزة حتى عن حماية قادتها .

لقد تصورت ـ مثلاً ـ أنها تستطيع أن تحل جهاز الأمن السياسي وتحرق ملفاته ، ولكنها عندما بدأت تواجه أعداءها وجدت نفسها بغير معلومات ... بغير ذاكرة . وتصورت ـ مثلاً ـ أنها ليست في حاجة إلى إدارة ، ولكنها اكتشفت أنها غير قادرة على التخطيط ـ فضلاً عن التنفيذ ـ في أي مجال من المجالات .

* * *

برغم ذلك كله ما زلت أقول إن الوقت مبكر بعد لإصدار الأحكام . فكل ما واجهته الثورة الإيرانية حتى الآن ، هو ما واجهته وتواجهه أي ثورة تستحق هذا الوصف . فكل ثورة تواجه في العادة سلسلة مراحل متعاقبة .

فهي ـ أولاً ـ تعيش مرحلة الاندفاع : الحماسة شلالات هادرة ، والأحلام سحب طائرة ... والسماء هي الحدود ، هذا إذا كانت هناك حدود . في هذه

المرحلة تكون الثورة شعارات ومبادئ لا يملك أحد أن يختلف معها ، وهكذا تتجمع من حول الثورة قوى أوسع من قياداتها الحقيقية ، ويكون لدى قيادات الثورة من سعة الصدر والتسامح والرغبة في طلب الإجماع وتحقيقه ما يدعوها إلى الاستعانة بهؤلاء الذين جاءوا إليها من غير طريقها .

تجيء بعد ذلك ـ ثانياً ـ مرحلة الحقيقة ، رؤيتها أو الارتطام بها ، ويكون ذلك حين تظهر مصاعب التغيير وأحياناً مستحيلاته ، وحين يجيء مأزق التناقض بين الثورة والدولة . في هذه الحالة يكون أول الضحايا هم الأصدقاء الذين جاءوا إلى الثورة من خارج صفوفها ، يقع الخلاف بينهم وبين قيادات الثورة الحقيقية ، وتلقى عليهم مسؤولية التعثر ليس لأن القوى الثورية تبحث عن كبش فداء ولكن لأن هذه القوى تكون ما زالت بعد تحت تأثير أحلامها ، غير قادرة على تصوّر أنه ليس كل الأحلام قابلة للتحقيق ، فضلاً عن مشكلة الإيقاع الزمني اللازم للتحقيق ، وهي مشكلة لا يكفي لحلها هدير الشلالات أو ارتفاع السحب أو اتساع السماء إلى غير ما حدود !

إن الثورات تواجه هذه المرحلة بواحدة من اثنتين :

● إما أن تنظر إلى الحقيقة في عينها وتبدأ في مواجهة مشاكل التغيير وقضاياه بتعبئة كاملة للموارد والناس والظروف ،

● وإما أن تهرب من الحقيقة ، تجري وهي تتصور أنها تطارد أحلامها وهي في الواقع تطردها ، فإذا هي توسع في الداخل مواقع أعدائها ، وإذا هي في الخارج تستعدي على نفسها خصومات أكبر وأعمق مما تسمح به ضرورات تعبئة الموارد والناس والظروف ، خصومات كان ممكناً حلها أو كان واجباً تأجيلها ، لكن القيادات الثورية تتصور ـ خطأ في الغالب ـ أن عداواتها الداخلية والخارجية تعطيها الفرصة لبناء قاعدة قوية ، لكن مشكلة هذا النوع من القواعد أن رقعته تضيق مع كل يوم خصوصاً إذا التقت خصومات الخارج مع خصومات الداخل واشتدت الضغوط وساعدتها مصاعب التغيير .

إن الانزلاق إلى حالة الهرب من الحقيقة يقود الثورة إلى المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة التراجع ، وربما مرحلة الهزيمة .

ولقد شهد التاريخ من قبل ثورات تراجعت أو انهزمت قياداتها ، ولكن مبادئها وأفكارها انتصرت وسادت . وعلى سبيل المثال فلقد هوت المقاصل على رؤوس كل قادة الثورة الفرنسية . وحتى روبسبير زعيم مرحلة الإرهاب الثوري في وجه الإرهاب المضاد للثورة فقد رأسه حين جاء الدور عليه ـ لكن مبادئ الثورة الفرنسية وأفكارها استطاعت أن تتجاوز عصر الإرهاب الثوري والإرهاب المضاد ، وأن تتجاوز ظاهرة «بونابرت» ، وأن تتجاوز ظاهرة عودة «البوربون» إلى عرش فرنسا ـ لتؤكد بعد هذه العصور جميعاً سيادة الحرية والاخاء والمساواة وتفيض بها على أوروبا كلها والعالم بأسره ـ وليس فرنسا فقط !

لكن المأساة المروعة لدول العالم الثالث في العصر الحديث أنها جميعاً بنايا هشة في مواجهة رياح عاتية . وتراجع الثورة أو انهزامها يؤدي في الغالب إلى اندحار مبادئها وأفكارها أيضاً ، لأن الأقوياء الرافضين لهذه المبادئ والقيم يشددون ضغوطهم ولا يرفعون أيديهم إلا بعد أن يتأكدوا أن المثال الثوري قد أصبح أمثولة ثورية ... عادت بها الأمور بعد الثورة إلى أسوأ مما كانت قبلها ..

والسؤال الآن هو : أين تقف الثورة الإيرانية الآن ؟

أكاد أقول إنها تقف عند مفترق الطرق في المرحلة الثانية ـ مرحلة مواجهة الحقيقة .

ثلاثون شهراً من عمرها لم تأخذها بعد إلى ما وراء هذه النقطة ، وإن كانت هناك شواهد تدعو إلى القلق .

* * *

بقيت لي ملاحظة لا بد منها قبل أن أترك الكتاب يروي قصة الثورة الإيرانية كما تابعتها .

هذه الملاحظة هي أنني أعتذر مرة أخرى عن كتاب لي يقدم لقراء العربية بغير أسلوبي . ذلك أنني كتبته أصلاً باللغة الإنجليزية ، ولم يكن في استطاعتي ـ مع رغبتي في ذلك ـ أن أقوم بترجمته بنفسي إلى اللغة العربية وإلا كان معنى ذلك انني أكتب كتابين ... ذلك أن لكل لغة روحها وأسلوبها .

وأنا أعرف من تجارب سابقة لي أن تقديم كتاب مترجم لكاتب عربي له

أسلوبه الذي عرفه الناس عنه تجربة غريبة ، أشبه ما تكون برجل يقدم نفسه للناس بغير زيه المألوف ... عمامة فوق بذلة ، أو عقال فوق مايوه استحمام ـ مثلاً ـ لكن هذه التجربة الغريبة بدت لا مفر منها ـ مع الأسف ـ إلا إذا حمَّلت نفسي فوق ما أطيق وكتبت في نفس الموضوع كتابين وليس كتاباً واحداً !

والحقيقة أنني رفعت الحمل الذي كان يمكن أن أحتمله ووضعته على عاتق الأساتذة الذين تولوا ترجمة الكتاب من الإنجليزية إلى العربية وهما : الدكتور «عبد الوهاب المسيري» أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة عين شمس ، والأستاذ «الشريف خاطر» مدير عام الدراما والتخطيط بالشبكة الثقافية بالإذاعة المصرية ـ واثقاً في غير مراجعة أنهما سيقومان معاً بجهد مشكور يقدم حلاً معقولاً للمشكلة .

* * *

ينبغي أن أنوّه أيضاً أنني عدت في الطبعة العربية لهذا الكتاب إلى العنوان الأصلي الذي عملت تحته طوال فترة إعداده ، وهو عنوان «مدافع آية الله» . وقد رأى الناشرون في بريطانيا وأمريكا أن يعدلوا عنه في اللحظة الأخيرة إلى عنوان تقليدي آخر هو «عودة آية الله» ، وكان رأيهم أن العنوان الأول يعطي للقارئ انطباعاً عن الكتاب لا يتفق مع حقيقته ، فقد يتصوره البعض على أنه عرض صحفي سريع لوقائع الثورة الإيرانية من نوع ما يصدر عادة عن بعض الأحداث الكبرى وكأنه من حبوب البلع السريع التي تمتلئ بها الصيدليات الآن . فالقارئ الإنجليزي أو الأمريكي ـ في رأيهم ـ لا يعرف أن اهتمامي بإيران ـ وكتابي الأول عن الثورة الإيرانية الأولى أيام الدكتور «محمد مصدق» ـ يعود إلى قرابة ثلاثين سنة مضت . ولقد تصورت أن القارئ العربي يعرف الحقيقة ، وهكذا رجحت أن أعود في الطبعة المقدمة إليه لعنواني الأصلي الذي عشت معه سنتين في الإعداد لهذا الكتاب .

* * *

ثم أترك الكتاب لهؤلاء الذين دفعتهم النوايا الحسنة إلى طلبه ... راجياً وداعياً !

محمد حسنين هيكل

مُقَـــدِّمَةٌ

أخذت الثورة الإيرانية معظم الناس على حين غرة . فقد كانت الحكومات والجماهير تكتفي بـأن تنظر إلى هـذا البلـد على أنـه «جزيـرة مـن الاستقـرار» وسط منطقة يشوبها العنف وتتسم بالتفجر ـ وذلك هو الوصف الذي استعمله الرئيس الأمريكي السابق «جيمي كارتر» . وعلى ذلك فإن الاضطرابات التي أدت إلى إقصاء الشاه عن عرشه ، وقيام نظام إسلامي بعده بقيادة عدوّه اللدود «آية الله الخميني» ، لم تكن ظاهرة منعزلة . وإنما كانت وببساطة ، كما أرجو أن أبين خلال هذه الصفحات ، آخر فصل في عملية تاريخية طويلة تعود جذورها إلى الميراث القومي والديني للشعب الإيراني ، تفجرت ثم أخمدت ، أثناء الأزمة التي نجمت عن قيام الدكتور «محمد مصدق» بتأميم صناعة البترول عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣ ، وعند ذلك أخذت شكلاً سرياً إلى أن انفجرت بشكل نهائي عام ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ .

من خلال هذا الشكل الأخير الذي عبَّر عن الثورة ، أصبحت شيئاً يتخطَّى دلالاتها المحلية ، إذ أنها تضمنت العديد من العناصر التي تهيمن على العقد الذي بدأناه : وهي : البعث الإسلامي ، ومشكلة الطاقة ، والتوزيع الجديد لثروة العالم ، والتنافس بين القوتين الأعظم . كل هذه العناصر تضافرت لتحوّل منطقة الخليج إلى مركز الجاذبية في العالم . ولا شك أن ما حدث في إيران قد ترك أثراً علينا كلنا ، وقد لا يكون من قبيل المبالغة أن نطبق على إيران نفس كلمات «نابليون» التي أطلقها على مصر ذات مرة من أنها «أكثر البلاد أهمية» .

وعلاقتي بإيران علاقة طويلة ، ففي مرحلة الشباب الباكر كنت أشغل وظيفة المراسل المتجول في الشرق الأوسط لجريدة «أخبار اليوم» ، وكان بين المهام التي

قمت بها تغطية أزمة البترول الإيرانية عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ . وقضيت فترات طويلة في إيران ، وسافرت إلى كل أنحائها ، وقابلت كل قيادات العهد القديم من السياسيين أمثال «السيد ضياء الدين طباطبائي» ، وقوام السلطنة ، والدكتور «مصدق» بطبيعة الحال ، وأهم رجل من رجال الدين الشيعة في ذلك الوقت ومؤيد «مصدق» المتحمس «آية الله كاشاني» . وفي ذلك الوقت أيضاً دارت أول أحاديثي مع الشاه ، كما تعرفت على شقيقته التوأم الأميرة «أشرف» ، التي كان زوجها الأسبق «أحمد شفيق» ـ وهو مصري ـ صديقاً لي .

كانت خلاصة هذه التجربة كتابي الأول ، «إيران فوق بركان» ، الذي صدر بالعربية عام ١٩٥١ ، وكان كتاباً حسن الحظ مع قرائه . والكتاب الأول بالنسبة لأي كاتب يشبه الحب الأول ـ ذكرى تبقى معه إلى زمن طويل . لذا فإنني تابعت الأحداث في إيران باهتمام خاص لمدة ثلاثين عاماً تقريباً ، منذ نشر كتابي «إيران فوق بركان» .

وعندما نشبت الثورة في العراق عام ١٩٥٨ ، تم الإستيلاء على كل الوثائق التي وجدت في رئاسة حلف بغداد وأرسلت إلى القاهرة في طائرة خاصة . (كان ذلك في الأيام الأولى للثورة ، عندما كان قائدها اللواء «عبد الكريم قاسم» شديد الإعجاب بالرئيس «جمال عبد الناصر» ، وقبل أن يدب النزاع بينهما) . وكانت إيران عضواً أساسياً في حلف بغداد الذي كنت أهاجمه على صفحات «الأهرام» . وعندما أتيح لي الاطلاع على وثائق الحلف السرية ، سنحت لي الفرصة لكي أراجع مدى صحة افتراضاتي عما كان يدور في اجتماعات الحلف . وكانت تجربة ممتعة . كما أنني تمكنت أيضاً فيما بعد من أن أقارن بين المذكرات التي كنت أدونها عندما كنت مراسلاً في إيران من جهة ، وبين الحقائق التي تكشفت فيما بعد من خلال نشر مجموعات ضخمة من الوثائق الأمريكية . كل ذلك ساعدني أيضاً على أن أتأمل جذور الدراما التي وصلت ذروتها في الأشهر الأولى من عام ١٩٧٩ .

وفي أعقاب معارك ١٩٦٧ في الحرب مع إسرائيل ، وجدت نفسي ألعب دوراً في إعادة صياغة السياسة المصرية تجاه إيران . فبعد حرب ١٩٦٧ ، شعر

الكثيرون منا في مصر بالحاجة الماسة لتحالف جديد للقوى في الشرق الأوسط ، لا يضع حداً للخلافات بين العرب فحسب ، بل لكي يحشد تأييد كل الدول الإسلامية في المنطقة في عملية المواجهة مع إسرائيل . وأحسسنا أن نزاعنا مع إيران ، الذي يرجع تاريخه إلى أيام حلف بغداد ، وأدى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية ، أصبح يقتضي مراجعة . وتلقيت في ذلك الوقت رسالة ودية من الشاه مع السيد «عباس مسعودي» صاحب وناشر جريدة «اطلاعات» اليومية الإيرانية . وحضر السيد «مسعودي» ، الذي كان إلى جانب عمله الصحفي يشغل منصب نائب رئيس مجلس الشيوخ ، إلى القاهرة عام ١٩٦٨ ، ومرة أخرى عام ١٩٦٩ . وبعد مناقشات طويلة اتفقنا فيما بيننا على الخطوات اللازمة لعودة العلاقات الدبلوماسية ، بما في ذلك إعداد البيان المشترك . وأحب أن أتصور أنني ساهمت في إقناع الرئيس عبد الناصر بهذه الخطوة ، التي كللت بالنجاح في نهاية الأمر ، وقبل رحيله (في سبتمبر ١٩٧٠) بفترة وجيزة .

ولقد تلقيت دعوات عديدة من الشاه لزيارة طهران ، وفي عام ١٩٧٥ أمكن لهذه الزيارة المتأخرة أن تتم . وأدرت أحاديث طويلة مع الشاه نفسه ، ومع رئيس الوزراء وقتها «أمير عباس هوفيدا» ، ومع «جامشيد أموزجار» ، الذي خلف «أمير عباس» في منصب رئيس الوزراء بعد عامين : ومع الجنرال «نعمت الله ناصري» رئيس جهاز «السافاك» المخيف ، ومع آخرين عديدين . كما تمكنت أيضاً من مقابلة معارضي النظام والتحدث معهم ، بما في ذلك عديد من الطلبة الذين ينتمون إلى اليمين واليسار .

وبعد ثلاثة أعوام ، أعيدت الحلقة التي تربطني بالدراما الإيرانية مرة أخرى ، لكن في مكان جديد ، ومع ممثل جديد . فقد كنت في باريس في ديسمبر عام ١٩٧٨ ، وتلقيت دعوة لزيارة «آية الله الخميني» في بيته المتواضع في المنفى في «نوفل لو شاتو» . وقمت بهذه الزيارة ، وقضيت في صحبته عدة ساعات ، وتحدثت معه على انفراد وبالتفصيل في عدة موضوعات متنوعة .

وقد كان مقدراً لي أن أقابل «الخميني» مرة ثانية بعد عودته المظفرة إلى طهران ، ومرة أخرى قضيت ما يقرب من يوم أتناقش معه في مدينة «قم» .

كما تحدثت مع ابنه «أحمد» ، مساعده الأساسي ، ومع حفيده «حسين» ، وهو من أعضاء حاشيته ذوي الرأي . وأثناء هذه الزيارة سنحت لي الفرصة لمقابلة كل أعضاء المجلس الثوري ، بما في ذلك «الحسن بني صدر» ، الذي أصبح فيما بعد أول رئيس للجمهورية الإيرانية ، كذلك معظم الشخصيات القيادية الدينية ، والساسة ، والعسكريين المتصلين بالنظام الجديد . كما تحدثت طويلاً مع الطلبة الذين احتلوا السفارة الأمريكية . وقابلت كذلك «مهدي بازرجان» رئيس الوزراء ، الذي استقبلني في مكتبه الضخم ، الذي رأيت فيه «هوفيدا» من قبل (وقد رفض «بازرجان» أن يستخدم منضدة سلفه المستديرة الفخمة ، وفضل عليها منضدة عادية وبعض المقاعد ، كان قد أمر بوضعها في أحد أركان الغرفة) . كان رئيس الوزراء كريماً معي إلى حد أنه جاء بدفتر مذكراته اليومية الخاصة والذي كان يدوّن فيه وقائع الأيام الأخيرة للنظام القديم ، وقرأ عليَّ منها مقتطفات طويلة . كما أنني مدين بالشكر أيضاً وبشكل خاص لـ «ابراهيم يزدي» ، نائب رئيس الوزراء للشؤون الثورية في ذلك الوقت ، لإتاحته الفرصة لي للإطّلاع على ما تحويه خزانته من عدة وثائق هامة تتصل بنظام الشاه ، والتي ألقت كثيراً من الضوء على الأحداث الأخيرة .

وبعد فترة وجيزة من قيام الثورة وجدت نفسي مرة أخرى مستغرقاً في شؤون إيران بشكل مباشر ، وسأشرح في الفصل الخامس عشر الطريقة التي أصبحت بها أحد الذين وجدوا أنفسهم مشتركين في المفاوضات من أجل إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين . وأحداث هذا الكتاب تبدأ بزيارتي للسفارة الأمريكية المحتلة في طهران ، لذا فمن المناسب للغاية أن ينتهي بإطلاق سراح الرهائن .

إن الوضع الإيراني خلال الأربعين عاماً الماضية يتسم بدرجة هائلة من التركيب . ولا أزعم أن ما قدمته في هذا الكتاب هو أكثر من اختيار لبعض العوامل ــ التحركات ، والناس ، والأحداث ــ التي أسهمت في تكوين هذا الوضع . لكنني آمل أن أكون قد نقلت للقارئ شيئاً من افتتاني الدائم بهذا البلد ، كما أرجو أن أكون قد أعطيت تفسيراً منطقياً مترابطاً لهذا التفجير السياسي ، الذي يعتقد البعض أن لا تفسير له .

وأود أن أشكر الدكتور «محمد زكي بدوي» العالم الإسلامي ومدير المركز الإسلامي بلندن ، والاستاذ «فرد هاليداي» ، لقراءتهما مخطوطة الكتاب ، ولاقتراحاتهما المفيدة ، كما أود أن أشكر كذلك زميلي الاستاذ «فهمي هويدي» الذي صاحبني في رحلة عمل شاقة إلى طهران .

بقي أنني مدين بأفضال كثيرة لآخرين لا تسمح ظروفهم بأن أشير صراحة إليهم ... رجال عايشوا الحوادث وفتحوا قلوبهم لي بغير تحفظ ، وأرجو أن أكون قد أحسنت فهمهم ، كما أني أتمنى أن يكون قد تحقق لي ما تمنيته منذ البداية وهو أن أكون منصفاً وأميناً مع الحوادث ومع الرجال .

محمد حسنين هيكل

الفصل الأول

في السّفارة الأمْريكيّة

في السنوات الأخيرة ، دار الصراع في عدة أماكن بين القوتين الأعظم ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وكانت هناك رموز حية تشهد على حركة هذا الصراع . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يمكن الإشارة إلى حائط برلين وكوبا وأنجولا . وعبرت هذه المواجهة عن نفسها في قلب العاصمة الإيرانية طهران بشكل درامي لم تصله قط في أي مكان آخر ، حيث تقف سفارتا القوتين الأعظم كجزيرتين للتنافس الدولي تحيط بهما الملايين الإيرانية المحتشدة .

ومن المناسب أن تكون إيران هي خلفية هذا المشهد الرمزي ، إذ أنه لا يوجد بلد آخر له هذا الموقع والتاريخ المتميز ويصلح أن يكون مسرحاً لهذا الصراع بتلك الدرجة . وفي أفغانستان أعاد التدخل العسكري السوفيتي فجأة إلى ذاكرة العالم ، أن ما يفصل روسيا عن مياه المحيط الهندي الدافئة ، في الوقت الحالي ، ليس إلا خمسمائة كيلومتر من الأراضي الإيرانية . ومنذ فجر التاريخ كان هذا المعبر الأرضي بين الشرق الأوسط ووسط آسيا هو البوتقة التي تنصهر فيها الأجناس والحضارات. وهنا تتصادم المؤثرات الهندية بالمؤثرات العربية ، وهنا قامت قوى أجنبية من أصول متباعدة مثل المغول واليونان بالتغلغل فيها وغزوها .

ومن أكثر الحقائق أهمية لتفهم الأحداث الأخيرة ، أن إيران تعد أول إقليم في الشرق لم يدخله الإسلام والعروبة معاً في القرن السابع الميلادي . وإذا كان الأقباط في مصر والموارنة في لبنان قد قبلوا العروبة بغير الإسلام ، فإن مثل هذه المجموعات ظلت أقليات ، أما في إيران فتوجد أمة بأسرها فعلت عكس ذلك ـ قبلت الإسلام وليس العروبة .

ولعدة قرون سيطر الدين على حياة شعوب هذه المنطقة ــ المسلمون السنيون

في الأمبراطورية العثمانية ، والشيعة في إيران ، بعد ذلك ، وتحت تأثير الأفكار الغربية والأسلحة ، ظهرت القومية كمفهوم جديد . إذ استنتج عديد من الوطنيين العقلاء في إيران (والشرق الأوسط وشمال أفريقيا وآسيا) أنه لو أصبح أبناء وطنهم واعين بأنفسهم كأفراد ينتمون لأمة قديمة معتزة بنفسها ، لأمكنهم مقاومة دول الغرب التي اقتحمت عليهم أوطانهم . هذا المفهوم الجديد سيقوم ولا شك بالمساهمة في عملية ضم أعضاء الأقليات العرقية والدينية داخل إطار من الوحدة كمواطنين متساوين مع غيرهم في الحقوق . وهذا لا يعني أن القومية الجديدة لا تتفق مع الدين ، بل على العكس ، فكلما أصيبت القضية القومية بنكسة نجد الشعوب التي تناضل من أجل الحفاظ على استقلالها تهرع إلى قلعة معتقداتها الدينية ، تحمي نفسها داخل أمان اليقين المطلق .

كانت إيران في القرن التاسع عشر هي أرض المعركة الدبلوماسية التي دارت بين بريطانيا وروسيا القيصرية من أجل التفوق والسيطرة . وخلال الثلاثين عاماً الماضية شاهدت نفس الأرض أبطالاً جدداً ، إذ حلّت الولايات المتحدة محل بريطانيا وحل السوفيت محل القياصرة . وفي الوقت الحالي ــ حيث تنتج منطقة الخليج ٦٠ ٪ من البترول ، أهم سلعة في العالم ، كما أن بها ٧٠ ٪ من احتياطي البترول المعروف ، هذا بالإضافة إلى أنه يخرج من هذه المنطقة نصف النقد الذي يتدفق في أسواق العالم ــ يتجلى بوضوح أن العناصر التي يتم المقامرة والصراع عليها ، أهم بكثير من تلك التي كان يتم الصراع عليها في القرن التاسع عشر .

* * *

ومن الأمور الملفتة للنظر أن السفارتين اللتين ترمزان لهذه المواجهة لم تكونا موقعين دبلوماسيين عاديين . فإن كلمة «سفارة» تستدعي لأذهان العديدين صورة مبنى واحد ، أو حتى شقة ، يرتفع عليها علم . ولكن هذا ليس هو الحال مع هاتين السفارتين ، اللتين كان من حسن حظي أن أقوم بجولة في كل منهما مع دليل خاص . كان «فلاديمير فينو جرادوف» السفير السوفيتي في طهران عام ١٩٧٩ هو دليلي في زيارة طويلة لمجمع السفارة السوفيتية . كان «فينو جرادوف» صديقاً قديماً منذ الأيام التي عمل فيها سفيراً في القاهرة ، تلك الأعوام الأربعة

الحرجة بعد رحيل الرئيس عبد الناصر ، وهي الأعوام التي وقعت أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ . أما دليلي ـ أو أدلائي ـ في مجمع السفارة الأمريكية فكانوا هم أنفسهم الطلبة الذين قاموا باحتلالها .

تتكون السفارة السوفيتية من مجموعة من المباني يحيط بها سور مرتفع ، توجد داخله عدة قصور وعدة منازل صغيرة وبيوت من طابق واحد ، وكذا عمارات سكنية ومستشفى ومحطة لتوليد الكهرباء . وتوجد أيضاً بحيرة فيها قوارب للتجديف وبجع ، وغابة صغيرة بها قطيع من الغزلان . وفي أحد جوانب المجمع يوجد قصر «الأتابك» . و«الأتابك» كلمة تركية تعني الحاكم أو الوصي على العرش ، وهذا أمر يحمل مفارقة تثير التأمل لأنه في هذا المكان في الماضي كان أحد المماليك الأتراك يتولى عملية تربية ولي العهد إلى أن يبلغ سن الرشد .

وقد تحوّل القصر الآن إلى متحف ، يعقد فيه السفير حفلتي استقبال كبيرتين لضيوفه مرتين في العام ـ الأولى في احتفالات أول مايو ـ عيد العمال ـ والثانية في احتفالات ذكرى ثورة أكتوبر . وفي العادة يقوم الضيوف بجولة في الحجرة التي شهدت مؤتمر الثلاثة الكبار في ديسمبر ١٩٤٣ . ويذكِّر السفير الزوّار دائماً بأن الرئيس «روزفلت» اختار أن يقيم في السفارة السوفيتية في فترة المؤتمر ، وأن صداقته مع «ستالين» نشأت وتطورت في هذه الفترة . وعند عودته بعد نهاية المؤتمر ، قال «روزفلت» للشعب الأمريكي «يمكنني القول أنني والمارشال ستالين كنا متفاهمين للغاية» . وقد تركت الحجرة التي خصصت للرئيس «روزفلت» كما هي . أما «تشرشل» فكان يعبر الشارع ليأتي من السفارة البريطانية لحضور اجتماعات المؤتمر (وفي تلك الأيام كانت السفارتان البريطانية والروسية هما السفارتان اللتان تواجه إحداهما الأخرى بشكل واضح للعيان) . في هذه الحجرة زرعت بذور سوء التفاهم الذي ظهر فيما بعد في يالطا التي جرى فيها تقسيم أوروبا إلى مناطق نفوذ .

وبطبيعة الحال اتخذت الاحتياطات الشديدة لحماية مجمع السفارة ، إذ عزّز السور المرتفع بسور مكهرب . كما أن العاملين داخل المجمع ـ من السفير إلى الطباخين ـ كانوا مواطنين سوفيت . ويتراوح عدد موظفي السفارة في الظروف

العادية من ١٢٠ إلى ١٤٠ ، وحوالى ٣٦ حارساً .

ولا تكتظ السفارة الأمريكية بالإيحاءات التاريخية مثل السفارة السوفيتية . كما أنها لا تضم بحيرة يسبح فيها البجع أو غابة تمرح فيها الغزلان . ومع أنها مبنى معاصر وحسب ، إلاَّ أنها ليست أقل تأثيراً في النفس . والسفارة مثلثة الشكل تشغل مساحة تبلغ ٦٠ هكتاراً وتقع في وسط المدينة ، وتضم حوالى ثلاثين مبنى متعددة الأشكال ـ مكتب كبير رئيسي ، ومقر السفير ، ومركز قيادة البعثة العسكرية ، ومركز الاستعلامات ، والقسم التجاري ، ومنازل الملحقين العسكريين ، وغيرها من المباني . وتعد مراكز الاتصال من المباني الهامة في كلا السفارتين . فغابة الهوائيات المنتصبة التي تنبثق فوق أسطح السفارتين تعطي الانطباع أنه هنا فوق هذه الأرض الغريبة يتحدث الأمريكيون والروس مباشرة ويتشاجرون مع بعضهم في الهواء .

هنا إذن وقفت القوتان الأعظم الواحدة ضد الأخرى ، ولكل منهما مصالح وأهداف متناقضة للغاية . وقد تجد القوتان الأعظم في بعض الأجزاء الأخرى من العالم أن الحفاظ على التوازن القائم من مصلحتهما المشتركة ، ولكن ليس هذا هو الحال في إيران أو الخليج . إذ أن الأمريكيين في هذه المنطقة كانوا قد حصلوا تقريباً على كل ما يريدون من البترول والسلطة وهيمنوا على كل الأمور ، ولذا أرادوا أن يحتفظوا بالوضع القائم بأي ثمن . أما الروس من ناحية أخرى فقد تم استبعادهم من المنطقة على المستويين الاقتصادي والاستراتيجي ، على الرغم من أنها منطقة تقع على حدودهم ، وكان لهم فيها نفوذ لا يستهان به في الماضي . ولذا كان من مصلحتهم أن يروا الوضع القائم وقد تزعزع ـ تزعزع بعض الشيء وليس كلية لأنه يمكن القول أن الروس لا يحبون مشاهدة الثورات العنيفة وهي تضطرم عند عتبة دارهم ، وإنما يفضلون أن يروا الأمور وهي تتحول بالتدريج لصالحهم . ولذا نجد أن الروس هم الذين كانوا يبحثون عن التغيير في إيران ، وأن الأمريكيين هم الذين كانوا يقاومونه . وفي بلد من بلاد العالم الثالث مثل إيران ، نجد أن التغيير أمر حتمي تأخر عن وقته ، وكل من يحاول أن يحافظ على الوضع القائم يجد نفسه لا محالة يلعب دور الشرطي ، أما هؤلاء الذين يبحثون عن التغيير فكثيراً

ما يجدون أنفسهم مواجهين بشيء مختلف للغاية عن توقعاتهم وآمالهم .

وهكذا أصبحت السفارة الأمريكية في طهران العصب الرئيسي للتحكم في المنطقة . وحينما بدأت إيران تلعب دور الشرطي في منطقة الخليج ، تحولت السفارة الأمريكية إلى مخفر للشرطة . ولم تعد مهمة موظفي السفارة مجرد الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية مع حكومة الشاه ، وإنما أصبحت حماية نظامه . أي أن السلطة رغم أنها كانت مقسمة بين الشاه في قصر «نيافاران» والأمريكيين ، إلا أن مجمع السفارة في واقع الأمر أصبح أهم بقعة في كل إيران بأسرها .

لذا لم يكن من الغريب أن تكون عناصر من المخابرات المركزية بين موظفي السفارة واضحة للغاية . ولا يمكن لأحد الآن أن ينكر أن تدخل وكالة المخابرات الأمريكية هو الذي استرجع للشاه عرشه عام ١٩٥٣ ، وأن كل السفراء الأمريكيين الذين عينوا في إيران بعد ذلك كان لهم اتصال بوكالة المخابرات ، إلى أن وصلت الأمور إلى نتيجتها المنطقية عام ١٩٧٣ حين عيّن «ريتشارد هيلمز» رئيس وكالة المخابرات آنذاك ، سفيراً لبلده في إيران .

* * *

كان الشاه يقابل مندوب وكالة المخابرات الأمريكية في طهران مرة كل أسبوع ، وكان الوقت المخصص لذلك هو يوم السبت الساعة التاسعة صباحاً ولمدة ساعتين . ولكن حينما ازدادت ثقة الشاه في نفسه ، أخذت العلاقات بينه وبين السفارة في التغيير ، إذ أنه كان يشعر بأن الأمريكيين يحتاجون إليه أكثر مما يحتاج هو إليهم ، بينما بدأ الأمريكيون يشعرون أن الأداة التي اختاروها للسيطرة على المنطقة بدأت تبدو عليها مظاهر روح تمجيد الذات : الأمر الذي كانت له نتائج بالغة الإزعاج إلى درجة أن «وليم سيمون» وزير الخزانة في حكومة «نيكسون» وصف الشاه أمام لجنة العلاقات الخارجية بأنه «مهووس ومصاب بجنون العظمة» . وهكذا لم تعد مصالح الشاه والأمريكيين متماثلة . وبناء على هذا التغيير حدثت نتيجة غريبة بعض الشيء ، وإن كانت دون شك حتمية أيضاً ، وهي أن كلاً من الشاه والأمريكيين بدأ يتجسس على الآخر ، فكان الشاه يحاول أن يجنّد العملاء في السفارة ، بينما كانت السفارة تحاول بدورها أن تجنّد العملاء

في القصر . وقد نجح كل من الطرفين في محاولاته بعض الشيء .

وبعد قيام الثورة بفترة قصيرة قبض على الجنرال «نعمت الله ناصري» ، رئيس جهاز المخابرات المعروف بـ «السافاك» ، وقتل رمياً بالرصاص بعد أن حاول أن ينقذ نفسه بأن يقدم اعترافاً كاملاً . ولكن هذه المحاولة لن تنجح في استدرار عطف القضاة . وكان اسم عميل «السافاك» داخل السفارة الأمريكية أحد الأسرار التي كشفها للذين قاموا باعتقاله . وقد سمي هذا العميل الذي لم يكن في الواقع أمريكياً أو إيرانياً ، بالاسم الحركي ـ حافـظ . ويبدو أنه حينما اختارت «السافاك» اسم أشهر شعراء فارس فإنها كانت تحاكي بذلك المخابرات الألمانية التي أطلقت اسم «شيشرون» ، كاسم حركي ، على الخادم الألباني للسفير البريطاني في أنقرة ، وكان هذا الخادم يخدِّر سفيره كل ليلة ويأخذ مفاتيح خزانته ثم يصور أخطر الوثائق فيها ويسلمها للألمان ، واستمرت هذه العملية معظم سنوات الحرب . وبعد أن كشف الجنرال «ناصري» شخصية هذا العميل ، اتصلت به السلطات الثورية سراً ، ووعـدته بالأمان إذا ما استمر في نشاطه لصالحهم . فقام بهذه المهمة ولكن بنجاح محدود لأنه كان في حالة فزع كاملة . ولكنه مع هذا قام بتسليمهم مجموعتين من الوثائق تضمنت برقيات متبادلة في أيام الشاه الأخيرة وأيام الثورة الأولى بين السفير «سوليفان» و «بروس لانجدون» القائم بالأعمال والذي حل محله من جهة ، و «سايروس فانس» والقسم الإيراني في وزارة الخارجية الأمريكية من جهة أخرى . وقد وصلت هذه البرقيات في نهاية الأمر إلى مكتب وزير الداخلية الجديد في الحكومة الثورية «آية الله هاشمي رافاسنجاني» ، وبعد التحقيق مع حافظ عدة مرات والحصول على ما كان تحت يديه من وثائق وأسرار ، وضع في سيارة مرسيدس مصفحة ضد الرصاص ، ثم في طائرة ذاهبة إلى باريس حيث اختفى هناك .

كل هذا يعني أنه بحلول سبتمبر ١٩٧٩ كانت الحكومة الجديدة على دراية كاملة بالبرقيات المتبادلة بين واشنطن وطهران بخصوص الإجراءات اللازم اتخاذها مع الشاه . وكانت هذه المعلومات هي التي أدت إلى احتلال الطلبة للسفارة في نوفمبر . حيث أن البرقيات كانت تدل على أن رحلة الشاه إلى الولايات المتحدة

كانت شيئاً خطط له منذ زمن بعيد . ولم تكن مجرد استجابة إلى نداء إنساني مُلحّ كما كان الزعم في ذلك الوقت .

وعلى سبيل المثال كانت إحدى الوثائق التي تمَّ الإستيلاء عليها ورقة تقدير موقف كتبها «هنري برشت» مدير قسم الشؤون الإيرانية في وزارة الخارجية الأمريكيــة . ومؤرخة بتاريخ أغسطس ١٩٧٩ وكتب عليها «سري للغاية . موضوع حساس» كانت الورقة بعنوان «التخطيط لحضور الشاه للولايات المتحدة» ، وتبحث في ثلاث تساؤلات واسعة : ما هي الظروف الجديدة التي قد تبرر إدخال تغيير على موقف الولايات المتحدة ؟ وما هي الذرائع التي يجب البحث عنها للشاه ولوزارة الخارجية قبل ذهابه إلى هناك ؟ وما هي الترتيبات التي يجب اتخاذها بالنسبة لموظفي السفارة حتى يمكن القيام بحمايتهم ؟

وتحت العنوان الأول تنبأ كاتب الورقة ، بناء على تقديره للموقف ، بأنه مع نهاية العام ستكون هناك فرصة كبيرة بأن يكون لإيران رئيس للجمهورية ومجلس تشريعي جديد ، وعندئذ «يجب أن نخبر الحكومة الجديدة أننا نرغب في إنهاء كل الموضوعات المعلقة في جدول الأعمال القديم بما في ذلك وضع الشاه» .. ويجب أن يحاط الإيرانيون علماً «عن الضغوط الشديدة التي تمارس كي يحضر الشاه إلى الولايات المتحدة وهي ضغوط نقاومها على الرغم من سياسة الباب المفتوح التقليدية التي نتبناها» . ولكن الورقة اقترحت أنه «إذا لم تؤلف حكومة جديدة في نهاية العام ، فمن الممكن الدفاع عن الموقف القائل بالسماح للشاه بدخول الولايات المتحدة على أية حال . حتى نفرغ من هذه الخطوط الحتمية» . ثم استمرت الورقة على هذا النحو : «وسواء اتبعنا السيناريو الأول أو الثاني . فيجب علينا أن نهدف إلى إحداث تغيير إيجابي في موقفنا تجاه الشاه بحلول يناير ١٩٨٠» . وفي الختام ذكرت الورقة «أن خطر اختطاف الموظفين الأمريكيين بالسفارة كرهائن لا يزال قائماً . على الرغم من أن هذا الخطر قد تناقص عما كان عليه الحال في الربيع» . وعلى كل حال فإنه «يجب ألا نتخذ أية خطوة نحو السماح للشاه بدخول الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن نكون قد عيَّنّا للسفارة قوة حراسة جديدة أكثر فعالية وقبل أن توضع هذه القوة موضع الاختبار» .

إن رؤية وزارة الخارجية الأمريكية في أغسطس بالسماح للشاه بدخول الولايات المتحدة على أنه «خطوة حتمية» يـدل على أن تأكيد واشنطن بأنه سمح له بالدخول في نوفمبر بسبب تدهور صحته إنما هو محض هراء . وعلى الرغم من تدهور صحته بالفعل ، إلا أن هذا لم يغيِّر اقتناع الإيرانيين الراسخ بأن ثمة مؤامرة قد دبّرت ، فهم كانوا يعلمون تمام العلم بأن الشاه كان يرغب دائماً في أن يكون مكان نفيه هو الولايات المتحدة وليس مصر أو المغرب ، على أن تكون سويسرا هي المقر البديل المحتمل في شهور الشتاء . كما أنهم كانوا على دراية كذلك بالضغوط الشديدة الـتي كان يقوم بها البعض بالنيابة عن الشاه والتي كان يتزعمها «هنري كيسنجر» و«دافيد روكفلر» فبنك «تشيس منهاتن» ، الذي كان يترأسه «روكفلر» كان هو القناة الأساسية التي تعاملت حكومة الشاه من خلالها مع الغرب . ومنذ عام ١٩٥٤ كان بنك «تشيس منهاتن» هو الذي يقوم بتسلم عائدات بيع البترول الإيراني إلى الغرب ، وكذلك بأعمال مؤسسة بهلوي المصرفية ، وإذا كان متوسط دخل إيران من البترول ٣٠ بليون دولار سنوياً في فترة السنوات الخمس ٧٤ ـ ٧٩ فإنه يمكننا أن نرى أن ثمة مبالغ هائلة من المال كانت موضع التعامل ولم يكن من الغريب قط أن تكون الضغوط التي تمارس من أجل هذا العميل الجيـد شديدة للغاية .

* * *

وفي سبتمبر كان «إبراهيم يزدي» وزير خارجية إيران آنذاك في الأمم المتحدة في نيويورك بعد أن حضر اجتماع دول عدم الإنحياز في هافانا . وقد رتبت له ثلاثة اجتماعات مع «سايروس فانس» وزير الخارجية الأمريكية ، الـذي كان يود إقناع «يزدي» بعدة نقاط :

أولها : ان الأمريكيين يريدون من الحكومة الثورية أن تفهم أن الشاه من وجهة النظر الأمريكية قد انتهى كليةً .

ثانياً : أنهم لا يزالون يشعرون بأن الولايات المتحدة وإيران حلفاء طبيعيون بسبب مخاوفهم المشتركة من الاتحاد السوفيتي .

ثالثاً : ان الأمريكيين يتفهمون ويحترمون كلاً من الثورة الإيرانية والخميني .

رابعاً : ان الأمريكيين يأملون في إمكانية بداية صفحة جديدة في العلاقات الأمريكية الإيرانية ، وأنهم مستعدون للنظر في الاقتراحات الرامية للوصول إلى هذا الهدف بأيسر الطرق .

وعاد «يزدي» إلى طهران حاملاً رسالة «فانس» معه ، وقدم تقريراً إلى «الخميني» ولكن الوثائق التي أخذها «حافظ» خلسة ، والتي كانت قد وقعت في حوزة الحكومة الثورية أثناء سفره بيَّنت أن عدداً كبيراً من الأشخاص ذوي النفوذ كانوا يحثون الحكومة الأمريكية على إعطاء الشاه حق الالتجاء إلى الولايات المتحدة ، وأن الأمريكيين لم يبحثوا هذا الاحتمال بشكل جاد وحسب (وإن كانت السفارة الأمريكية في طهران عارضت الفكرة) وإنما كانوا يحاولون أيضاً الاتصال بالعناصر الساخطة في إيران ، وبخاصة ضباط الجيش والأقليات في كردستان وأذربيجان (كما بيّنت الوثائق) ولذا فحينما نقل «يزدي» نقاط «فانس» لـ «الخميني» سأله الأخير : «هل تعني أنهم لم يخبروك بأي شيء عن ذهاب الشاه للولايات المتحدة ؟» وكانت دهشة «يزدي» شديدة بطبيعة الحال حينما عرف أسباب هذا السؤال الذي بدت لهجته مفعمة بالشك .

بعد هذه المقابلة بفترة وجيزة ذهب «لانجين» ، القائم بالأعمال لزيارة «يزدي» وطلب منه تدعيم الحراسة على السفارة . فسأله «يزدي» عن أسباب هذا الطلب ، فشرح له «لانجين» أن السفارة تعرضت بالفعل لعدة هجمات ، فأجابه وزير الخارجية الإيرانية أنه ذهب بنفسه إلى السفارة وبحث الأمر وأنه يعتقد أنه لا يوجد أي مجال للقلق . وكان كل من «يزدي» و«لانجين» في ذلك الوقت يعرف بطبيعة الحال إمكانية ذهاب الشاه إلى الولايات المتحدة ، ولكن لم يكشف أي منهما للآخر عن معلوماته .

استمرت جهود الأمريكيين الرامية إلى إقامة بعض الجسور بينهم وبين السلطة الجديدة في طهران ، فقد عقدوا بعض الأمل على «مهدي بازرجان» رئيس الوزراء ، ولذا اتخذت ترتيبات نحو عقد لقاء بينه ، هو و«يزدي» مع «زيجنيو برجنسكي» مستشار «كارتر» «للأمن القومي» في مدينة الجزائر أثناء وجودهم هناك بمناسبة احتفالات الجزائر بعيد استقلالها في أول نوفمبر . ولكن الشاه كان

قد ترك مدينة مكسيكو إلى نيويورك يوم ٢٢ أكتوبر . وقبل أن يبدأ «يزدي» رحلته إلى مدينة الجزائر أرسل احتجاجه إلى القائم بالأعمال الأمريكي ، على أن يناقش هذا الأمر مع «برجنسكي» ولكنهما حينما تقابلا ، أنكر «برجنسكي» أي معرفة بالاحتجاج وفسر ذلك بأن الاحتجاج لا بد وأن يكون قد وصل إلى واشنطن بعد رحيله عنها إلى مدينة الجزائر . وكل ما وعد به بأنه سيقوم ببحث الموضوع بعد عودته . ولكن الأوان كان قد فات ، إذ أن «لانجين» كان قد أخبر القائم بأعمال رئيس الوزراء في طهران أن السبب وراء رحلة الشاه إلى الولايات المتحدة هو الحاجة الملحة للعلاج الطبي ، وأن السماح له بدخول الولايات المتحدة كان لأسباب إنسانية محضة . ولكن هذا التفسير لم يكن مقنعاً حيث أن كل أعضاء المجلس الثوري كانوا يعرفون في ذلك الوقت أن زيارة الشاه كانت موضع نقاش لعدة شهور ، كما كانت تسيطر عليهم ذكريات عام ١٩٥٣ المفزعة والتي جعلتهم دائبي الترقب للانقلابات المضادة التي يحيكها جهاز المخابرات المركزية .

ولذا ففي الثاني من نوفمبر ، أثناء اللقاء الذي تم في مدينة الجزائر أصدر «الخميني» بيانه للطلبة يحثهم على أن يفتحوا عيونهم ويراقبوا مؤامرات الولايات المتحدة ، هذا «العدو الخبيث» . وبناء على ذلك قامت اللجنة الثورية داخل جامعة طهران باعتماد خطة للهجوم على السفارة الأمريكية ، وهي عملية كان قد أعدَّ لها في واقع الأمر منذ أوائل سبتمبر ، حينما عرفت اللجنة بالوثائق التي هربها «حافظ» من السفارة ، وعلى الرغم من أن حجة الإسلام «موسوي خوئيني» لم يكن عضواً في المجلس الثوري ، إلا أنه كان المسؤول عن أنشطة الطلبة أمام المجلس وكان أحمد ابن الإمام الخميني ، هو حلقة الاتصال بينه وبين أبيه . وقامت لجنة الجامعة ، تحت رعاية «خوئيني» بتنفيذ خطة الطوارئ لغزو السفارة والاستيلاء على بقية الوثائق التي كانوا يعلمون أنها ستزودهم بكثير من المعلومات عن سياسات الشاه واتجاهاته ، استناداً إلى العينة التي هربها «حافظ» .

* * *

ولا يوجد شاهد أكثر درامية على تآكل النفوذ الأمريكي في إيران من أن السفارة ولمدة شهرين لم يكن عندها أية معلومات عن الهجوم الذي كان يدبَّر

ضدها . هذا المكان الذي كان يعد لأعوام عدة المـركز الذي تتجمع فيه يومياً كل المعلومات عن الشرق الأوسط أصبح لا يعلم بما يدور على عتبة داره ، لقد كان موظفو السفارة يعملون ويعيشون في عزلة إلاَّ من الاتصالات الرسمية بين «لانجين» و «يزدي» والتي كانت لا تتم إلا في فترات متباعدة .

وحينما عرف العالم عن طريق الصحف وشاشات التليفزيون بالهجوم على السفارة ، كان الانطباع العام أن الذين قاموا به هم جماعات من الغـوغـاء لا تخضع لأي نظام . وان أنباء وصول الشاه إلى الولايات المتحدة ومواعظ المتدينين المتعصبين دفعتهم إلى هذا العمل العفوي . مثل هذا التصور ـ كان بعيداً كل البعد عن الواقع ، فعندما استجوبت السلطات الثورية «حافظ» أعطاها كل ما يمكنه من معلومات عن السفارة ـ مواقع الحراس ، ونقط الضعف التي كان يتصور وجودها في سور السفارة ، وغيرها من المعلومات ، كما زودهم بخريطة لكل مجمع السفارة . ولذلك حينما تم الهجوم نفذته فرقة مدربة جاهزة تعرف مهمتها تماماً . ويبلغ عدد الطلبة الذين اشتركوا في التخطيط المبدئي تحت قيادة «خوئيني» بين أربعين أو خمسين ، وتم إبلاغ موعده إلى أكثر من ٤٥٠ طالباً ممن سموا أنفسهم بـ «المرابطين» (وهو الاسم الذي استخدمه المقاتلون الذين كانوا يرابطون في المواقع الأمامية لحراسة الثغور والحدود مع بيزنطة في السنوات الأولى للإسلام) ومن المحتمل أن عشرة من بينهم كانوا مسلحين بالمسدسات ولكنهم في مجموعهم اعتمدوا أساساً على السواعد والإعداد الدقيق لإحراز النجاح في مهمتهم . حظيت فكرة التحرك ضد الأمريكيين بتشجيع «الخميني» الذي كان يعلم دون شك أن هناك تخطيطاً يجري لشيء ما ، ولكن تفاصيل الهجوم على السفارة تركت لكل من «خوئيني» والطلبة .

خلال ثلاث ساعات تم كل شيء . ولما بدأت الجماهير في التجمع والهجوم ذهب «لانجين» إلى وزارة الخارجية ليقدم احتجاجه وليطلب الحماية . وعند عودته كانت السفارة قد احتلت ، ولذا مكث خارجها ، ولم يكن هناك مفر من أن يقضي فترة احتجازه في مبنى وزارة الخارجية . أما بقية موظفي السفارة فكانوا في حيرة من أمرهم . كيف يستجيبون لهذا الموقف . فكان أحد بحارة

الأسطول القائمين بحراسة البوابة مسلحاً بمدفع رشاش ، ولكنه لم يتلق أوامر بأن يطلق النيران . ولذا حينما سخرت منه الجماهير قائلة «إن كنت تريد أن تطلق علينا النيران فلتفعل» ، لم يفعل شيئاً . وقد جرح هذا الجندي وجرد من سلاحه واستخدم الغاز المسيل للدموع في محاولة إيقاف المقتحمين ، كما أغلقت بعض أبواب الأمن المصنوعة من الصلب في بعض المباني . وفي الوقت نفسه كانت آلات فرم الأوراق تعمل بشكل مستمر كما كان يتم حرق بعض الوثائق ولكن دون جدوى . وقد أظهرت التفاصيل فيما بعد أن «الخميني» دهش وسر بأحداث الصباح ولعله كان يعتقد أنه لم يكن من الممكن احتلال كل السفارة ـ وبخاصة في مثل هذا الوقت القصير ودون خسائر في الأرواح .

* * *

ومن نتائج احتلال السفارة أن الطلبة ، أو النخبة بينهم المسمين بالمرابطين ، أصبحوا قوة سياسية بذاتها ، فهم الذين قاموا بالإعداد للهجوم وبتنفيذه ، واستمروا في احتلال السفارة ، وهم الذين احتلوا العناوين الرئيسية للصحف العالمية . وقد سنحت لي فرصة التعرف عليهم حين ذهبت إلى طهران في أوائل ديسمبر كي أرى بعيني ماذا يحدث ، شأني في ذلك شأن الصحفيين الآخرين . ودون أن أغرق في التفاؤل ، كنت آمل ، شأني في هذا أيضاً شأن الصحفيين الآخرين ، أن أقابل بعض الطلبة . وكم كانت دهشتي حينما طلبني بالتليفون أحدهم بعد أن وصلت إلى طهران ، وأخبرني أنهم قرأوا في إحدى الصحف عن وصولي وأنهم يعرفون مدى صداقتي لعبد الناصر ويودون مقابلتي .. «لدينا موضوعات كثيرة نريد أن نتحدث فيها معك» ـ كان هذا هو مضمون رسالتهم .

ظننت في بداية الأمر أن المكالمة التليفونية مجرد خدعة . وكانت وزارة الخارجية الإيرانية قد عيّنت لي مرافقاً رسمياً يتحدث الإنجليزية . وحينما أخبرته أنني أريد الذهاب إلى السفارة الأمريكية نظر إلي باستغراب ، ولكنني أخبرته أنه من الأفضل أن نذهب ونرى . ولو كان في الأمر خدعة فلن يلحق الضرر بأحد . وهكذا بدأنا رحلتنا إلى هناك .

* * *

كانت الجماهير تموج خارج بوابة السفارة الرئيسية ـ تموج بالليل كما كانت تموج بالنهار ، كما اكتشفت فيما بعد . إذ كان كثيرون من سكان طهران يذهبون إلى السفارة الأمريكية للتسلية وللمشاركة السياسية إن لم يكن هناك أمر آخر يشغلهم . هناك كانوا يستمعون للخطب والمواعظ التي تحملها اليهم مكبرات الصوت من داخل السفارة ، وإلى مكبرات أخرى تدوي بصوت الموسيقى العسكرية . وفي خارج المبنى على الأرصفة كان ثمة أناس يبيعون تسجيلات على الكاسيت لمواعظ «الخميني» وجماعات تدرس القرآن وتستمع لتعاليم الإسلام . وبعض الفتيات اللاتي يرتدين الشادور يقدمن صوراً «للإمام» وكتباً عن الإسلام والعدالة الثورية ، بينما كانت هناك أخريات ترتدين البنطلونات «الجينز» يبعن كتابات «لينين» و«تروتسكي» وكتيبات ماركسية متنوعة .

هذه هي الثورة في أوضح أشكالها وأكثرها تميزاً . ومن دواعي السخرية أن كل هذا كان يحدث في شارع كان يدعى في الماضي شارع «فرانكلين روزفلت» ولكنه يدعى الآن باسم العالم الديني الشعبي الذي مات مؤخراً ـ آيه الله محمود الطالقاني .

وبعد أن شق رفيقي طريقه خلال حشود الناس إلى أن وصل إلى أبواب السفارة وأعلن عن وصولنا ، ظهر أربعة من الحرس الثوري وفتاة تحمل مدفعاً رشاشاً . وقابلوني بعاصفة من الترحيب ، وعانقني قائدهم . وفي نفس الوقت قدّموا لي ولرفيقي شارات تحمل أسماءنا كان علينا أن نعلقها على صدورنا كما لو كنا سندخل إحدى المنشآت النووية السرية . ولم يكن هناك احتمال أن نضل الطريق أو أن نفقد هويتنا ، فإن الشارات ، التي أعدناها عند مغادرتنا المبنى ، كانت تعبيراً مؤثراً عن كفاءتهم الإدارية .

قضيت أربع ساعات في السفارة مع الطلبة ، منها ثلاث ساعات في المناقشة وساعة واحدة خصصت للقيام بجولة مع عدد منهم في مجمع السفارة . أكد لي الطلبة ابتداءاً أنهم وجدوا السفارة مجهزة لتحمل حصار قد يدوم خمسة أعوام ، واصطحبوني إلى مبنى مكتظ بكميات هائلة من الطعام ـ الكورن فليكس ، والبيض ، وعلب التونة والسردين ، والجبن وخلافه ، وبينما هم يدفعون الباب

لفتحه قالوا بنبرة تنم عن فرحة النصر «أنظر إلى هذا» . فقلت هذه ليست تجهيزات للحصار ، فهذا هو الكانتين ، فسألوني «ما هو الكانتين» ، فبينت لهم أنه نوع من محل البقالة التعاوني يوجد منه في كل المؤسسات الأمريكية في الخارج سواء كانت مدنية أو عسكرية . وأعتقد أنهم أصيبوا بشيء من خيبة الأمل لاضطرارهم أن يتخلوا عن فكرة حصار الأعوام الخمسة .

وكان من الواضح والجلي لي أن الطلبة تستبد بهم فكرة احتمال قيام الأمريكان بانقلاب مضاد آخر . إذ كانت تسيطر على عقولهم ذكريات عام ١٩٥٣ . فكلهم كانوا يعرفون عن كتاب «كيرميت روزفلت» ، «الإنقلاب المضاد» وكلهم قرأوا مقتطفات منه . وعلى الرغم من أن الكتاب سحب قبل نشره ، بسبب تدخل الإنجليز أساساً ، الذين كان يهمهم ألا يعرف الدور الذي لعبوه هم وشركات البترول البريطانية في الإعداد للانقلاب ، على الرغم من هذا تسربت بضع نسخ وصورت في هذا الكتاب (الذي يحمل عنواناً فرعياً له دلالته «الصراع من أجل السيطرة على إيران») يشرح روزفلت بالتفصيل ، وكان آنئذ من كبار موظفي وكالة المخابرات المركزية . كيف تم التخطيط وتنفيذ العملية التي تحمل الاسم السري «آجاكس» . وكما يقول روزفلت : «كانت مغامرة مشتركة تحالف فيها شاه إيران وونستون تشرشل وأنتوني إيدن ومندوبون بريطانيون آخرون ، والرئيس ايزنهاور وجون فوستر دالاس ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية . وكان الهدف من إقامة التحالف هو إسقاط الدكتور «محمد مصدق» رئيس وزراء إيران . ويصف روزفلت بالتفصيل الإجتماع الذي عقد في ٢٥ يونيو ١٩٥٣ في مكتب وزير الخارجية ، وحضره كبار الموظفين والدبلوماسيين والعسكريين حيث قدموا تقريراً موجزاً عن عملية «آجاكس» (التي كان البريطانيون قد أعدّوا مسودتها الأولى مسبقاً) وفيما بعد ، رفع دالاس ، وزير الخارجية ، الورقة المطبوعة التي تتضمن الخطة التي وضعت على مكتبه قائلاً : «هكذا إذن تخلصنا من هذا المجنون مصدق» . وقد تخلصوا منه فعلاً ، ولم يكن هناك طالب واحد داخل السفارة أو خارجها في ذلك اليوم غير مؤمن بأن ما قام به الأمريكيون في الماضي قد يحاولون القيام بمثله مرة أخرى . ولم يكن هناك طالب واحد لا يعرف الملحوظة

التي اقتبسها روزفلت في كتابه ، والتي أدلى بها الشاه له بعد إنجاز عملية «آجاكس» بنجاح وبعد إسقاط «مصدق» والقبض عليه : «أنا مدين بعرشي لله ولشعبي ولجيشي ـ ولك» ، كان الطلبة يعتقدون بأن من الأربعة الذين عبَّر الشاه عن عرفانه بالجميل لهم ، لم يكن هناك سوى واحد يدين له الشاه حقاً بكل شيء وهو الأخير ـ وكالة المخابرات المركزية وممثلها «كيرميت روزفلت» .

* * *

لم يكن قلق الطلبة بدون أساس ، إذ أنه لم يكن من الغريب قط أن يبحث الأمريكيون عن بعض الوسائل التي يمكن استخدامها لتقويض سلطة «الخميني» التي كان يبدو في هذه الأيام أنها آخذة في الرسوخ يوماً بعد يوم ، فكانوا يبذلون قصارى جهدهم في تدعيم «آية الله كاظم شريعة مداري» حتى يصبح مركز نفوذ منافس ، كما كانوا يعملون بين الأقليات التي كانت على اتصال بهم في الماضي ـ مثل الأكراد والأذربيجانيين والبالوش (سكان منطقة بالوشستان) والعرب في خوزستان . وقد لعبت كل هذه الأقليات دوراً أو آخر في الثورة ولذا كانوا ينتظرون الثمار ، وبدأت تساورهم المخاوف في أنهم إن لم ينتزعوا التنازلات من الحكومة المركزية في ذلك الوقت فإنهم قد لا يحصلون عليها إطلاقاً ، وكان الأمريكيون على استعداد تام للتلاعب بنفاذ صبرهم . وأصبح من المستحيل إقناع الطلبة أو «الخميني» أن رحلة الشاه إلى الولايات المتحدة لا تمثل بداية مرحلة جديدة في الهجوم الأمريكي المضاد الذي تشكل نشاطاتهم داخل إيران جزءاً منه .

وجدتُ الطلبة واعين تماماً بأن النضال الذي بدأوه سيكون طويلاً وعسيراً وكانوا موقنين باستحالة الإجابة لمطلبهم الخاص بإعادة الشاه وأمواله إلى إيران ، ولذا كان عليهم إعداد أنفسهم لعملية طويلة . فقام الفريق المقيم داخل السفارة بتقسيم العمل بين عدد من اللجان ، فتولت إحداها مسؤولية تزويد الرهائن وحراسهم بمؤن الطعام . وبالطبع كان من الممكن تزويد الأمريكيين بالطعام المناسب من «مؤن الحصار» التي أعدوها على أن يضاف إليها الفواكه والخضروات الطازجة التي تجلب من خارج السفارة . أما الطلبة أنفسهم فلم يكونوا متلهفين على تناول الطعام الأمريكي خوفاً من احتوائه على لحم الخنزير .

وتولت لجنة أخرى مسؤولية الإعلام ـ مهمتها إصدار البلاغات والبيانات اليومية التي تقدم التقارير الموجزة للصحفيين الأجانب الذين ينتظرون في الخارج ولجنة ثالثة لإدارة مجمع السفارة . بينما قامت اللجنة السياسية بالاتصال بالمجلس الثوري . وقام «المرابطون» بأداء المهام الموكلة إليهم بالتناوب حتى يتسنى لهم العودة للجامعة ليستمروا في دراستهم . ولذا كان من الممكن مشاهدة تيار مستمر يذهب ويجيء من الباب الخلفي بين الجامعة والسفارة . وتركزت القيادة في يد مجموعة تطلق على نفسها اسم «الهيئة التنفيذية للمرابطين في السفارة الأمريكية» .

كانت هذه جماعة فريدة ـ مجتمع مغلق يشبه الرهائن التي أمسك بها من بعض الوجوه ، فقد كانوا منعزلين وملتفين على ذواتهم وبطريقتهم الخاصة . كانوا جماعة واعية تمام الوعي بالسلطة التي تمارسها ، فخورة بأن أنظار العالم مركزة عليها . عاش هؤلاء الشبان والشابات حياة محفوفة بالمخاطر لعدة أعوام متخفين من الشرطة وعانى الكثير منهم على يد «السافاك» . والآن أصبح كل ما كانوا يقولونه ويفعلونه يحظى باهتمامات ميكروفونات التسجيل وأدوات تصوير التليفزيون الدولية ، المنتظرة خارج بوابات السفارة في تلهف شديد . لقد كان تغيراً مذهلاً ، وتكون لدي الانطباع أحياناً أنهم كانوا يتحدثون إلى أنفسهم أكثر من تحدثهم لأي شخص آخر ، كما لو كان من العسير عليهم تصديق حرية الكلام والفعل التي أحرزوها .

ويبدو أن كل عضو من أعضاء هذه الجماعة كان على استعداد دائم للدخول في مناقشات لا نهاية لها عن طبيعة المجتمع الإسلامي والحكومة الإسلامية . وكانوا لا يكنون الاحترام إلاَّ لشخص واحد «الخميني» كما كانوا على استعداد لتحدي الرئيس كارتر أو أي شخص آخر ، ولا يكترثون على الإطلاق بأي كلام عن القانون الدولي ، مؤكدين أن الثورة قد خلقت قانونها الخاص بها ، ولذا لا يمكنها بأن تعترف بأي سلطة أخرى غير نفسها . كان يخامرني الإحساس أنني وسط جماعة تتسم بالإخلاص الذي لا حد له ، ولكن تنقصها الخبرة بشكل محزن . وحينما سألتهم عن الهدف الحقيقي لما كانوا يقومون به في السفارة ، أخبروني أنهم يودون أن يرغموا الأمريكيين على كشف حقيقتهم : «نحن أول شعب على وجه

الأرض وضع الأمبرياليين في حجمهم الحقيقي» . واضطررت آسفاً أن أعبّر لهم عن اختلافي معهم في وجهة النظر ، فأقوالهم لم يكن لها أساس قوي . فنحن في مصر أثناء حرب السويس هزمنا أمبراطوريتين قديمتين . كما أنجز عرب آخرون ـ مثل الجزائريين نفس الشيء . وماذا عن الفيتناميين ـ ألم ينجحوا في أن يبيّنوا للعالم حدود القوة الأمريكية . ؟

* * *

وكان الاجتماع الأول بيني وبين الطلبة قد تم في صالة الاجتماعات الكبيرة في مبنى الملحق التجاري . جرت المناقشة فيه بخليط من اللغتين العربية والإنجليزية ، وقام بدور المترجم شاب منهم يعرف شيئاً من العربية تلقى تدريبه مع الفدائيين الفلسطينيين في لبنان . ولكنه بعد قليل أصابه التعب ، كما وجهت بعض الانتقادات لترجمته ، ولذا جاء طالب آخر من آخر صالة الاجتماعات اقترح أن تستخدم اللغة الإنجليزية على أن يقوم هو بدور المترجم . وتم ذلك بالفعل ، وسجلت المناقشة كلها على شريط حتى يتسنى لزملائهم الغائبين أن يستمعوا إليها .

حضر الاجتماع ما بين سبعين إلى ثمانين طالباً ، منهم عشر فتيات ، وكانت أعمار معظمهم ما بين التاسعة عشرة والخامسة والعشرين تماماً . وأطلق بعضهم لحاهم ، وكانوا يرتدون خليطاً غير متناسق من الثياب التي كانوا يرتدونها في منازلهم وأشياء أخرى أخذوها من السفارة مثل البنطلونات الجينز والسترات العسكرية. وتركت الفتيات انطباعاً أنهن أكثر صلابة حتى من الفتيان ـ وبدت بعضهن كذلك إلى درجة تكاد تكون عدوانية . وكن يرتدين ملابس تصورنها تعبيراً دقيقاً عن الإسلام بما في ذلك الشادور دون الحجاب* .

وبعد قليل انضم لنا بعض الطلبة الذين جاءوا مباشرة من الجامعة ، ولذا عند نهاية الاجتماع كان عددهم يربو على المائة .

---

* الانطباع العام الذي خلق في مخيلة الكثيرين في الخارج بأن ارتداء الشادور أمر شائع في إيران الثورية هو انطباع غير صحيح . وكمحاولة للتحقق من مدى صحة هذا الانطباع طلبت من زميل لي بعد عدة أيام من إقامتي في إيران أن يستفسر عن عدد العاملات الفتيات في وزارة الخارجية ويرتدين الشادور وكانت النتيجة فتاتين فقط من خمسين فتاة

كانت مناقشتنا ساخنة حية ، وكانت النقطة الرئيسية التي عادوا إليها دائماً هي أن الإسلام يمثل الإجابة الوحيدة الممكنة على تحدي الغرب ، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن أيّاً منهم يعتنق الشيوعية .

وعلى الرغم من عمق احترامهم لعبد الناصر ولمصدق بطبيعة الحال فقد كانوا يشعرون أن هذين الزعيمين أكدا على الفكرة القومية أكثر من تركيزهما على الإسلام ، وأن هذا هو ما أدى بهما إلى تقبل الحلول الوسط التي تحفّها المخاطر . وعبارة «حلول وسط» هي عبارة مليئة بأسوأ الإيحاءات بالنسبة للمرابطين . وأخبرتهم أنني من المؤمنين بالقومية العربية ، وأنني ثابت الإيمان بها . وبيّنت لهم أن العنصرين الأساسيين اللذين جعلا العرب أمة هما اللغة والحضارة ، ولذا إذا ما تحدثت عن التاريخ العربي والقومية العربية فإنني ـ إلى حد ما ـ أتحدث في ذات الوقت عن الإسلام . ولكنهم رفضوا تقبل وجهة النظر هذه .

كانت المناقشات أحياناً تصل إلى درجة عالية من السخونة ، الأمر الذي جعلني واعياً بالمصاعب التي أدت إلى استقالة «سنجابي» و «بني صدر» و «يزدي» من وزارة الخارجية ، والتي جعلت من العسير على «قطب زادة» الذي خلفهم في هذه الوزارة ، أن يعمل على الإطلاق . ووجد «يزدي» أنه من المستحيل التحدث مع الطلبة ، كما أخبرني فيما بعد . لقد كان في مقدورهم أن يحتفظوا بمثاليتهم ، وهو أمر غير متاح لوزير الخارجية على حد قوله . وهذه هي المعضلة التي واجهتها الثورة من البداية ـ الصراع بين العقيدة والطبيعة البشرية ، بين الدين والتاريخ ، وبين المطلق والنسبي .

كانت آخر الكلمات التي سمعتها من الطلبة هي «لقد محونا خمساً وعشرين عاماً من تاريخ إيران» كانوا يصرون على أنهم احتلوا السفارة لأن مبانيها كانت تشكل مقر قيادة الثورة المضادة . وفيها تم التخطيط لإلقاء القبض على «مصدق» واغتيال «حسين فاطمي» زعيما المرحلة الأولى للثورة سنة ١٩٥٣ . وهكذا وبعد ربع قرن ، محت قوى الثورة مأساة هزيمتها الأولى .

* * *

الفصل الثاني

الدبّ والأسد

قال المرابطون إنهم محوا خمساً وعشرين عاماً من تاريخ إيران ، لكن الإحساس بالمذلة والهوان ، الذي ولده فيهم التدخل الأجنبي ، الذي ما زال حياً في ذاكرتهم وذاكرة كل إيراني تقريباً ، يرجع إلى زمن بعيد يسبق الانقلاب المضاد الذي وقع عام ١٩٥٣ . فإيران ، وشأنها في هذا ، شأن معظم البلاد التي كانت تعرف باسم بلدان الشرق الأوسط ، قد تأثرت بشكل عميق برياح التغيير التي كانت تهب عليها من الغرب بعنف متزايد ، إزاء ذلك التقدم الذي حدث في القرن التاسع عشر .صحيح أن إيران لم تكن قط جزءاً من الأمبراطورية العثمانية ، لكن عندما تدهورت هذه الامبراطورية التي كانت بمثابة حاجز ضد التغلغل الغربي في المنطقة وكان حكامها الخلفاء حماة الشرعية الإسلامية ، وأصبحت رجل أوروبا المريض ـ استيقظ الإيرانيون لمواجهة تحديات القوى والأفكار الجديدة .

لقد رجع كثير من المسلمين الذين راقبوا تزايد تأثير الغرب الذي كان يبدو كما لو كان عملية حتمية ، إلى دينهم ليجدوا فيه السكينة والعون . كان المفروض أن الأمبراطورية العثمانية تستند إلى أساس ديني ، لكنها مع ذلك كانت آخذة في الانهيار . لماذا ؟ .. كانت الإجابة ، التي توصل إليها كثيرون ، هي أن حكام هذه الأمبراطورية قد تخلوا عن تراثهم الديني ، وأن السبيل الوحيد للخلاص هو العودة إلى الروح الأصيلة للإسلام . لذا تفجرت تلك الحركات الدينية المتزمتة في أطراف الأمبراطورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ـ «الوهابية» في الجزيرة العربية و «السنوسية» في ليبيا و «المهدية» في السودان . هذه الحركات التي اتسمت بنوع من القبلية أدى إلى انحسار نطاق تأثرها ـ لم تستطع أن تحقق بقاءها في النهاية إلا بارتباطها ببعض العائلات القوية . فليس مصادفة أن اثنتين

من هذه الحركات تحولتا إلى نظم ملكية وراثية .

ومن أعظم مفكري الإسلام الذين يجلهم قواد الثورة الإيرانية والذي يرتبط اسمه برد الفعل لتحدي الغرب ، رداً كان له أعمق الأثر وأبقاه ، هو جمال الدين الأفغاني .. فالأفغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) سافر كثيراً إلى بلاد مختلفة مثل الهند وروسيا وفرنسا وإنجلترا ، كما عاش فترات طويلة من حياته في القاهرة والقسطنطينية. وكان أينما حلّ «يرى أن العالم الإسلامي واقع تحت الضغط الغربي ، وبالذات إنجلترا . وكان يرى أنه لا ينبغي على الدول الإسلامية أن تخشى الهجوم العسكري الغربي المباشر (وإن كان ذلك بطبيعة الحال أدى إلى احتلال مصر) بقدر خشيتها من الأثر الهدام الخفي للفكر الغربي ، عن طريق الآثار المخربة للمادية والعقلانية والجماعات التبشيرية » . فهذه المؤثرات كلها هي التي أدت بالعالم الإسلامي إلى هذه الحالة من الضعف التي يعاني منها ، لكن إذا ما تفكر المسلمون في دينهم وفهموه حق الفهم ، فمن المحتمل أن يكون لديهم من القوة الكافية ـ لمقاومة الغرب ، مادياً وروحياً .

فالإسلام ، كما ذكرهم ، أكبر بكثير من مُجرّد كونه صلوات وشعائر ، بل ينبغي أن ينظم كافة أوجه المجتمع ، علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، وبسلطات الدولة ، وعلاقة الدولة بالدول الأخرى . لو أدرك الناس ذلك فقط ، لكان الإسلام هو الدين الكامل الشامل . لكن الأمر يحتاج إلى نهضة وإصلاح ديني .

كانت إيران هي إحدى البلدان التي رأى فيها الأفغاني أثر الغرب الهدام بشكل واضح للغاية . (ورغم أن الافغاني ولد في إيران إلا أنه كان يفضِّل أن يعده الآخرون سنيا من أفغانستان ، كما يدل على ذلك اسمه) . فقد اكتشف أن هناك قوتين أوروبيتين عظيمتين ، بريطانيا وروسيا ، تتصارعان على «جثة إيران» على حد قوله . ولم يكن هذا القول مبالغاً فيه . فقد كانت هذه هي فترة حكم «نصر الدين شاه» الذي لا يضاهيه حاكم آخر ، في سوء تصريف الشؤون المالية سوى الخديوي إسماعيل في مصر ، لكن ، حين نجد أن «فرديناند ديلسبس» أشهر صيادي الامتيازات الذين ازدحمت بهم مصر في عهد إسماعيل ، قد حقق على الأقل مشروع قناة السويس ، فإننا نجد أن البارون «جوليس دي روتر » ، أسوأ

الأوروبيين سمعة ، والذي كان يأمل في نهب إيران ، لم ينجز شيئاً على الإطلاق .
وكتب «كيرزون» عن الامتيازات التي منحت لروتر من «نصر الدين شاه» عام ١٨٧٢ ، يقول : «عندما نشرت الامتيازات ، وجد أنها تحتوي على أضخم تنازل عن جميع مصادر الثروة الصناعية لصالح أيد أجنبية ، لم يكن يراودها في أحلامها مثل هذه الغنيمة التي لم تتحقق لهم من قبل في التاريخ » . فلقد غطَّت هذه الامتيازات كل المشروعات الموجودة والممكن إقامتها في جميع المجالات ـ السكك الحديدية ، والترام ، والمناجم ، والترع ، والطرق ، والأشغال العامة ، والمطاحن ، والمصانع ، ومكاتب البرق ، والبنوك ، والالتزام بالجمارك لمدة خمس وعشرين عاماً ....

كل ذلك نظير مبلغ سنوي قدره ١٠,٠٠٠ «عشرة آلاف جنيه استرليني» .
وأدت إذاعة هذه التنازلات إلى سخط عارم ، هدد عرش الشاه . وقد أجبر السخط الشعبي ، بالإضافة إلى الاحتجاجات الروسية الرسمية ، الشاه إلى التراجع ، وألغيت الامتيازات .

* * *

بعد مرور ثمانية عشر عاماً تم الفصل الثاني من مسرحية الامتيازات ...

في ٨ مارس ١٨٩٠ ، منحت حكومة الشاه امتيازاً إلى رجل إنجليزي يدعى ج . هـ . ف . تالبوت . يقضي بإنتاج وبيع وتصدير كل الدخان الإيراني لمدة خمسين عاماً ، مقابل مبلغ ١٥,٠٠٠ «خمسة عشر ألف جنيه استرليني» تدفع سنوياً إلى الشاه ، علاوة على ربع صافي الربح الذي قد يؤول إلى الشركة التي ستستفيد بالامتياز . في هذه المرة تم التوصل إلى طريقة فعالة لمقاومة التدخل الأجنبي الذي سبب كثيراً من المرارة والامتعاض . فقد أصدر الحاج «ميرزا شيرازي» زعيم المجتهدين ، فتوى ، أعلن فيها أن استعمال المؤمن للدخان بأي شكل من الأشكال يعتبر رذيلة .

وقد أطاع الناس هذه الفتوى بإجماع أدهش المراقبين الأجانب . وانتشرت الإضرابات ، وتم سحب الامتياز . وقبل وقوع ذلك قدم الوزير الإنجليزي في طهران تقريراً إلى وزارة الخارجية يقول فيه :

«نحن نشهد الآن ثورة» .

لقد لحقت الهزيمة بالحكومة وبأصحاب الامتيازات من الأجانب بسبب ذلك الاتحاد الذي قام بين رجال الدين والإصلاحيين ، يساعدهم ذلك الشعور المتزايد بالوعي القومي . وبعد ستة عشر عاماً كان نفس هذا الخليط من القوى هو المسؤول عن نشوب ثورة حقيقية . وفيما بين هذين التاريخين استمر السخط في الازدياد . فطرد الأفغاني من إيران عام ١٨٩١ ، واغتال أحد أتباعه نصر الدين شاه في أول مايو ١٨٩٦ ، بعد حكم دام تسعة وأربعين عاماً . وخلفه مظفر الدين شاه ، وهو شخصية تتميز بالضعف أكثر منها بالسوء .

كانت العشر سنوات الأخيرة من القرن الماضي والأولى من هذا القرن ، حقبة مليئة بالغليان السياسي لكل تلك البلدان في الشرق الأوسط ، التي كانت خاضعة لتدخل القوى الأوروبية أو لوجود قوات عسكرية أوروبية بها بالفعل . فقد أدى عجز الحكومات الأوتوقراطية عن التصدي لتدخل القوى الأوروبية ، إلى إعطاء الدوافع للمطالبة بالإصلاح السياسي . فشهدت هذه الفترة تكوين الحزب الوطني في مصر بزعامة مصطفى كامل ، وجمعية الاتحاد والترقي في تركيا ، أما في إيران فقد أرغمت سلسلة من الإضرابات والاحتجاجات الشاه عام ١٩٠٥ ، على أن يوافق على الدستور ، ويدعو لعقد أول مجلس (برلمان) . كان هذا هو الدستور الذي أصرت الحركة الشعبية التي قامت عام ١٩٧٨ - ١٩٧٩ م ، على أن يقوم الشاه بتطبيقه ، وناضل من أجله أساساً رجال مثل السيد «محمد الطباطبائي» والسيد «عبد الله البهبهاني» الذين أصبحوا من أبطال الثورة الإيرانية الأخيرة .

لم يتمتع الإصلاحيون بانتصارهم لفترة طويلة . فقد كان الموقف في إيران معقداً ، لأن اثنين من القوى العظمى هناك ، بريطانيا وروسيا ، أخذتا تواجهان بعضهما بنفس القوة وبنفس الإصرار . وهذا كان يعني أنه لم يكن من العسير بالنسبة للشاه أن يثير حفيظة كل منهما ضد الأخرى حتى تتحقق مصالحه .

وبعد أكثر من عام قام «مظفر الدين شاه» بتأييد من روسيا بالتصدي للحركة الثورية ، فألغى الدستور وهاجم المجلس وفرقه .

لكن الشيء الذي أحزن الإيرانيين كثيراً في الأمر كله هو سلوك بريطانيا . فقد كان من المتوقع من القياصرة ، الذين كانوا يقاومون فكرة الدستور في بلادهم ، أن يعارضوا إقامته في بلد تقع على حدودهم .

أما البريطانيون فقد حظيت الحركة الدستورية بتشجيعهم ، كما اعتبر الإيرانيون الممارسات البرلمانية البريطانية نموذجاً يحتذى ، وكان من نتيجة ذلك ، أن أكثر من عشرة آلاف من الإصلاحيين الذين كانوا يطالبون بالدستور اعتصموا بالسفارة البريطانية ، وبقوا فيها لعدة أسابيع ، إلى أن يغير الشاه من سياسته . لكن بعد عام واحد فقط ، وفي أغسطس عام ١٩٠٧ ، وبعد مفاوضات سرية طويلة ، أعلنت الحكومتان البريطانية والروسية ، أنهما وقعتا على معاهدة تم بمقتضاها تقسيم إيران إلى ثلاثة أجزاء ، منطقة نفوذ روسية كبيرة في الشمال ، ومنطقة نفوذ بريطانية صغيرة في الجنوب ، ومنطقة محايدة تشمل طهران في الوسط .

* * *

كانت الحاجة إلى مثل هذه المعاهدة ، قد أملتها الأوضاع في أوروبا وبخاصة قوة المانيا المتزايدة تحت شعار «الاتجاه نحو الشرق» التي أصابت كلا من لندن وبطرسبرج بالذعر . ولكن كان هناك عنصر جديد كذلك بالإضافة إلى العناصر السابقة . سمع عنه كثيراً فيما بعد ، وهو البترول . إذ بدأ الاهتمام المتزايد بهذه المادة في الدول الغربية الصناعية ، وكانت إيران إحدى البلدان التي كان يعتقد باحتمال وجود البترول فيها . وكانت كل الشواهد الجيولوجية تشير إلى شمال البلاد ، منطقة النفوذ الروسي ، على أنها المنطقة التي يمكن أن يؤدي التنقيب فيها إلى نتائج إيجابية ، لكن الذي حدث هو أن البترول استخرج لأول مرة عام ١٩٠٨ عند «مسجدي سليمان» في المنطقة الإنجليزية بالجنوب . ولعدة أعوام ظلت آبار الجنوب الغربي هي أكثر الآبار إنتاجية في منطقة الشرق الأوسط .

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى ، كانت إيران ، رغم حيادها الإسمي ، مسرحاً للحرب ، فقد احتلت الجيوش الإنجليزية والروسية بعض أجزاء منها ، لكي توقف تقدم الالمان والأتراك . وإذا عدنا إلى عام ١٨٧٩ م . نجد أن الروس كانوا قد طلبوا من الشاه ، القيام بتشكيل ما يسمى ببوليس الأقاليم في الشمال ،

ويطلق عليه فرقة الفوزاق ، تضم ضباطاً روسيين ، وضباط صف إيرانيين ، ومجندين ، وقد قامت هذه الفرقة عام ١٩٠٧ ، بقذف المجلس بالقنابل وأعادت الشاه إلى العاصمة .

لكن عندما اندلعت الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، انسحب الضباط الروسيون تاركين الفرقة في أيدي ضباط الصف الإيرانيين .

وكان من أكثر أفراد هذه الفرقة وعياً وذكاءً رقيب يدعى «رضا ميزرا» ، وقد عين وكيلاً لقائد فرقة الفوزاق هذه ، عن طريق تدخل قائد القوات البريطانية في إيران ، الجنرال «أدموند ايرونسايد» ، لأن البريطانيين كانوا مهتمين بملء الفراغ الذي تركه الانسحاب الروسي .

وبعد الحرب مباشرة كانت إيران في حالة من الفوضى الشاملة . لكن نمو الوعي القومي الذي أثارته الحرب ترك أثره العميق عليها ، شأنها في ذلك شأن بقية دول الشرق الأوسط . فالعرب في كل مكان كانوا يطالبون بالاستقلال ، حيث صدقوا ما وعدهم به الحلفاء (نقط ويلسون الأربع عشرة) ، فمصر كانت في حالة غليان ، وفي تركيا كان مصطفى كمال يحاول الإصلاح بتحويل نواة الامبراطورية التي تحطمت إلى دولة صغيرة لكن متجانسة . لم يكن من الغريب والظروف كذلك أن يقوم «رضا ميزرا خان» (كما كان يدعى عندما أصبح ضابطاً) وهو رجل ذو عزيمة وإصرار حديدي ، بالاستيلاء أولاً على فرقته ، ثم على طهران ، وأخيراً على البلد كله .

قام «رضا خان» بخلع آخر شاه من أسرة القاجار ، وحظي بالتشجيع بأن يقتفي أثر جاره مصطفى كمال ، الذي خلع آخر سلطان تركي ، ويعلن إيران جمهورية . لكن العصر كان عصر ملكيات آنذاك في الشرق الأوسط .

فلم يكن هناك الملك فؤاد في مصر وحده فحسب ، وعيناه على كرسي الخلافة الشاغر ، بل كانت هناك عروش جديدة خلقت ليشغلها أبناء الشريف حسين ، الذي عين نفسه ملكاً على الحجاز ــ وعرش لفيصل في بغداد ، وآخر لعبد الله في الأردن .

وفي الجزيرة العربية أصبح «عبد العزيز بن سعود» ملكاً أيضاً وأخذ يعزز

من قوته . لذلك حين أعرب «آيات الله» عن رأيهم في أن النظام الجمهوري غريب على تقاليد إيران لم يكن «رضا خان» في حاجة إلى كثير من الإقناع فأعلن نفسه شاهاً على إيران سنة ١٩٢٥ ، وقام بوضع التاج على رأسه بيديه في الثاني من ابريل من العام التالي .

* * *

كان الشاه رضا من أصل ريفي وأمياً تماماً ، وإن كان قد علّم نفسه القراءة والكتابة بعد أن أصبح ضابطاً . ولكي يعزز عرشه كان عليه أن يضفي على نفسه نوعاً من الشرعية تحل محل شرعية المولد . وقد أنجز ذلك بعدة سبل . فعاد إلى الوراء في تاريخ إيران ، إلى ما قبل أسرة الكاجار الذين خلفهم ، واتخذ لقب «بهلوي» للأسرة التي كان يأمل في تأسيسها ، و«بهلوي» هو اسم اللغة التي كانت سائدة في إيران قبل الإسلام . وغير اسم البلد كذلك من «فارس» إلى اسم أكثر اتصالاً بالماضي هو «إيران» .

ولسوء الحظ كان جشعه أسوأ من جشع حكام أسرة الكاجار الذين سبقوه وهكذا استولى على ثرواتهم ، وعندما تنازل عن العرش عام ١٩٤١ قدّرت ممتلكاته بألفي قرية ، كما كان ربع مليون من رعاياه يعملون مباشرة في الارض التي كان يمتلكها .

في أواخر الثلاثينات ، طرأت للشاه فكرة أخرى . فإن ابنه الأكبر «محمد» وصل إلى سن الزواج . فهل يوجد شيء أفضل من مصاهرة أعرق ملكية في الشرق الأوسط ، أسرة محمد علي في مصر ، كوسيلة يثبت بها أن أسرته مقبولة ضمن مجموعة العائلات المالكة في المنطقة .

كان هذا يعني تغيير الدستور الذي ينص على أن تكون زوجة الشاه إيرانية المولد ، لكنه لم يكن من الرجال الذين يعوقهم مانع شكلي كهذا .

وهكذا جرت مفاتحة القاهرة بشكل مبدئي ، ووجدوا في شخص علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي أذناً صاغية . كان علي ماهر رجل الملك أيام حكم فؤاد . وكان مصراً على أن يكون ذا فائدة لابنه الملك فاروق الذي خلفه على عرش البلاد عام ١٩٣٧ . وقد خلف مذكرة في قصر عابدين كتبها بنفسه ، تبين أنه

كان يفكر بطريقة تستطيع الملكة فيكتوريا أو بسمارك أن يفهماها . لكنها كانت غير مناسبة في الشرق الأوسط في الثلاثينات . إذ يتساءل علي ماهر في مذكراته محبذاً المصاهرة الإيرانية : «ان للملك فاروق أربع أخوات ، وأليس من الممكن أن يصبحن وسيلة لنشر نفوذ مصر في المنطقة كلها ، وبقليل من الحظ يمكن أن توجد لهن عروش مختلفة ، على أن تكون طهران هي البداية» .

ورحب فاروق بالفكرة . وفي أوائل عام ١٩٣٩ ، وصل ولي العهد «محمد رضا» إلى القاهرة . وقد اختيرت أكبر الأميرات الأربع ، الأميرة الرقيقة الجميلة فوزية ، لتصبح امبراطورة إيران المستقبلة . وحينما تفحَّصوا هذا الشاب بكثير من حب الاستطلاع في البلاط المصري المحنك ، بدا لهم خجولاً إلى درجة محرجة ، مفتقداً للثقة بالنفس .

ولو عرفوا المزيد عن أسلوب تربيته ، لما تعجبوا ولاستطاعوا أن يكونوا أكثر تفهماً .

كان عمر الأمير ست سنوات عندما بدأ أبوه مسيرته إلى طهران في المرحلة الأولى لصعوده إلى السلطة . لذا فقد ولد الأمير وقضى سنواته الأولى الهامة من حياته في المساكن البسيطة للعسكريين الإيرانيين المتزوجين . ثم تغير المشهد بطريقة درامية . وفجأة وجد أنه يجب عليه أن يتعود على حياة القصور تحيطه وجوه غير مألوفة ، ويؤدي واجبات جديدة . في تلك الآونة بدأ تعليمه أيضاً ، وعلى الرغم من أنه كان طفلاً ذكياً شغوفاً بالعلم ، فقد تحول تعليمه إلى كابوس بالنسبة له .

وخلال إحدى محادثاتي معه ، ضرب لي الشاه مثالين عن حياته عندما كان ولياً لعهد الشاه رضا . أخبرني كيف كان الشاه يصرّ على الحضور بصفة دورية ليرى مدى تقدم تعليم ابنه الأكبر . فكان المدرسون والطالب يعدون بشكل بالغ الدقة «لأيام التفتيش هذه» كما كانوا يطلقون عليها . فكانوا يراجعون الأسئلة التي قد يسأل فيها الشاه ، والأجوبة التي على الأمير أن يدونها ، وكانوا يقومون بتجربة كاملة لذلك مرة تلو الأخرى ، إلى أن يتأكدوا من أن ولي العهد يجيب بطريقة تشرف الجميع . لكن عندما كان يدخل الشاه بخطى واسعة وبعينيه المتوهجتين وشواربه المنتصبة ، مرتدياً زيه العسكري الكامل ، كان المدرسون يصابون بالارتعاش

وينطقون كلاماً غير مترابط ، وكان ولي العهد الصبي يصاب بالذعر وتمحى من ذاكرته كل المحفوظات ، وكان الشاه يصيح ملقياً بإهانات لا تستعمل إلا في الثكنات العسكرية على كل من حوله ، ويصف ابنه بأنه أبله ، أما ما يسمى بالمدرسين فهم جهلة ، وكانت المسألة تستغرق وقتاً طويلاً ليستردّوا قوتهم ، بعد ذلك يبدأ الخوف من «يوم التفتيش» التالي يلوح مرة أخرى .

والمثال الثاني الذي أخبرني به الشاه عن طفولته ، كان عندما قرر والده أن كل التعليم النظري الذي يحصله ، ما هو إلا مضيعة للوقت ، وأن التدريب الوحيد الذي يحتاجه حاكم إيران القادم هو كيف يصبح جندياً . وصدرت الأوامر بأن يستبعد سريره لكي ينام على مرتبة جنود خشنة ، ولم يعد السرير إلا بعد تدخّل والدته ، التي كانت تدعى «تاج الملك» وتنحدر من أسرة أفرادها من ملاك الأراضي ، وتزوجت من رضا خان بعد أن أصبح ضابطاً ، وكان لها بعض النفوذ عليه ، وإن كانت قد استاءت كثيراً حينما تزوج عليها مرتين بعد ذلك ، لكنها كانت هي التي صاحبته في منفاه بأفريقيا ، كما كانت معه حينما أدركه الموت .

كانت لولي العهد ، شقيقة توأم ، الأميرة أشرف ، والتي كان مقدراً لها أن تلعب دوراً هاماً في السياسة أثناء حكم أخيها . فهي امرأة ذات شخصية قوية وفي ذات مرة في قصرها سنة ١٩٥١ وفي حديث طويل على غداء معها ومع زوجها قالت لي إن والدها الشاه كان معجباً بشخصيتها الجادة وصلابتها ، وكان يعتقد أنها تشبه شخصيته إلى حد كبير ، وإنها سمعته بنفسها كما قالت يردد محتجاً على المقادير ، «بأن الطبيعة لا بد وأن تكون قد خلطت الأمور في رحم زوجته ، إذ كان يجب أن تكون أشرف هي الولد ، ومحمد رضا هو البنت» ، لم يكن الشاه الأب ماهراً في تغطية شعوره ، إذ أنه بإفصاحه بشكل واضح عن عدم رضاه عن ابنه ــ بل يكاد يكون احتقاره ــ لم يسهم كثيراً بشيء في زيادة ثقة الأخير بنفسه .

* * *

صدمت الأميرة فوزية صدمة بالغة عندما قابلت خطيبها لأول مرة ــ فلقد أطلعوها على صور بدا فيها ذو شخصية . لكنه في الواقع بدا سقيماً وتعيساً . وفهم

فاروق حقيقة مشاعر أخته ، وتبنى موقفاً متعالياً تجاه الشاهبور (لقبه الرسمي كولي عهد) .

وبادله ولي العهد نفس الشعور واكتشف في شخصية فاروق ما وصفه هو بنفسه فيما بعد بأنه «ميول إجرامية» ، ومن ذلك ، أعطى فاروق التعليمات لعلي ماهر بأن يقنع أخته ، وأن يوضح لها أهمية نشر نفوذ مصر في الشرق الأوسط ، ومدى أهمية أن يكون حاكم إيران المقبل نصف مصري ، ووافقت فوزية العاقلة ، على إتمام الزواج من أجل مصالح الدولة ، لكن ، وكما قالت فيما بعد «كانت تشعر بأنها تلعب دوراً فرض عليها في رواية تاريخية وهو دور لم تفهمه على الإطلاق» ، أما رد فعل الملكة الأم ، نازلي ، فقد كان مباشراً ، إذ قالت ما معناه وبطريقة عملية ، فليتم الزواج ، لكن «عليكم من فضلكم إحضار أحد كي يعلم هذا الشاب قواعد الإتيكيت ، لأنه لا يعرف آداب المائدة» ..

تم الزواج في الخامس عشر من مارس عام ١٩٣٨ ، ولدهشة الجميع لم يكن زواجاً تعساً لكنه لم يكن بالأمر السهل أبداً بالنسبة للأميرة فوزية .

فلقد وجدت بلاط طهران ضيق الأفق بالنسبة للقاهرة . واتهمتها حماتها «تاج الملك» دونما سبب ، أنها تجد التعامل مع الأرستقراطية الفارسية القديمة ، الأمراء والأميرات من الكاجار ، وأناس مثل قوام السلطنة ، أمراً يسيراً على عكس تعاملها مع أصدقاء الشاه رضا العسكريين وزوجاتهم .

وكانت فوزية خائفة من لقائها الأول من حماها الطاغية العجوز ، خاصة ما قاله زوجها عنه ، لكنها صمدت في وجهه .

نشبت الحرب العالمية الثانية بعد ذلك مباشرة . وتغير كل شيء . فقد رأى ملوك الشرق الأوسط الصراع بين الالمان والحلفاء بطرق مختلفة . فالهاشميون في العراق والأردن والملك ابن سعود راهنوا على انتصار الحلفاء ، أما فاروق والشاه رضا ، فقد توقَّعا وتمنَّيا ، انتصار الالمان .

إن الشاه الذي كان يحكم حكماً ديكتاتورياً في بلده كان متعاطفاً بطبيعة الحال مع الديكتاتوريات الأخرى . أما فاروق الذي يمكن وصف أحكامه السياسية بالسطحية فقد ورث بعض الاتصالات مع فاشيست إيطاليا من أبيه الملك فؤاد .

ولقد صدم هذان الحاكمان ، كما صدم حكام آخرون ، بسقوط فرنسا وظنا أن هذا سيؤدي إلى نصر سريع لدول المحور . كان الشاه على اتصال مستمر بالالمان ، أما فاروق الذي كان مجال حركته محدوداً بسبب الإحتلال البريطاني ، فقد أبقى على اتصاله بالالمان من خلال حماه يوسف ذو الفقار الذي عيَّنه سفيراً لمصر في إيران ، كما أنه في وقت من الأوقات بعث برسول خاص وثيق الصلات مع الالمان دون الرجوع إلى وزارة الخارجية .

بعد سقوط فرنسا أصبح تعاون الشاه مع الالمان أكثر وضوحاً ، وازداد عدد رجال الأعمال الالمان في طهران لدرجة ملفتة للنظر . لذا لم تكن مفاجأة له أن تقوم القوات البريطانية والروسية ، بغزو بلده وإرغامه على التنازل عن العرش لإبنه ، وتم ذلك حينما قام الالمان بغزو روسيا في يونيو عام ١٩٤١ .

وسنة ١٩٥١ وصف لي الشاه محمد رضا آخر لقاء له مع والده .... قال لي : «إنها كانت المرة الأولى في حياته التي رأى فيها والده يتصرف كأب وليس كملك أو قائد عام للقوات المسلحة . كانت الدموع في عيني الرجل العجوز عندما تقابلا ، ولم يستطع الشاب أن ينطق بكلمة واحدة من شدة تأثره . وكانت ملاحظة الشاه عبارة عن سؤال : «هل تستطيع الاحتفاظ بالعرش ؟» .... ولم يقل الإبن شيئاً ، واستمر الأب في كلامه : «أنا لم أفشل في الاحتفاظ بالعرش لكن قوى أقوى مني أحكمت الحصار حولي . لقد احتفظت لك بالعرش ، فهل تستطيع أن تحتفظ به ؟» .. ولم يملك الإبن إلا أن يومئ برأسه موافقاً . واستمر الشاه رضا قائلاً : «أنصت ، يا بني ، لا تقاوم . فنحن والعالم أجمع لا نواجه عاصفة أقوى منا جميعاً . فاحن رأسك لها إلى أن تمر» . ثم أضاف : «أنجب ابناً» ، ثم كرر ذلك ، «أنجب ابناً» . وخرج بعد ذلك من الحجرة إلى المنفى في جنوب أفريقيا ، حيث مات هناك .

وهناك تكملة غريبة لكل ذلك ، أثرت على العلاقات بين إيران ومصر . فقد أخذ الشاه رضا معه ، حينما ذهب إلى المنفى ، سيفاً جميلاً قديماً مرصَّعاً بالأحجار القديمة كان قد انتقاه من خزانة الأمبراطورية الإيرانية النفيسة ليلبسه يوم حفل التتويج . وعندما مات وضعت أرملته هذا السيف بجانبه في التابوت ، وطلبت

نقل الجثمان ليدفن في إيران . لكن السلطات الانجليزية والروسية ، التي كانت تحتل البلاد ، رفضت طلبها . وأرسل التابوت إلى مصر ووضع مؤقتاً في مسجد الرفاعي (*) .

وبعد انتهاء الحرب أصبح من الممكن دفنه في إيران . وأرسل التابوت إلى طهران . لكن عندما فتح التابوت لم يجدوا السيف . كانت تاج الملوك متأكدة من وجود السيف داخل التابوت . لأنها وضعته بنفسها ، وخمنت أن التفسير الوحيد لاختفائه هو أن يكون فاروق قد سمع عن ذلك السيف ، وأمر بفتح التابوت ، ورأى السيف فأعجبه كثيراً واستولى عليه (وكان تخمينها صحيحاً) .

وقد قاست فوزية من جراء ذلك . إذ حوَّلت حماتها حياتها إلى تعاسة ، إذ كانت توبخها بعبارات ساخرة مثل : «أهذه هي الطريقة التي يتصرف بها الملوك في بلدكم ؟ قد لا تكون أسرة بهلوي عريقة مثل أسرة محمد علي ، لكننا على الأقل لسنا لصوصاً ؟» وهكذا . وبالطبع كان هناك كثير من الثرثرة حول هذا الحادث . وبدأت موجة من النقد انضمت إليها الأميرة أشرف العنيدة ، ومنها أن الملكة لم تكن إيرانية كما نصَّ الدستور ، ومما زاد الأمر سوءاً أن الملكة لم تنجب إبناً ، وإنما أنجبت إبنة فحسب . وعندما عادت إلى القاهرة لقضاء العطلة عام ١٩٤٨ ، قرر فاروق أن أسرة محمد علي قد تحملت ما يكفي من محدثي النعمة في إيران . وصدر الأمر لفوزية بعدم العودة ورتبت مراسم الطلاق في نوفمبر بالرغم من أن فوزية قد أَلِفَت الحياه في طهران كما ألفت الحياة مع زوجها .

---

* ولقد كان مقدراً لثاني حاكم من أسرة بهلوي «الشاه محمد رضا بهلوي» أن يدفن في هذا المسجد بعد وفاته في القاهرة عام ١٩٨٠ . فحينما وصل الشاه إلى ملجأه السياسي الأخير في ربيع سنة ١٩٨٠ ، كان مضيفه الرئيس السادات يريد أن يبني له فيلا مناسبة مزودة بأسباب الترف على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بجوار منزله الصيفي بالقرب من الاسكندرية . وكان العمل قد بدأ فعلاً في هذه الفيلا ، حينما اضطر الشاه للذهاب إلى المستشفى ليعالج مرة أخرى من السرطان . وكان هناك ثمة خوف من أنه قد لا يعيش بعد العملية ، ولذا توقف العمل في فيلا البحر الأبيض ، وبدأ العمل في بناء مقبرة له في مسجد الرفاعي . وكان العمل يستأنف في الفيلا إذا كانت التقارير الطبية متفائلة ، وفي المقبرة إذا كانت متشائمة .

الفصل الثالث

النسر يحوم

إن جذور الأزمة السياسية التي هزت العالم بعنف عام ١٩٧٩ ، ترجع إلى العقد الذي يقع ما بين عاميّ ١٩٤١ و ١٩٥١ . إذ كانت إيران ، كما بيّنا من قبل ولمدة تزيد على القرن ، تقاوم بين المصالح التوسعية المتنافسة لدولتين عملاقتين ، روسيا وبريطانيا . لقد كانت إيران بلداً فقيراً ليس بها ما يغري بالتدخل الأجنبي سوى موقعها الجغرافي ، لكن الموقف الآن أصبح متغيِّراً فقد انضمت إلى صراع القوى القديمة ، دولة جديدة هي الولايات المتحدة حيث أصبح البترول ، أكثر سلع العالم المرغوب فيها ، عنصراً من عناصر الصراع .

وعندما قامت القوات البريطانية والروسية ، بالتنسيق معاً ، بدخول إيران في أغسطس عام ١٩٤١ ، أصبحت إيران بمثابة جسر أساسي لنقل السلاح والمؤن إلى الجبهة الروسية . كما أصبحت واحدة من المصادر الرئيسية للبترول لجهود الحلفاء في الحرب . لكن بعد معركة بيرل هاربور ، دخل الأمريكيون الحرب ، مما جعل الموقف يبدأ في التحول تحولاً كاملاً .

كان الروس والإنجليز هما العدوين العملاقين المألوفين لدى الشعب الإيراني . أما بالنسبة للولايات المتحدة فقد كانت قادماً جديداً على الساحة . وبالتالي فإنه من المؤكد إمكانية احتمال دعوة العالم الجديد لإصلاح أخطاء العالم القديم ، كان الإيرانيون يعرفون القليل عن الأمريكيين ، ورغم قلة المعلومات التي كانت لديهم إلا أنها كانت مشجعة ، فقد تذكروا الاقتصادي الأمريكي «مورجان شوستر» الذي قام بجهد جبار لإعادة تنظيم ميزانية إيران عام ١٩١١ ، إلى أن ترك وظيفته نتيجة للضغط الروسي . وفي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا وروسيا في وضع حرج للغاية في العلمين وستالينجراد ، بدت أمريكا بمظهر البلد الذي لا تنضب

موارده ، وصاحب النوايا الطيبة التي لا حدود لها ، وهو الأثر الأهم .

كانت الصورة المألوفة للأمريكيين التي تنشرها هوليود ، هي صورة الرجال الأخيار الذين يرتدون القبعات البيضاء ويمتطون صهوات الجياد الرائعة ليخلصوا الأسرى التعساء (بما في ذلك شعب إيران) من الأشرار . وإذا كان لدى الأمريكيين عيب ، فربما يكمن في أن هؤلاء الأبطال من رعاة البقر ، كانوا لا يعرفون سوى القليل عن العالم الخارجي بما في ذلك إيران ، بحيث بدوا سذجاً للغاية من الناحية السياسية .

اتضح ذلك خلال تلك الأشهر المحمومة ، بعد معركة بيرل هاربور ، حيث تدفق الكثير والكثير من الأمريكيين عسكريين ومدنيين على منطقة الشرق الأوسط ، وعقدت عدة لقاءات بينهم وبين الأمراء ورجال السياسة الإيرانيين ، كانوا يخرجون بعدها في حالة دهشة بالغة ، إذ كان يبدو لهم أن الأمريكيين لا يعرفون شيئاً البتة ، ويجب أن يتعلموا كل شيء ..

وحقيقة ، رغم أنه من المحتمل أن يكون الأمريكيون كأفراد بمثل هذا الجهل أو البراءة ، إلا أن الحكومة الأمريكية ورجال الأعمال كانوا يعرفون تماماً ما يريدونه في الشرق الأوسط ، وعاقدين العزم على الحصول عليه .

والشيئان اللذان كانوا يريدونهما هما أولاً التسهيلات الجوية ، من أجل الجهود الحربية في بداية الأمر ، والاعتبارات الإستراتيجية والتجارية عند انتهاء الحرب . وثانياً امتيازات البترول . وكان الكثير يتوقف على هاتين الرغبتين .

فعند النظر للاعتبارين السابقين النقل الجوي والبترول نجد أن إيران تعد بلداً رئيسياً ، ولذلك نرى أن الولايات المتحدة أخذت تعزز موقفها هناك بشكل ملحوظ في الأربع سنوات التي انقضت قبل انتهاء الحرب . وإذا كانت السمتان الأساسيتان لعالم ما بعد الحرب ، هما المواجهة بين الولايات المتحدة وروسيا في الحرب الباردة ، وإحلال النفوذ الأمريكي محل النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط ، فإننا يمكننا القول بأن هاتين السمتين قد استقرتا تماماً وبوضوح مع نهاية عام ١٩٤١ ، ومن المفيد أن نراقب التطورات التي تم بها إنجاز ذلك .

* * *

كان الأمريكيون يتمتعون بمزايا عديدة ، عندما بدأوا جهودهم الرامية لتدعيم وضعهم الجديد في إيران أثناء الحرب . وقد ذكرنا من قبل الترحاب الذي قابلهم به الشعب الإيراني . هذه الميزة الكبيرة التي لم يكن في استطاعة كل من روسيا ، وانجلترا أن تأمل في التمتع بها أبداً بسبب الخلفية التاريخية ، ورغم أن الأمريكيين كانوا قد عقدوا العزم على القيام بدورهم كحلفاء مخلصين لإلحاق الهزيمة بدول المحور ، إلا أنهم كانوا حريصين أيضاً وبطبيعة الحال على الاحتفاظ بنقاء سمعتهم . وحتى أواخر ديسمبر عام ١٩٤٥ ، وبعد انتهاء الحرب ، أعلن «دين أتشيسون» وزير خارجية أمريكا : «أن الولايات المتحدة في وضع أفضل من بريطانيا العظمى أو الاتحاد السوفيتي ، لتتولى زمام التوجيه فيما يختص بإيران ، لأننا لا نخشى من الشكوك في أن تكون لنا مصالح ذاتية في إيران ، مثلما هو الحال بالنسبة للقوتين الأخريين .

وقد كان لسمعة أمريكا الطيبة ، كقوة تقدم المساعدات دون مقابل ، الأثر الكبير في تحقيق ميزة أخرى ذات قيمة لا حدود لها ، ألا وهي ثقة الشاه . فعندما دخلت القوات البريطانية والروسية إيران كان من الممكن أن تستند سياستهما على أسس قديمة راسخة . أن البريطانيون كانوا يمارسون نفوذهم على الساسة وقبائل جنوب غرب إيران ، من خلال شركة البترول الانجلو إيرانية . (إذ كانت الشركة تدفع جزءاً من عائد البترول مباشرة إلى زعماء قبيلة البختيار ، المهيمنة على المنطقة التي تقع فيها آبار البترول ، بدلاً من دفعه للحكومة) . أما الروس فقد كان لهم رجالهم أيضاً ، رغم أن الشاه رضا اضطرَّ حزب تودة (الجماهير) الشيوعي أن يتحول إلى حزب سري ، إلاَّ أنه لم يكن ينقص هذا الحزب سوى قليل من التشجيع الواعي حتى يصبح قوة سياسية يعتد بها .

وهنا أدرك الأمريكيون أن المنافسة مع الروس والبريطانيين في عمليات محاولة شراء النفوذ السياسي ، ما هي إلا إضاعة للوقت . وتيقنوا أن الشاه في حاجة إليهم قدر حاجتهم له .

عندما ظهر الأمريكيون على مسرح الأحداث كان «محمد رضا» شاباً صغيراً يعاني من انخفاض روحه المعنوية لأقصى حد . فقد صدم صدمة عميقة

بما حدث لأبيه ، وأحس بالرهبة من المسؤوليات التي ألقيت على عاتقه . وانتابته الحيرة بسبب كل المشاكل والمتناقضات التي تحيط به ، كما أنه كان واعياً بأنه لا يتميز بصفات فريدة يواجه بها التحدي . وبطبيعة الحال كان لا يثق في الكثير من الموظفين البريطانيين والروس الذين كان بينه وبينهم اتصال آنذاك . وكان يعلم أن الجيل القديم من الساسة لم يكن لديهم وقت يقضونه معه ، ولذلك فقد بادلهم كرهاً بكره . فالسيد الطباطبائي ، الذي ساعد «رضا خان» في تنظيم انقلاب فبراير ١٩٢١ ، ثم أصبح رئيساً للوزراء لعدة شهور ، كان لا يزال يعتبر نفسه من المؤمنين بالنظام الجمهوري ، أما أحمد قوام السلطنة ـ وكما كان الشاه يعلم جيداً ـ فقد كان ينحدر من أسرة ارستقراطية عريقة تكن الاحتقار له ولأبيه لأنهم محدثي نعمة من وجهة نظر العائلة ، أما الدكتور «محمد مصدق» فكان من ملاك الأراضي الأثرياء وأمه من أسرة الكاجار .

أما الوحيد من بين أولئك القادة السياسيين الذي أحس الشاه نحوه بالتعاطف فهو «حسين علاء» وهو رجل من أصل متواضع ، دبلوماسي أكثر منه سياسي وقد أصبح وزيراً للبلاط ، وإلى حد ما معلماً للملك الصغير .

* * *

بدأ الأمريكيون بداية سيئة في محاولتهم لكسب ود الشاه . فلكي يشيروا إلى أهمية دور إيران في المستقبل ، اختيرت طهران لانعقاد المؤتمر الأول للثلاثة الكبار ، الذي خطط فيه لمسار الحرب ، ووضعت فيه كذلك أسس التسوية لفترة ما بعد الحرب . وخلال فترة انعقاد المؤتمر في نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٤٣ ، قام ستالين بدعوة الرئيس الأمريكي روزفلت للإقامة في السفارة الروسية .

وقام الشاه بزيارة مجاملة للقائدين العالميين ، قام بعدها ستالين برد الزيارة وسار دون حرس أو مرافقين إلى قصر الشاه وقضى ثلاث ساعات في محادثات مع مضيفه ، في حين لم يقدم روزفلت على مثل هذه البادرة . وبدلاً من ذلك ، أرسل روزفلت برقية إلى الشاه بعد عودته إلى واشنطن يقول فيها ، أنه بسبب قصر زيارته بالضرورة ، فإنه لا يدعي معرفة إيران جيداً ، لكن الشيء الذي استرعى انتباهه أكثر هو «نقص الأشجار على سفوح الجبال» ، وتساءل روزفلت عما

إذا كان ممكناً اقتراح برنامج تجريبي لغرس الأشجار «أو حتى الشجيرات» ؟ ورد الشاه بأن توصية الرئيس الأمريكي الحكيمة تركت انطباعاً إيجابياً لديه ، ووعد ببرنامج لغرس الغابات ، لكن بينه وبين نفسه شعر بالإهانة لما تصوره أنه معاملة تنطوي على الازدراء .

وأثيرت قضية تزويد روسيا لإيران بالسلاح (الدبابات والطائرات) لأول مرة أثناء هذه الزيارة . وعرض ستالين تقديم السلاح . وقبل الشاه العرض لكنه عندما علم بعدد الخبراء الفنيين الذين سيرسلون مع السلاح ، وجد نفسه أميل إلى رفض العرض ، وعلى أي الأحوال فإن سلوك بعض الأمريكيين الآخرين ، كان أكثر من تعويض عن غلطة روزفلت . ففي فبراير ١٩٤٤ ، طار الشاه وكبار وزرائه على متن طائرة من طراز ليبراتور من طهران إلى القاعدة الجوية الأمريكية في عبدان ، وفي رحلة العودة استقلوا طائرة من طراز د ٨٣٠ وأتيحت للشاه فرصة قيادتها . وفي الوقت ذاته تمتع أعضاء الأسرة المالكة بشيء من الاهتمام عـلى الطريقة الأمريكية أيضاً ، فقد أقام النجم الغنائي المشهور وقتها «نلسون أدي» حفلاً خاصاً لهم في طهران حضرته الأميرتان أشرف وشمسي .

اكتشف الشاه أن الأمريكيين يجيدون الإصغاء مثلما يجيدون الكلام . وأحس أن في مقدوره أن يفضي بمكنون نفسه إلى السفير الأمريكي ليلانـد . ب . موريس ، بحرية أكثر من أي شخص آخر . في ديسمبر ١٩٤٤ ، عبَّر الشاه لموريس عن رغبته في أن تصبح إيران بلداً ديموقراطياً ، وكذلك عن مخاوفه من (صعوبة) تحقيق ذلك بسبب نقص التعليم . وللوصول إلى ذلك كان الشاه يرغب وبشدة في إقامة نظام تعليمي مجاني ، دون استبعاد نظام التعليم الخاص للقادرين عليه «ولا يمكن تغطية نفقات هذا التعليم المجاني إلا باستغلال مصادر إيران الزراعية والمعدنية» ، ولهذا فإنه ينتظر «المعاونة الصادقة من الولايات المتحدة» .

تركت هذه الآراء أثراً إيجابياً لدى موريس الذي لخَّص رأيه في الشاه ، في برقية بعث بها إلى وزارة الخارجية بعد سبعة شهور . «ان نضوجه العقلي الآن يتعدى أعوامه الخمس والعشرين . فحزنه عميق على فقر شعبه ومرضه ، وعلى مستواهم المعيشي المنخفض والظروف السيئة التي يعملون فيها . كما أنه يدرك إدراكاً كاملاً

أنه كي يتم بعث الوطنية الإيرانية لإيقاف المد الشيوعي وجاذبيته فإنه لا بد من اتخاذ خطوات سريعة وحاسمة لوضع حد للبؤس في بلده . فالإسلام ، على حد قول الشاه ، لا يمكن أن يكون حاجزاً أكيداً ضد الشيوعية ، إذا ما ترك الجوع والمرض والشقاء دون رادع » . وعبَّر مرة أخرى عن أمله الجاد في الولايات المتحدة «أن تمد له كل مساعدة ممكنة لحل المشاكل الخطيرة التي يواجهها» ..

* * *

كانت هناك ميزة يتمتع بها الأمريكيون ، وهي وجود العديد من المستشارين في كل فرع من فروع الحكومة الإيرانية تقريباً . فبعد أن أصبحوا طرفاً في الحرب بدأوا يدخلون إيران وكل ناحية من نواحيها بطريقة «الانتشار السريع» ، فبعد ستة شهور من ظهورهم على مسرح الأحداث ، كان يوجد ٢٨ ألف جندي أمريكي في إيران ، أغلبهم كان يقوم بتوصيل المواد الحربية للجبهة الروسية ، على حين كان آخرون يشكِّلون شبكة واسعة من الخدمات الإضافية مثل : الإنارة ، تعبيد الطرق ، الخدمات الطبية ، وغيرها ، مع عدم إغفال المخابرات بطبيعة الحال . وعيّن الدكتور الأمريكي «ميلزبو» مديراً للشؤون المالية الإيرانية وأعطي سلطات تنفيذية على الحياة الاقتصادية بأسرها تقريباً ، كما شغل الجنرال «كليرنس س. ريدلي» منصب رئيس البعثة العسكرية في الجيش الإيراني . وعيّن الكولونيل «نورمان شوارزكوف» مستشاراً للحكومة وأصبح بعد ذلك مديراً لبوليس الأقاليم . وعيّن الجنرال «دونالد كونولي» رئيساً لقيادة الخليج الفارسي المستقلة ومقر قيادتها في عبدان ، أما الجنرال «باتريك بورلي» فقد عيِّن ممثلاً شخصياً للرئيس روزفلت في إيران . لم يقتصر الأمر على هؤلاء المسؤولين ذوي السلطات الواسعة ، بل كانوا يترأسون مجموعات كبيرة من مواطنيهم الموظفين . كان هناك قبول للأمريكيين من الحكومة والشعب الإيراني لأنهم رجال ودودون ومن أمة صديقة ، لكن ، وكما حدث في أجزاء أخرى من العالم فإن الإيرانيين وجدوا أن الصداقة الأمريكية تزيد عن حدها بعض الشيء أحياناً .

* * *

وفي تاريخ مبكر حاولت واشنطن أن تضع أسس سياسة أمريكية خاصة

نحو إيران في المستقبل . ففي ٣١ يوليو ١٩٤٤ أرسل «ادوارد ستيتينوس» القائم بأعمال وزير الخارجية ، بمذكرة هامة للقائم بالأعمال في طهران . قال في البرقية «إن وزارة الخارجية تدرك الأهمية المتزايدة لعلاقات الولايات المتحدة مع إيران وهي على استعداد أن تلعب دوراً أكثر نشاطاً وإيجابية في الشؤون الإيرانية بما يتخطى ما كان ممكناً أو لازماً في فترة ما قبل الحرب» . وذكر «ستيتينوس» ثلاثة أسباب تبيِّن ضرورة أن يكون الأمر كذلك :

(أولاً : طالما أن إيران قد طلبت العون من أمريكا فينبغي أن نمدها بذلك امتباراً لمصالحنا الذاتية ، كذلك فإن الرئيس ووزارة الخارجية يعتبران إيران بمثابة حقل تجارب لميثاق الأطلسي ولمدى حسن نوايا هيئة الأمم) .

(ثانياً : حينما تصبح إيران قوية «وقد تخلصت من الضعف والنزاعات الداخلية ، التي تشجع على التدخل الأجنبي فإنها ستساهم في خلق عالم أكثر استقراراً) .

(اما السبب الثالث فيكمن في حماية وتعزيز المصالح القومية الأمريكية . «وهذا يشمل إمكانية المشاركة بشكل أكبر في تجارة إيران وتنمية ثرواتها والإفادة من موقع إيران الاستراتيجي الذي يسمح بإنشاء قواعد جوية مدنية ، والأهمية المتزايدة لحقول البترول الإيرانية والعربية» .)

كان من الطبيعي عند هذه المرحلة من الحرب أن تعطى الأولوية للمثل التي كانت تحارب من أجلها أمريكا . وكان من الطبيعي كذلك أن نجد «ستيتينوس» شأنه في ذلك كشأن الموظفين المسؤولين في الحكومة حريصاً على تأكيد رغبة أمريكا في التعاون الكامل مع حلفائهم في الحرب : «إن الانطباع الذي يجب أن نتجنبه مهما كلفنا الأمر هو أننا ننوي الوقوف إلى جانب إيران لنكون بمثابة حاجز سياسي لكبح جماح حلفائنا الإنجليز والروس من التطلع إلى إيران . بل ينبغي أن نؤكد للعالم أهمية أن تكون إيران دولة قوية مستقلة ، وعضواً فعّالاً في المجتمع الدولي ، ليس ذلك فقط ، بل يجب أن نحصل على عون وتأييد حلفائنا للوصول إلى هذا الغرض» .

لكن مع استمرار الحرب بدأت التوترات تظهر داخل التحالف الغربي بما

في ذلك إيران حيث أثبت الأمريكيون مقدرتهم الهائلة في التفوق على شركائهم ، فقد برزت ثلاث مشاكل رئيسية : كيف ومتى تنسحب القوات الأجنبية من إيران ؟ ـ وكيف يمكن الاحتفاظ بوحدة الأراضي الإيرانية ـ وبأية شروط ستمنح امتيازات البترول ؟

وفي ٢١ ديسمبر ١٩٤٤ ، ألمح «ستيتينوس» ولم يكن قد مضى خمسة أشهر على رسالته السابقة إلى إيران « من أهم المناطق في العالم التي قد تظهر فيها خلافات بين الحلفاء » .

* * *

وفي أول ديسمبر ١٩٤٣ وفي نهاية مؤتمر طهران ، صدر إعلان إيران الذي وقّعه روزفلت وتشرشل وستالين ، ونظم عملية انسحاب القوات الأجنبية ، وأشار إلى تضحيات إيران في الحرب ، وتعهد الحلفاء بتقديم العون لإيران أثناء الحرب وبعدها ، كما وعد بانسحاب كل القوات الأجنبية من إيران «خلال ستة أشهر بعد توقف القتال مع ألمانيا وشركائها » .

وقد تصورت الحكومة الإيرانية عن حق إلى حد ما أن هذا الوعد يعني ستة أشهر بعد يوم ٨ مايو ١٩٤٥ ، يوم انتصار الحلفاء . فبادرت يوم ٢١ مايو بإرسال مذكرات إلى الحكومات الثلاث المعنية تطلب فيها بدء جلاء القوات في ذلك التاريخ .. وعلى أي الأحوال ، فإن الإيرانيين بينهم وبين أنفسهم قد بات واضحاً لديهم وبما لا يدع مجالاً للشك ، أنه رغم تلهفهم على رحيل القوات البريطانية والروسية فإنهم غير متعجلين على رحيل القوات الأمريكية بنفس الدرجة . يؤكد ذلك ما قاله السفير الايراني في واشنطن لـ «لوي هندرسون» المسؤول عن الشؤون الإيرانية بوزارة الخارجية (الذي أصبح سفيراً بعد ذلك في طهران) في ١ يونيه من أن المذكرة الإيرانية عن انسحاب القوات «لم تكن بطبيعة الحال موجهة للقوات الأمريكية ، وكان من الضروري ذكر هذه القوات حتى لا تتضايق الحكومتان السوفيتية والانجليزية» .

وبهذا الوضع المتميز تمتعت كل من بعثتيّ «ريدلي» العسكرية و«شكوارزكوف» للأمن الداخلي بنفوذ كبير . وكان قد تم الاتفاق عام ١٩٤٤ في واشنطن على أن تعطى

الجيش الإيراني الأولوية في الحصول على حصة من الأسلحة ، وتستمر البعثة العسكرية إلى ما بعد الحرب ، لأن «حماية وتعزيز المصالح الأمريكية في إيران ستتطلب تقوية قوات الأمن الإيرانية ، حتى يمكن للنظام أن يستتب في هذه المنطقة ، إذ أنه من المحتمل أن يتعرض السلام العالمي للمخاطر بعد انسحاب قوات الحلفاء» . وبحلول أكتوبر ١٩٤٥ ، لم يتغير إدراك الأمريكيين لأهمية وجود البعثات الدائم ، لكن تغيّراً طرأ على الأسباب التي تساق لتفسير وجودها وجعلها أكثر وضوحاً . وفي خطاب إلى وزير الحربية كتبه وزير الخارجية الجديد «جيمس بيرنز» يقول :

«ان استمرار بعثاتنا العسكرية في إيران ، بناء على طلب الحكومة الإيرانية ، يعد مصلحة قومية للولايات المتحدة . وان تدعيم قوات الأمن الداخلية في إيران بواسطة البعثات الأمريكية ، يسهم في استقرارها وإعادتها كعضو في المجتمع الدولي . ونحن نأمل أنه بتدعيم قدرات الحكومة الإيرانية على الاحتفاظ بالنظام والأمن ، سوف نزيل أي ذريعة للتدخل البريطاني أو السوفيتي في الشؤون الداخلية لإيران . وبالتالي ، نزيل أي تهديد لتضامن الحلفاء والأمن الدولي ، وعلاوة على ذلك فإن استقرار إيران سيسهم في إرساء أساس سليم لتنمية مصالح أمريكا التجارية والبترولية والجوية في الشرق الأوسط» ..

* * *

في نهاية الأمر كانت كل القوات البريطانية والروسية قد انسحبت بحلول مايو ١٩٤٦ ولم يتم ذلك إلا بعد وقوع أزمة دولية وضعت أجهزة الأمم المتحدة موضع اختبار وكادت تؤدي إلى انهيار الدولة الإيرانية . فمنذ البداية كان الروس قد وضعوا المنطقة الشمالية التي احتلتها قواتهم تحت قبضة مشددة . فلم يكن لديهم النية بأن يشاركهم حلفاؤهم السلطة هناك ، ولا حتى بالنسبة لإشراك ممثلين عن الدولة الإيرانية . يؤكد ذلك الإجراءات المالية والاقتصادية التي كان يتخذها دكتور ميلزيو وبما لاقته من إحباط في الشمال ، وكذلك التدخل في شؤون بوليس الأقاليم التابع لشكوارزكوف . وذات مرة ، على سبيل المثال ، وكان ذلك في نهاية

عام ١٩٤٤ ، أرسلت بعض قوات البوليس إلى مصنع نسيج في مدينة «شاهي» وتقع على بعد مائة ميل شمال شرقي العاصمة ، ليقوموا بحراسة المصنع حيث أضرب عماله . فتحركت القوات السوفيتية ونزعت أسلحتهم . وشكا الإيرانيون للأمريكيين من «الموقف المتدهور» في الشمال : «لأن الروس لا يسمحون للحكومة الإيرانية بإرسال قوات إلى الجزء الشمالي من إيران ، وهم في الواقع يتصرفون بطريقة سرعان ما قد تجعل من المستحيل على الإيرانيين إدارة هذا الجزء» .

إن شكوك الإيرانيين في سلوك الروس على هذا النحو كانت في محلها ، فلم يكن عدم ثقتهم وابتعادهم التقليدي عن الأجانب هو المبرر . بل كانوا في الواقع يهدفون إلى إعادة السيطرة على مناطق إيران الشمالية . فقد أقام الروس حكومات من صنعهم تخدم مصالحهم في أذربيجان وكردستان على غرار نمط الهيمنة الذي كانوا يفرضونه في أوروبا الشرقية . وعلى أي الأحوال ، فلقد أضير الروس في مصالحهم من حقيقة أن إيران لم تكن داخلة في نظام تقسيم مناطق النفوذ ، كما أعلن ذلك صراحة في مؤتمري «يالتا» و «برلين» وكذلك أثار شكوكهم استعداد الولايات المتحدة وبريطانيا للوقوف بحزم في إيران ، والأهمّ من ذلك ، أنه كان لدى الحكومتين الأمريكية والبريطانية من الإمكانيات العملية ما يسمح لهما بمساندة مثل هذا الموقف . خاصة وأنهما كانتا تتمتعان بتأييد كامل من الشاه ورئيس وزرائه الماكر «قوام السلطنة» كما كانت أزمة أذربيجان واحدة من الأسباب الرئيسية التي أدَّت إلى تدهور العلاقات بين روسيا والغرب ، وأيضاً كان لها نتائج سيئة للغاية بالنسبة لإيران ذاتها .

كان الروس يعتبرون سلوكهم في إيران أمراً له مبرراته الواضحة ، فقد كان لديهم مبرر قوي يفوق ما لدى الأمريكان لتوطيد أواصر الصداقة مع بلد يشتركون معه في حدود تصل إلى ألف ميل . كما أن أفكارهم عن مكونات هذه الصداقة كانت واضحة للغاية . فعندما كانت الحكومة في طهران لا تروق لهم ، كانوا يتهمونها بالاتجاهات الفاشية ، وأنها لا تمثل أكثر من خمسة في المئة من السكان . وفي نوفمبر ١٩٤٤ ، دبّروا لطرد أحد رؤساء الوزارات من منصبه ، واتهموا خلفه بالسماح «للعناصر الرجعية» بالتواجد في مواقع قيادية وباضطهاد «العناصر

الليبرالية» وكقوة محتلة ، تحكم السوفيت في إذاعات الشمال ومارسوا الرقابة عليها ، وفي العاصمة ، الأمر الذي مكّنهم من مهاجمة هؤلاء الإيرانيين الذين يعتبرونهم من أعدائهم ومن مساندة أولئك الذين كانوا يعتبرونهم أصدقاءهم ، وكان الشاه وحكومته والأمريكيون ، يراقبون كل ذلك بقلق متزايد . وفي أعقاب الحرب سرعان ما استنتج السفير الأمريكي في طهران «ليلاند موريس» أن نوايا الروس تنذر بالخطر ، فكتب في برقية إلى وزارة الخارجية يقول فيها :

«إن غاية الأهداف الروسية قد تتضمن الوصول إلى الخليج الفارسي واختراق مناطق أخرى في الشرق الأوسط . ولكن الأهداف الحالية قد لا تتعدى الحفاظ على منطقة عازلة في إيران لحمايتها ضد الهجوم من الجنوب ... وأعتقد أن هدفهم الأساسي الآن هو إقامة ما يسمى بالحكومة «الشعبية في طهران على غرار نظام جروزا برومانيا * . هذه الحكومة التي يمكن أن يترأسها رجال خاضعين للنفوذ السوفيتي يذعنون لمطالب الروس ويعادون الدول الأجنبية الأخرى» وأشار السفير إلى أن السيطرة السوفيتية على الحكومة الإيرانية «ستلحق الضرر حتماً بالمصالح الأمريكية للأسباب الأربعة التالية :

١ ـ لأن هذا يعني إبعاد خطوط الطيران الأمريكية من إيران .

٢ ـ سيجعل التجارة الإيرانية تتجه نحو روسيا مما يشكِّل خطورة على مصالحنا التجارية .

٣ ـ سيقضي على احتمال حصول أمريكا على امتيازات البترول .

٤ ـ أهم من هذا كله ، سيؤدي ذلك إلى امتداد النفوذ السوفيتي إلى شواطئ الخليج الفارسي ، مما يشكِّل تهديداً كامناً لممتلكاتنا الوافرة من البترول في السعودية والبحرين والكويت» .

* * *

* أعلنت رومانيا جمهورية بعد احتلال القوات الروسية لها وفي الانتخابات التي أجريت في مارس سنة ١٩٤٨ فازت جبهة الشعب الديمقراطية بكل المقاعد تقريباً . ونصب بترو جروزا رئيساً للوزراء . وكان الدستور والنظام الذي أقامه على غرار ما تم في روسيا الستالينية إلى حد كبير .

هكذا كانت معركة البترول قد نشبت . فعندما دخلت أمريكا الحرب كانت لها مصالحها البترولية في عدة بلدان من الشرق الأوسط ، ففي الفترة الأخيرة كانت أمريكا قد ظهرت في مجال البترول في الشرق الأوسط لأول مرة كشريك ثانوي مع انجلترا عام ١٩٢٨ في شركة البترول التركية التي أصبحت بعد ذلك (شركة البترول العراقية) وتمتلك مجموعة من الشركات الأمريكية حوالى ربع رأسمالها . وفي عام ١٩٣٠ حصلت شركة كندية تابعة لشركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا على امتياز للتنقيب عن البترول في البحرين ، وقامت شركة كالتكس بتسويق منتجاتها ، وفي عام ١٩٣٣ حصلت شركة الخليج على نصف أسهم شركة جديدة مناصفة مع شركة بترول بريطانية في شركة جديدة منحت امتياز التنقيب عن البترول في الكويت . أما البلد الذي فاق فيما بعد كل الأماكن الأخرى بمراحل من وجهة نظر استثمارات البترول الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط فهي المملكة العربية السعودية ، التي دخلت مجال البترول في وقت متأخر إلى حد ما . ولم تحصل شركة كاليفورنيا أريبيان ستاندارد أويل كمباني «التي سميت فيما بعد «شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو)» بعد منافسة مع شركة البترول العراقية ، على امتياز منطقة «الحسا» لمدة ستين عاماً ، إلا في مايو ١٩٣٣ . ولم يبدأ أول بئر بترول إنتاجه إلا في سبتمبر ١٩٣٩ الشهر الذي بدأت فيه الحرب في أوروبا ، وبسبب إدراك الولايات المتحدة لحاجتها إلى بترول الشرق الأوسط لاستخدامه في الحرب ضد اليابان ، زاد معدل الإنتاج إلى ١,٠٥٠,٠٠٠ طن .

في نفس العام كان إنتاج إيران من البترول ١٣,٢٧٠,٠٠٠ طن . أربعة أضعاف إنتاج العراق التي تعد أقرب منافس في المنطقة . لذا لم يكن من الغريب أن تجتذب إيران أكثر من غيرها أنظار رجال البترول الذين بدأوا يفكرون في خطط إنتاج البترول لبعد الحرب . وفي مارس ١٩٤٤ ، وصل ممثل شركة «ستاندارد فاكوم» إلى طهران ، وقدم اقتراحاته بخصوص الحصول على امتياز البترول إلى رئيس الوزراء «علي سهيلي» ، فوجده متعاطفاً معه ، وأخبره رئيس الوزراء بأنه سيمنح الأمريكيين كل الفرص القانونية الممكنة كي يواجهوا منافسيهم ، لأنّه كان حريصاً على منح تسهيلات بترولية لأمريكا في إيران . وقال «إنه يعارض

بشكل خاص منح البريطانيين امتيازات بترولية على امتداد الشاطئ الجنوبي لإيران . ومن الواضح أن رئيس الوزراء كان يعبّر عن وجهة نظر الشاه ، حينما أفصح عن رغبته في رؤية المشاركة الأمريكية .

في الشهر التالي انضم إلى ممثل شركة ستاندارد فاكـوم في طهران ممثلان عن شركة «سنكلر أويل» للقيام بمهمة مشابهة لمهمته . كما دخل البريطانيون الساحة أيضاً لزيادة الامتيازات التي حصلوا عليها . وفي ١٦ مايو ١٩٤٤ كتب القائم بالأعمال الأمريكي في تقريره «إن كل الشركات تقوم بالترتيبات التمهيدية للحصول على تأييد الجماعات المتنافسة في البرلمان لاقتراحاتها . كذلك فإن الأمر يناقش في الصحف» وفي يوليو ظهر على مسرح الأحداث ، عالما الجيولوجيا المتخصصان في البترول «أ . أ . كيرتس وهربرت هوفر» اللذان تعاقدت معهما الحكومة الإيرانية للعمل كمستشارين .

* * *

لكن شهر سبتمبر شهد زائراً أكثر أهمية ، فقد وصل إلى طهران نائب قـومسير الشؤون الخارجية «سيرجي كافتارادز» وبصحبته عدد من الفنيين المتخصصين في البترول ، وكان الهدف الظاهري لزيارتهم هو إجراء بعض الاختبارات على حقول البترول الواقعة في المنطقة التي يحتلها الروس ، لكن الهدف الحقيقي ، كان الاقتراح الذي تقدموا به إلى الشاه بإعطائهم حقوق التنقيب في مساحة ٢٠٠ ألف ميل في المنطقة الشمالية مع ضمان عقد امتياز للاستغلال فيما بعد . وبعد أسبوع من تقديم هذا الاقتراح ، عقدت جلسة خاصة للمجلس ، الذي كان يتقاضى معظم أعضائـه رواتب منتظمـة من شركـة البترول «الأنجلو إيرانية» ، وتقرر عدم إجراء أية مناقشات أخرى بخصوص منح امتيازات جديدة إلا بعد انتهاء الحرب .

كان من الواضح أن الذين استفادوا من قرار المجلس هم البريطانيون خاصة وأن وضعهم في الجنوب كان قوياً ومستقراً وكانوا يحققون أرباحاً عالية ، لذا فقد حامت حولهم الشكوك بطبيعة الحال في أن يكون لهم يد في الموضوع ولكن بغض النظر عن مدى صدق أو كذب هذه الشكوك ، لم يملك الأمريكيون أو

الروس أن يفعلوا شيئاً إزاء ذلك . وإن كان الروس قد أفصحوا صراحة عن غضبهم وعدم رضاهم . فقام الجنود السوفيت باستعراض في شوارع العاصمة الرئيسية حاملين مدافعهم الرشاشة ، كما قام أنصار حزب تودة بمظاهرات عديدة ، تطالب باستقالة رئيس الوزراء . وقام السوفيت بأعمال تهديدية أخرى مما دعى السفير الأمريكي أن يعلق في أول نوفمبر قائلاً «إن السلطات الروسية هنا لا تزال مستمرة وبشكل آخذ في التزايد ، في استخدام وسائل يشتم منها رائحة الهتلرية» .

ورغم استقالة رئيس الوزراء «سعد» وحلول «بايات» محله إلا أن المجلس لم يظهر أي بادرة خوف من تهديدات السوفيت . بل على العكس فقد تقدم الدكتور محمد مصدق في ٢ ديسمبر بقانون جديد . ووفق عليه بسرعة . بعد مناقشة استمرت ساعتين . وبمقتضى هذا القانون أصبح من غير الشرعي لأي وزير أن يدخل في مفاوضات بشأن البترول دون موافقة المجلس . وكانت عقوبة خرق هذا القانون هي الحبس ثمانية أعوام والحرمان الدائم من الوظائف العامة . وقد قال موريس في تقريره عن هذا القانون : «إن نجاح هذا العمل البارع كان يتوقف دون شك على هيبة الدكتور مصدق الشخصية وحسب» .

ومرة أخرى ، بدأت الشكوك تساور البعض في أن المكر البريطاني كان وراء هذه الخطوة التي تخدم مصالح بريطانيا بدرجة كبيرة ، وإن كانت المعرفة المتعمقة لشخصية الدكتور مصدق ستؤدي إلى تفسير مختلف . لكن الشيء المؤكد ان عنف رد الفعل الروسي لفقدانهم الامتيازات التي كانوا يرغبون فيها ، والقرائن الأخرى التي كانت تدل على أن السوفيت يعززون موقفهم في الشمال هي التي ساهمت في جعل إيران تعتمد أكثر من ذي قبل على الولايات المتحدة ، القوة الجديدة التي تزودها بالحماية . في ٢٤ نوفمبر عام ١٩٤٥ قال حسين علاء أول سفير أرسله الشاه إلى واشنطن وهو يقدم أوراق اعتماده للرئيس ترومان «أتوسل إليك بكل إخلاص يا سيادة الرئيس أن تستمر في مساندة حقوق إيران في هذا الموقف الحرج ، فاستقلالها ووحدة أراضيها يداس عليها بالأقدام .. إن بلدك وحده هو القادر على إنقاذنا ...» .

كان انتهاء الحرب له أثره في إبراز وتحديد ملامح العناصر التي كانت قد

بدأت في السيطرة على الساحة الإيرانية . فقد ازدادت العداوة بين أمريكا والاتحاد السوفيتي ، واتضح المخطط الروسي ضد إيران . وتضاءل دور بريطانيا ، وزادت محاولات الشاه الجاهدة لتأكيد نفسه .

* * *

وقد وضعت أزمة أذربيجان كلاً من الشاه والولايات المتحدة موضع الاختبار . فقد كان عليهما أن يتحسسا طريقهما في ظروف لم يخبراها من قبل .

ومع أن الحكومة الأمريكية ، كما بيَّنا من قبل ، كانت قد قررت في وقت مبكر أن مصالحها الحيوية تتطلب أن تبقى إيران خارج الفلك السوفيتي ، إلا أن ذلك الجزء من العالم ، كان شيئاً جديداً بالنسبة للرأي العام الأمريكي ، ولمعظم المسؤولين الرسميين . وقد كتب أحد السفراء في طهران يقول : «ان العالم كله لا يدرك تماماً ما إذا كانت أذربيجان هذه ، نهراً أم جبلاً ، أو مجرد دين جديد» . وحتى في المواقع القيادية كان هناك قصور خطير في الفهم . في مارس ١٩٤٩ وصلت تقارير تثير كثيراً من المخاوف عن تحركات للقوات السوفيتية في تبريز ، فتم إعداد خريطة في وزارة الخارجية ، عليها أسهم تشير إلى هجوم سوفيتي في اربعة اتجاهات ضد الجبهتين التركية والعراقية وضد طهران وآبار البترول في الجنوب .

وقد عرض هذا البيان الذي أنتجه حماس أحد صغار الموظفين على وزارة الخارجية «جيمس أف . بيرنز» فعلّق قائلاً : «من الواضح الآن ، أن الاتحاد السوفيتي يضيف الغزو العسكري إلى التخريب السياسي في إيران» ثم أضاف بصوت مرتفع وهو يضرب راحته بقبضة يده الأخرى : «الآن سنضربهم بكل ما لدينا من قوة» . وقد زعم الرئيس ترومان في وقت لاحق أن الإنذار الأمريكي النهائي ، هو الذي أدى إلى انسحاب القوات الروسية من إيران ، هذا الزعم الذي يصعب إثباته .

وبالفعل كان الموقف خطيراً دون الحاجة إلى هذه الزخارف . فطبقاً للإعلان الثلاثي الصادر في ديسمبر ١٩٤٣ ، كان من المفروض أن تكون كل قوات الحلفاء قد انسحبت من إيران في ٢ مارس ١٩٤٦ ، لكن لم يبد الروس أي بادرة تدل على أنهم ينوون الرحيل . بل على العكس كانت الشواهد تدل على أنهم كانوا

يعملون على تثبيت أقدامهم . الشيء الوحيد الذي كان يبعث على الشك ، هو عما إذا كان إعلان حكومة «بيشناري» الموالية لهم في تبريز ، هو الخطوة التمهيدية لضم كل أذربيجان ، أم أن المقصود هو استخدامها كأداة ضغط للحصول على امتيازات البترول . في مارس ١٩٤٦ سافر إلى موسكو «قوام السلطنة» الذي كان قد عيِّن رئيساً للوزراء في يناير من نفس العام ، في محاولة للحصول على الموافقة على الانسحاب ، وهناك قابل ستالين الذي أثار قضية امتيازات البترول بعد أن قدم عدة تبريرات غير مقنعة . كان من الواضح أن احتفاظ بريطانيا بامتيازها في الجنوب وفشل الروس في الحصول على أي امتياز في الشمال قد سبب لهم ضيقاً شديداً ، واقترح مولوتوف مشروع شركة روسية إيرانية تبلغ حصة الروس فيها ٥١ ٪ لتطوير إنتاج البترول في الشمال ، وناشدهم قوام السلطنة التخلي عن هذا المطلب لاستحالة الموافقة عليه بعد قرار المجلس بهذا الخصوص .

وإزاء تطور حدة الأزمة في أذربيجان ، وجدت القوى الثلاث المشتركة في احتلال ايران ، نفسها في حالة خصام . وبدأ الشاه يخشى من محاولة أحدهم القيام بانقلاب في طهران . ولذا فكَّر مرة في إمكانية احتمال الانسحاب من العاصمة إلى مكان أكثر أمناً . وعلى أية حال فقد كان الشاه يريد أن يتأكد من المساندة الأمريكية له ، خاصة وأنه كان لا يثق في رئيس وزرائه ، وهنا قام الأمريكيون بالعمل على عرض القضية الإيرانية في مجلس الأمن ، كما أظهروا اهتماماً بإبقاء الشاه ووزرائه على المستوى المطلوب . لكن قوام السلطنة كان يلعب بمفرده ، ونجح في خداع الروس والأمريكيين وعاهل بلاده .

بالنسبة لكثير من الإيرانيين أصبح هذا الوضع مألوفاً للغاية . فها هو بلدهم يصبح مرة أخرى ألعوبة في أيدي القوى الكبرى ، وها هي ذي القيادة الضعيفة تنشر الوهن مرة أخرى في الأمة بأسرها .

وساهم خطر التدخل الأجنبي ، وعجز الشاه الواضح في الدفاع عن مصالح أمته ووحدتها ، في تزايد التأييد للجبهة القومية التي كان يتزعمها الدكتور مصدق .

* * *

لكن زمام المبادرة في ذلك الوقت كان في يد قوام السلطنة الذي كان مقتنعاً

تمام الاقتناع بأن البترول هو جوهرة الأزمة .

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد ، قام بمناورته بمهارة فائقة ، فلوّح للروس بإمكانية حصولهم على امتيازات التنقيب في معظم مناطق الشمال لمدة خمسة وعشرين عاماً وتكون لهم حصة الأغلبية كما يطلبون . وتأكيداً لحسن نوايا رئيس الوزراء ، فقد رفع الحظر على اجتّماعات حزب تودة ، وصادر الصحف المعادية للسوفيت ، وأمر بالقبض على بعض الشخصيات المعروفة بعدائها للسوفيت . في مقابل ذلك نجح في أواخر مارس في الحصول على تاريخ محدد لانسحاب القوات السوفيتية .

إن استعداد قوام السلطنة وحديثه عن «حتمية» إعطاء امتيازات بترولية للروس ، ورغبته في سحب شكوى إيران من مجلس الأمن ، على أن يحل محلها مفاوضات تنائية . «عندما تتعامل مع أحد يجب أن تداهنه وتطعمه ، بدلاً من أن تضاهي أظافرك بمخالبه» . سبَّب ذلك كثيراً من الانزعاج للشاه والأمريكيين .

وفي نهاية أبريل عبَّر الملحق الأمريكي عن قلقه بأن الخطر في سياسة قوام السلطنة التي تقوم على «الاسترضاء النسبي» ستتركه في النهاية دون خيار ، فإما أن يصبح ألعوبة بيد الروس ، أو أن يطاح بحكومته ليحل محله رئيس آخر على استعداد ليلعب هذا الدور.

كان الشاه كما هو واضح من تطور الأحداث الآن ، غير مستريح لقوام السلطنة ، ولم يعيِّنه رئيساً للوزراء إلاَّ نتيجة للضغط ، في ٨ مايو أخبر قوام السلطنة القائم بالأعمال الأمريكي «وبشكل سري للغاية» أنه يرى أن العقبة الحقيقية في طريق حل الأزمة الأذربيجانية ، لا تكمن في شخص «بيشناري» رئيس الوزراء الألعوبة الذي نصبه الروس في تبريز ، وإنما في الشاه ، الذي أراد أن يستخدم القوة ، كذلك فإنه يعتقد بأن الشاه قد أخذ دوره الشكلي كقائد للقوات المسلحة بشكل جدّي وهو لا يدري بإرسال الجيش إلى أذربيجان ، فهو بذلك يجازف بالفشل ، وبعد ثلاثة أسابيع كان الشاه يعبِّر للرئيس الأمريكي في واشنطن عن «عدم رضائه المتزايد» عن قوام السلطنة وعن اقتناعه «بضرورة اتخاذ خطوات حازمة حتى لا تصبح إيران ألعوبة في يد الاتحاد السوفيتي» . وحاول أن يحصل على وعد بدعم أمريكي مباشر ، لكن قيل له أن التأييد الأمريكي الفعال الوحيد

لن يتم إلا من خلال هيئة الأمم . وفي ٦ يونيو ، كتب السفير خطاباً شخصياً إلى «لوي هندرسون» مدير قسم الشرق الأدنى والشؤون الأفريقية بوزارة الخارجية الأمريكية ، قائلاً :

«بالإضافة إلى المقابلات التي تمت بيني وبين الشاه ، وكذلك قوام السلطنة أي بين عدد لا يحصى من وفود الإيرانيين ، الذين يصرّون كلهم تقريباً على ضرورة قيام الولايات المتحدة بدور أكثر إيجابية في شؤون إيران الداخلية . ولقد كررت لهم مراراً وإلى درجة تثير الغثيان ، بأنه ينبغي على الولايات المتحدة أن تبذل قصارى جهدها لمنع التدخل في شؤون إيران الداخلية ، ومن أننا لا يمكن أن نتبنى التكتيكات التي نعارضها بقوة ، ونصرّ في الوقت ذاته على ان هيبة الأمم هي خير ضمان لأمن إيران . لقد تعوَّد الإيرانيون على التدخل الخارجي ، مثل الرجل الذي قضى فترة طويلة في السجن ويخشى السير في ضوء الشمس . ان طريقتهم الوحيدة في التفكير للتخلُّص من أي تدخل هي الدعوة لتدخل آخر» .

كان السفير يخشى أن إجابته هذه تفشل في إرضاء الإيرانيين ، الذين عادة ما كانوا يتركونه ، وعندهم انطباع بأن الولايات المتحدة لم تكن مهتمة بمصيرهم .

ولكن لو قدر لهؤلاء الإيرانيين أن يروا المذكرة التي أعدها بعد عدة شهور رئيس أركان الحرب المشتركة عن أهمية إيران للولايات المتحدة ، لاطمأنوا بخصوص هذه النقطة ولأدركوا أن في انتظارهم اهتماماً أمريكياً أكبر مما كانوا يريدون ، وربما يحتملون ، كانت هناك فقرات بارزة وذات دلالة قوية وذلك لأن رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة ، يعتبر إيران ، كمصدر للبترول ، ذات أهمية استراتيجية بالغة بالنسبة للولايات المتحدة . «ومن وجهة النظر الدفاعية ، فإن المنطقة تعطينا فرصاً للقيام بعمليات للتعويض ، أو بعملية لحماية مصادر البترول التي تديرها الولايات المتحدة في المملكة العربية السعودية ... وبغض النظر عن إمكانية القيام بهجوم مضاد في المنطقة ، فإن مصادر البترول في إيران والشرق ـ الأدنى والأوسط ـ هامة للغاية ، وقد تكون حيوية بالنسبة لأي هجوم مضاد حاسم يتم في أي منطقة» .

واقترحت المذكرة : «أن مساعدة رمزية تقدمها الولايات المتحدة إلى المؤسسة العسكرية الإيرانية ، قد تساهم في الدفاع عن مصالح الولايات المتحدة الاستراتيجية

في الشرق الأدنى والأوسط ، وكفيلة بأن تخلق مشاعر طيبة تجاه الولايات المتحدة من جانب الحكومة المركزية في إيران ، وقد تؤدي إلى تقوية الحكومة وزيادة استقرارها» . لذا ، أوصت المذكرة بتزويد إيران «بالأسلحة والمواد الحربية غير الهجومية بكميات معقولة» . هذه هي بداية تاريخ طويل من تزويد إيران بالسلاح وتصعيد هذه العملية .

* * *

وإذا كان البترول كما قال قوام السلطنة هو «جوهرة الأزمة» بالنسبة للروس فقد أصبح الآن كذلك بالنسبة للأمريكيين . لكن المشكلة كانت تتمثل في أن النوايا الأمريكية لا بد أن تحقق نفسها في الخفاء . فلو ظهر أن الأمريكيين يتدخلون في شؤون إيران الداخلية في الوقت الذي كانوا يتهمون فيه الروس بذلك لتسبب هذا في كثير من الحرج لهم . كما أن الأمر سيكون أكثر سماجة لو لوحظ أنهم بدأوا في المناورة من أجل الحصول على امتيازات بترولية في الوقت الذي كانوا يشجعون فيه الحكومة الإيرانية على الوقوف بحزم ضد المطالب الروسية بامتيازات التنقيب في الشمال . كان من الأمور المعروفة ، بأن اهتمام الشركات الأمريكية المتزايد ببترول إيران أثناء الحرب ، قد انتهى بقرار المجلس بمنع مناقشة أي امتيازات جديدة حتى انتهاء الحرب ، لكن قوام السلطنة كان مستعداً أن يلوح للأمريكيين بإمكانية الحصول على امتيازات في «بلوشستان» كمكافأة لهم . لكن عندما وصل الحد بالسفارة الأمريكية في طهران إلى سؤال قوام السلطنة ، عما إذا كان على استعداد لاستقبال مفاوضين يمثلون شركات البترول الأمريكية ، هرعت واشنطن بتوجيه اللوم في ٨ ابريل ١٩٤٦ «نحن حريصون بألاّ نعطي الانطباع بأن مصالحنا الذاتية في بترول إيران ، لها أثرها على الخطوات التي اتخذها مؤخراً في مجلس الأمن ... كما لا نرغب في الدخول في أية مفاوضات يقوم بها ممثلون عن الحكومة أو الشركات البترولية الأمريكية ، بخصوص إمكانية حصول بعض الأمريكيين على حقوق البترول في إيران إلا بعد جلاء القوات السوفيتية عن إيران أو على الأقل حين يبطل العمل بالقانون الذي يمنع مثل هذه المفاوضات .

وبينما كانت روسيا وأمريكا تفكِّران في البترول الذي قد يحصلان عليه من إيران في المستقبل ، كانت بريطانيا الشريك الثالث ، مشغولة بمدى ما تحصل عليه من البترول في الوقت الحالي . وكانت مصفاة شركة البترول الأنجلو إيرانية في عبدان هي أكبر مصفاة في العالم . وقد ارتفع إنتاج آبار البترول في الجنوب الغربي من ١٣,٢٧٠,٠٠٠ طن عام ١٩٤٤ إلى ١٩,١٩٠,٠٠٠ طن عام ١٩٤٦ ، وهذا يعادل أكثر من نصف إنتاج البترول في الشرق الأوسط .

ومع أن الحكومتين الأمريكية والبريطانية كانتا تعملان سوياً في هيئة الأمم بخصوص أزمة إيران ، وعلى الرغم من أن السفيرين الأمريكي والبريطاني في طهران استمرا في تبادل الاستشارات في فترات متقاربة إلا أنه كانت توجد مجالات يتم التعامل فيها بتحفظ ، اتسع نطاقه فيما بعد مع تعمق الأزمة التي نشبت بسبب امتيازات شركة البترول الأنجلو إيرانية . ولم يترفع قوام السلطنة عن انتقاد البريطانيين أمام الأمريكيين ، واعترف أنه أخفى عنهم مفاوضاته الخاصة بامتيازات البترول الروسي ، وأكد للأمريكيين أن بريطانيا لن تحصل على أية امتيازات أخرى ، وإذا حدث ومنحت إيران أية امتيازات جديدة ، فستعطى للأمريكيين ، كما اتهم البريطانيين بأنهم يعملون على إقالته من الوزارة ، وكان هذا ولا شك ، جزءاً من اللعبة المركبة التي كان يلعبها قوام السلطنة ، لكنه كان ذكياً بما فيه الكفاية ليرى النقاط التي تفترق عندها المصالح الانجليزية عن المصالح الأمريكية ، حتى يستغل هذه الخلافات لصالحه .

نجح قوام السلطنة في خداع الروس أيضاً . إذ دعا إلى إجراء انتخابات جديدة ، بعد أن أقنع الروس وحزب تودة ، أن مثل هذه الانتخابات ستؤدي إلى تشكيل مجلس متعاطف مع فكرة منح الروس امتيازات تنقيب في الشمال . وفي منتصف ديسمبر عام ١٩٤٦ ، دخلت قوات الشاه تبريز ، عاصمة أذربيجان ، بحجة أنه لا يمكن إجراء انتخابات دون أن يكون للحكومة سلطة فعلية على كل بلد ، وسقط نظام «بيشناري» لكن حينما اجتمع المجلس الجديد في نهاية الأمر صوَّت بالإجماع تقريباً ضد منح الروس أية امتيازات . ولم يكن أمام موسكو أن تفعل شيئاً سوى أن توجه اللوم للحكومة الإيرانية متهمة إياها «بخيانة تعهداتها» .

الفصل الرابع

هجوم النسر

في أواخر صيف عام ١٩٥٠ ، قمت بأول زيارة إلى طهران . وكصحفي كنت قد تعقبت ميراث الصراع وعدم الاستقرار السياسي الذي خلفته الحرب العالمية الثانية ، واكتشفت في إيران وجود كل مظاهر العلة الخطيرة . فالشاه ، الشاب ، لا يزال مطمئن على عرشه ، رغم أن محاولة اغتياله في ٤ فبراير عام ١٩٤٩ أحدثت موجة من التعاطف معه زادت من ثقته في نفسه بعض الشيء . على حين لم يبد المجلس أي رغبة في إشراكه في السلطة ، فالزعماء الدينيون وحزب «تودة» الشيوعي كانوا في غاية اليقظة . لكن أهم ملمح من ملامح إيران كان الأمريكيون ، الذين كانوا يقيمون لأنفسهم مواقع قوة في كل مناحي الحياة القومية الإيرانية . وكان ذلك يتم إلى حد ما على حساب حلفائهم الانجليز ، الذين كانت تتبعهم شركة البترول الانجلو إيرانية ، ذات القبضة المسيطرة على الإقتصاد الإيراني ، والتي كانت أيضاً مركزاً للعواطف السياسية المتأججة ، التي كان مقدراً لها أن تنفجر بعد وقت قصير .

ومع أن إيران ، حتى هذه اللحظة ، نجت مما حلَّ في تشيكوسلوفاكيا ، وتحاشت ابتلاع جيرانها الشماليين لها ، إلا أن الكثيرين كانوا ما زالوا يخشون أن يحدث شيء مماثل . وقد وصفت إحدى الوثائق التي أعدتها وزارة الخارجية الأمريكية في يناير عام ١٩٤٩ ، إيران بأنها «أضعف حلقة في سلسلة الدول المستقلة التي تقع على حدود الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط ، رغم أهميتها من الناحية الاستراتيجية» . وبعد شهرين كتب السفير الأمريكي في تقرير سري يقول : «إنني أرجح كفة احتمال قيام السوفيت بهجوم مسلح على أذربيجان بنسبة واحد إلى ثلاثة ، في السنة القادمة» . ثم أضاف : «وأعتقد أن عودة السوفيت إلى إيران ليست

محل تساؤل ، إنها ليست مسألة «هل» بقدر ما هي مسألة «متى ؟» . ان الحشد السوفيتي للقوات على هذا الشكل الذي يثير الفزع ، مشابه لما حدث لدول بحر البلطيق من جراء الاستيلاء الأحمر عليها» .

كيف يمكن إذن تقوية الحلقة الضعيفة ، وملء الفراغ الإيراني ؟ وكالعادة ، كان على الأمريكيين أن يفكروا في ثلاثة وسائل .. الأسلحة ، والمساعدات ، والتحالفات . كان تسليم المعدات الحربية قد بدأ بالفعل عام ١٩٤٩ ، لكن أي خطوة أزيد من ذلك كانت تتطلب موافقة الكونجرس الأمريكي . كان الشاه يريد أسلحة حديثة ، ورغب أن تتلقى قواته تدريباتها في الولايات المتحدة ، كما رغب خلال عام ١٩٤٩ – ١٩٥٠ أن يبني جيشاً قوامه ٣٠٠,٠٠٠ رجل . وكان تقديره على أساس أنه بمثل هذه القوة يمكن أن يبسط حمايته على مناطق كافية في الجنوب والجنوب الغربي لصد أي هجوم سوفيتي ولمنع ضياع حقول البترول ، أما بالنسبة للدفاع عن البلد بأسره ، فإن ذلك يتطلب جيشاً قوامه نصف مليون .

كانت هذه الأرقام ضرباً من الخيال ، وربما تقدم بها الإيرانيون على سبيل المساومة للحصول على ما يريدونه حقيقة ، لكن الشاه ووزراءه كانوا يشعرون بأن مطالبهم مشروعة . فقد حصلت جارتهم تركيا بمقتضى «مبدأ ترومان» في مايو ١٩٤٧ على ضمان بالحماية الأمريكية . فلماذا لا تمتد هذه الحماية لتشمل إيران ؟. وقد كتب السفير «وايلي» في ابريل ١٩٤٩ يقول : «انهم يرون في تنفيذ السياسة الأمريكية نوعاً من التحيّز ضد إيران قد يسبب لها أبلغ الضرر — كما لو أن الولايات المتحدة تضع علامة على الطريق لصالح روسيا تشير لهم بالالتفاف من خلال إيران» . وأضاف السفير قائلاً : «لقد سيطرت المساعدات الأمريكية لتركيا على عقول القادة الإيرانيين» . وقد كتب رئيس الوزراء مناشداً المساعدة الأمريكية المباشرة ، وكان من رأي «وايلي» منحهم هذه المساعدة ، «لأنها ستجعل الإيرانيين أصلب عوداً ، حيث يتضح أننا نعتبر إيران ، من وجهة نظر مدى استحقاقها للمساعدة ، في مرتبة تركيا» . وعلى الرغم من أن مقدرة إيران على استيعاب المساعدة العسكرية محدودة «فيجب أن نتحاشى وبكل دقة

أي تقديرات» لتقديم مساعدات رمزية «في تعاملنا مع إيران . وأن نتحرك على أساس تقديرنا لمقدرتنا على استيعاب المساعدات العسكرية بشكل فعال» .

كما ألح الإيرانيون على طلب المساعدات الاقتصادية . فقد وصف الشاه (في يوليو ١٩٤٩) المساعدات الأمريكية لبلده بأنها «تافهة» . وتصور السفير الإيراني في واشنطن أن مبلغ ٥٠٠ مليون دولار رقماً مناسباً ، وبعد عدة أسابيع اقترح مبلغ ١٤٧ مليون دولار . ولم يربط التشريع الخاص ببرنامج المساعدة للدفاع المشترك عندما صدر في أغسطس ، بين إيران وتركيا واليونان في مجال المساعدة ، بل ربط بينها وبين كوريا والفلبين في اقتسام مبلغ تافه قوامه ٢٧ مليون دولار . واعترض السفير على ذلك بقوله : «النتيجة المتوقعة لذلك ، هي الحزن وخيبة الأمل ، بل والسخط في إيران» .

* * *

لكن ماذا عن الأحلاف ؟ فلقد تم توقيع ميثاق شمال الأطلنطي في أبريل عام ١٩٤٩ ، وأصبحت تركيا عضواً فيه عام ١٩٥٢ . كانت الأحلاف هي الاتجاه السائد في ذلك الوقت . وتحدث الشاه بشكل مبهم عن «تدعيم» حلف «سعدأباد» ، وهي معاهدة عدم اعتداء بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان وقعت عام ١٩٣٧ ، لم يقدر لها الحياة على الإطلاق وماتت آنذاك تماماً . كان هناك أيضاً حديث عن حلف البحر الأبيض المتوسط ، يضم تركيا واليونان ومصر ، وربما بعض الدول العربية الأخرى ، ورأت السفارة الإيرانية في واشنطن أن إيران يجب أن ينظر إليها باعتبارها أهم بلد في هذا الحلف . لكن «دين أتشيسون» ، وزير الخارجية الأمريكية ، قتل الفكرة . وفي أبريل عام ١٩٤٩ ، أوصى : «بأن الوزارة لم تنظر بعد في مسألة حلف البحر الأبيض المتوسط في الشرق الأوسط ، كما أنها ليست في وضع يسمح لها بذلك ، وحتى تتضح نتائج حلف شمال الأطلنطي كما أنها لا يمكن أن تشجع أو تثبط من التفكير في مثل هذا التحالف الذي تشترك فيه دول تنتمي إلى تنظيم إقليمي» .

وبالطبع لن يكون هناك جدوى من أي تحالف طالما أن الدولة لا تحظى

بالأمان في الداخل ، وحكومتها ضعيفة . فعندما قام «وليم رونتري» مدير قسم الشؤون اليونانية والتركية والإيرانية في وزارة الخارجية الأمريكية ، بزيارة إيران في مارس ١٩٥٠ ، وجد الموقف هناك «خطيراً ومتفجراً» . وكانت هناك ثلاثة أسباب لذلك :

(١) النشاط المتزايد لحزب تودة .

(٢) الكساد الإقتصاددي الداخلي .

(٣) انعدام التنظيم بدرجة لا تصدق ، والفوضى ، وعدم ثقة قادة الحكومة في أنفسهم .

في ٢٥ مارس ١٩٥٠ ، عين الشاه «علي منصور» رئيساً للوزراء ، وهو سياسي عجوز اتهم على نطاق واسع بالفساد ، وطبقاً لتقرير «وايلي» : «فقد قوبلت هذه الخطوة بعدم الرضا والدهشة البالغة حتى من قبل الأسرة المالكة وحاشية البلاط الداخلية» . كان الأمريكيون ملتزمين باتباع سياسة عدم التدخل في شؤون إيران الداخلية . لكنهم وجدوا أنه من الصعب الحفاظ على هذا الموقف إلى النهاية . وبالطبع كانت تنقصهم براعة البريطانيين الذين كان في مقدورهم التحكم في سياسة وساسة إيران لأنهم كانوا خبراء قدامى ، ويعرفون أصول اللعبة . وفي أبريل ١٩٥٠ ، أعد «جورج ماكجي» مساعد وزير الخارجية ، ورقة للوزارة بعنوان : «الأزمة الحالية في إيران» . أوضحت إلى أي مدى بدأ الأمريكيون في تولي المسؤولية بالنسبة للبلد . وأوصت بأنه «ينبغي على الولايات المتحدة أن تعرب عن قلقها للشاه بخصوص الأحداث في إيران ، وأن تصف له الإصلاحات التي يمكن للإيرانيين أنفسهم أن يضعوها موضع التنفيذ ، وأن توضح أن الولايات المتحدة ستزودهم بالمساعدات ، إذا ما تولت مقاليد الحكم حكومة حازمة وقادرة على استخدام هذه المساعدات لتقوية مقدرة إيران الداخلية للدفاع عن نفسها ضد الشيوعية . وإذا لزم الأمر ، فإن الولايات المتحدة مستعدة لأن تحدد اسم المسؤول الإيراني الذي تتوسم فيه المقدرة على تنفيذ كل هذه الالتزامات» . وكان الشاه يشعر ، مثل الأمريكيين ، أن الموقف قد أصبح خطيراً

للدرجة التي يتطلب فيها علاجاً حاسماً ، واتجه تفكيره حينئذ إلى حل عسكري ، وهو حل فكّر فيه فيما بعد أيضاً .

في ٢٥ يونيو أقال الشاه علي منصور وعين مكانه «الجنرال علي رازم آراه» رئيس أركان حرب الجيش الإيراني . وقد كتب «وايلي» في تقرير له في ٢٢ مايو : «إن هناك تعاطفاً متزايداً حتى بين أعداء «رازم آراه» السياسيين السابقين لتعيينه رئيساً للوزراء في هذه الظروف السياسية والاقتصادية المشوشة ، كان من بين هؤلاء الأعداء الأخ الأصغر غير الشقيق للشاه ، الأمير «عبد الرضا» الذي تخرج من جامعة هارفارد وعاد إلى وطنه بأفكار عن إعادة تنظيم اقتصاد البلاد . ومن إحدى تعليقاته التي تعد غير بذيئة بالقياس لِغيرها وصفه لـ «رازم آراه» بأنه : «أفعى تكمن في العشب» .

* * *

وقد علق الكثير الأمل على هذه المكنسة الجديدة ، كان عمر «رازم آراه» تسعة وأربعين عاماً ، تخرج من أكاديمية «سان سير» العسكرية ، وكان قد لعب دوراً قيادياً في تصفية نظام «بيشناري» في أذربيجان عن طريق القوة ، ولم يخف رغبته في الحصول على هذا المنصب الهام ، رغم أنه كان من المفهوم أن «الشاه كان ينوي إذا استطاع ، أن يبقيه مغلول اليدين» . وهنا واجه «رازم آراه» موقفاً صعباً للغاية . ففي عام ١٩٤٨ ، كانت المفاوضات قد بدأت بين الحكومة وشركة البترول الأنجلو إيرانية ، لإتمام اتفاق تكميلي لتغيير شروط الاتفاق الذي تم بين الشركة والشاه رضا عام ١٩٣٣ ، بما يتفق ومصالح إيران . فحسب الإتفاق القديم كان على الشركة أن تدفع للحكومة الإيرانية مبلغاً ثابتاً قدره ٤ ملايين جنيه استرليني سنوياً ، يزيد مع زيادة الإنتاج ليصل إلى ١٦ مليون جنيه استرليني عام ١٩٥٠ .

وفي يوليو ١٩٤٩ ، وقع هذا الاتفاق التكميلي الذي كان سيزيد دخل الحكومة بشكل واضح ، ثم عرض على المجلس في الحال للموافقة . لكن المجلس حلّ قبل الموافقة عليه أو حتى مناقشته ، ثم تم عرضه للبحث في يونيو

١٩٥٠ ، على لجنة برلمانية فرعية مكونة من ثمانية عشر عضواً برئاسة الدكتور مصدق .

كان كل ما يرغب فيه «رازم آراه» هو تنفيذ الاتفاق ، لكن الدكتور مصدق المتحدث الساحر الذي كان يعبِّر عن الحماس الديني والقومي المتصاعد الذي كان قد بدأ يركز مطالبه على تأميم البترول ، كان قوياً للغاية وعوقه عن تحقيق رغباته .

وقد حاول «رازم آراه» أن يلطف من حدة المعارضة ، بأن طلب من الشاه أن يضيف في قرار تعيينه رئيساً للوزراء صفة الحاج «علي رازم آراه» وليس الجنرال . ولم يكن «رازم آراه» في الواقع حاجاً بالمعنى المعروف للكلمة وهو القيام بفرائض الحج ، بل كان من الشائع في إيران أن من يولد في أول أيام السنة الهجرية (مثل «رازم آراه») يمكن أن يطلق عليه لقب «حاج» من قبيل المجاملة . وهكذا قدم الحاج علي نفسه إلى المجلس وهو يرتدي زياً مدنياً وليس عسكرياً . وقوبل بعاصفة من السباب من مصدق : «أنت لست بحاج فلماذا تحاول خداعنا ؟.. أنت جنرال ـ ثعلب في ثياب قط ـ .. عد إلى الشخص الذي أرسلك إلى هنا» ..

وحدثت جلبة هائلة ، لكن في النهاية وافق المجلس على تعيين «رازم آراه» .

ورغم أن «رازم آراه» أصبح رئيساً للوزراء ، إلا أنه لم يكن في إمكانه أن يحقق الكثير ، فخطوط المعركة بين القصر والجبهة الوطنية التي يتزعمها مصدق ، كانت قد اتضحت تماماً ، ولم يعد هناك مجال للحلول الوسط . كان مصدق هو بطل الساعة والتأميم ورمز اعتزاز الأمة بنفسها . كان مصدق خليطاً غريباً كزعيم سياسي ، فرغم أنه قد بلغ السبعين إلا أنه كان خطيباً مفوّهاً يجيد تحريك العواطف ، ومثقلاً بكل أحزان الشيعة . وقد حضرت عدة مناقشات في المجلس في ذلك الوقت وأصبحت خصائص أسلوبه الخطابي مألوفة لدي . فعادة ما كان يبدأ بالتحدث إلى النواب عن آلام الشعب الإيراني ، إلى أن يتملكه التأثر من بلاغته شخصياً فينفجر باكياً . ثم يتحول البكاء إلى نوبة سعال ، ثم ينهار تماماً . فيندفع إليه النواب ، يقدمون إليه أكواب الماء ، والكولونيا ، والمنعشات ليشمها ... وبعد قليل ينجحون في إعادة مصدق للوقوف على قدميه ، ويشرع في مواصلة

خطبته ، ليغلبه التأثر بنفس الطريقة مرة أخرى بعد خمس دقائق . كان الجميع يتعجبون من صدق عواطفه ، وبلا شك فقد كان مصدق مخلصاً للغاية ، وبحلول عام ١٩٥٠ ، أصبح مصدق تجسيداً لطموحات الشعب الإيراني ، لكنه كان فاشلاً من وجهة النظر العملية كسياسي ، إذ لم يكن لديه فكرة قط عن التنظيم والإدارة .

كان مصدق يمثل الجناح السياسي في الحركة القومية ، أما الجناح الديني فكان يتزعمه آية الله أبو القاسم كاشاني ، الذي كان الشاه رضا ، قد نفاه إلى لبنان ، وسمح له بالعودة بعد الحرب . وكان كل من البريطانيين والشيوعيين يشكون في أن الولايات المتحدة كانت وراء عودته ، ولذلك فقد اتهم بأنه يلعب دوراً لصالح أمريكا .

كانت هناك أيضاً جماعات دينية متطرفة عديدة تتفاعل تحت السطح ، من أبرزها جماعة «فدائيين ــ إسلام» ، التي أسسها وتزعمها «نواب صفوي» . كان صفوي قد قرأ ذات يوم ، مقالة تهاجم وتهين الإسلام . فاستشار أحد آيات الله في مدينة «قم» عن عقوبة من يهين الإسلام . فقيل له الموت ، وهنا قرّر أن يكوِّن جماعة لتحمل مهمة تنفيذ هذه العقوبة .

وكان «كسروي» ، الذي كان يعمل محامياً بالإضافة إلى كونه صحفياً ، أول ضحايا صفوي ، وقد اغتاله أربعة من رجاله عام ١٩٤٩ ، داخل المحكمة حيث كان يترافع . وتم القبض على المتهمين واعترفوا ، وارسل آية الله كاشاني لهم يبارك عملهم . وقد حضرت محاكمتهم في محكمة العدلية القديمة ، وكانت مهرجاناً نادراً . فالمحكمة قد امتلأت بالأعلام والزينات ، وعندما دخل القاضي واستفسر عن سبب ذلك . قيل له إن آية الله كاشاني هو الذي أمر بهذه الزينات للاحتفال ببراءة المتهمين الأربعة . وقال القاضي محتجاً : «انني لم أبدأ في نظر القضية بعد» . فكانت الإجابة «نحن نعرف لكن آية الله كله ثقة في عدالتك» . ولم يخيب القاضي ظن آية الله . فقد كانت هناك خارج مبنى المحكمة حشود من الناس ، كثير منهم من مدينة «قم» ، يهتفون «الله أكبر» ، ورفض القاضي الدعوة .

أما العنصر الآخر الذي كان على «رازم آراه» أن يكافح ضده ، فهو حزب

تودة . الذي تعود جذوره إلى كتابات أستاذ في الكيمياء يدعى «ايراني» درس في ألمانيا قبل أن يصل هتلر إلى السلطة ، وكان على اتصال بعديد من الشيوعيين الالمان . وعندما عاد إلى إيران أحس بأن الموقف يشبه إلى حد كبير جمهورية وايمار وتتطلب نفس العلاج الحاسم .

توفي «ايراني» في السجن في نهاية عام ١٩٣٠ ، وفي عام ١٩٤١ ، أسس بعض تلامذته الحزب الشيوعي وسموه تودة (الجماهير) . ولعلاقة الحزب الوثيقة بموسكو . كان حزب تودة محل شك دائم ، خاصة في تلك الفترة ، التي عارض فيها وبشكل يدعو للسخرية ، تأميم البترول ، لأن موسكو كانت ترغب في امتيازات بترولية جديدة ، وليس تأميم الامتيازات القديمة . ومع ذلك ، كان عدد أتباع حزب تودة آخذاً في التزايد بين أوساط الطلبة والمثقفين .

* * *

كان أول لقاء لي مع الشاه في أوائل ربيع ١٩٥١ ، في بيت الأميرة أشرف . وهذا البيت كان له أهمية خاصة ، إذ أنه كان يعكس شغف الأميرة بالأمبراطور نابليون . فكانت الصور والتماثيل النصفية لنابليون تحتل كل المكان ، وفي مكتبها (كان لديها مكتب في منزلها ، أما زوجها فكان مكتبه في الخارج لأنه كان يعمل مديرا للطيران المدني في إيران) ، كانت كل المقاعد والأرائك مغطاة بجلد النمور . ولا بد أن الأمر اقتضى جلود مائة نمر على الأقل لتغطية كل ذلك . وأعتقد أن الأميرة أشرف كانت ترى في والدها شخصية نابليونية ، وترى في نفسها الأسرة الصغيرة ابنة ذلك النمر العجوز . في هذا اللقاء وجدت أخاها مكتئباً للغاية . ولم يخف شكوكه بخصوص التأميم . فأشار إلى أن عدد العاملين في شركة البترول الأنجلو إيرانية يبلغ ٥٣ ألف عامل . فكيف يتسنى لنا دفع رواتبهم إذا ما تم التأميم ؟... ومن أين ستجد إيران الأموال اللازمة لدفع التعويضات ؟.. وحتى إذا تم اقتراض هذه المبالغ فإن دفع الدين سيستغرق نفس الفترة التي ستستغرقها الامتيازات حتى عام ١٩٩٣ والتي سيتم إلغاؤها ، وكيف يمكن لإيران أن تكون قادرة على نقل البترول وتسويقه ، حتى لو أمكنها أن تستمر في إنتاجه ؟ معظم

هذه الأسئلة كانت صحيحة تماماً كما بين مسار الأحداث .

وكما لو أن المتاعب العامة ليس فيها الكفاية ، فقد كان الشاه يعاني في نفس الوقت من مشاكل عائلية أيضاً . فمحاولة اغتياله جعلته يهتم اهتماماً متزايداً بنصيحة والده عند الوداع بأن «ينجب ولداً» . لذا تزوج من زوجته الثانية ثريا أصفندياري في ١٢ فبراير ١٩٥١ . لكن أخته التوأم ، الأميرة أشرف ، لم توافق على هذا الزواج فقد تصورت أن أختهم غير الشقيقة الأميرة شمس ، هي التي رتبت هذا الزواج ، واعترضت على ما كان يتضمنه ذلك من انتقاص لمكانتها إذ أنها كانت منذ طلاق أخيها تعد نفسها سيدة إيران الأولى ، وتلعب في الواقع دور الملكة . لذا وبعد عقد القران مباشرة عبرت عن عدم رضاها بوضوح بأن عادت إلى منزلها دون أن تحضر الاحتفالات التي أعقبت القران .

أما أخت الشاه الأخرى غير الشقيقة ، الأميرة فاطمة ، فقد سببت له متاعب أسوأ بكثير . كان الأمير «عبد الرضا» يدرس في كاليفورنيا فأحضر معه صديقاً أمريكياً يدعى «فنسنت هيلر» ليقضي الإجازة معه . وتقابل هو والأميرة فاطمة ووقعا في الغرام . فأعلنت عن عزمها الذهاب إلى كاليفورنيا لتدرس ، وفعلت ذلك ، لكنها تزوجت في الحال . وقد سبَّب هذا الزواج سخطاً متوقعاً في كل أنحاء إيران . ليس بسبب كون زوجها أمريكياً وحسب ، بل لأنه لم يظهر النية في اعتناق الإسلام* .

* * *

وفي ٢٠ فبراير تم اغتيال «رازم آراه» أثناء دخوله مسجد شاه ليشارك في جنازة أحد رجال الدين . وقبض على قاتله وهو ما زال يصيح «الله أكبر» وعندما سألوه عن اسمه لم يكن يجيب إلا بقوله : «عبد الله» .... وعندما ضغط عليه ليقر باسمه الثاني كان يقول «موحدي» أي مؤمن بالله الواحد . لكن اسمه الحقيقي

---

* وقد لجأت في آخر الأمر وطلبت المساعدة من الآغا خان الأكبر . وقد كانت أمه من الكاجار فقابل الزوجين الشابين في باريس ، وأقنع هيلر باعتناق الإسلام . لكن الزواج لم يكن موفقاً وانتهى بالطلاق .

كان «خليل طهمسبي» وعضواً في جماعة «فدائيين ـ إسلام» .

وكانت أصداء ذلك الاغتيال ، الذي لا زلت أذكره ، منذ ذلك الوقت تعطي فكرة واضحة عن الجو السائد . وعلى سبيل المثال نشرت جريدة (أصناف) رسماً كاريكاتيرياً ليد ملاك تظهر من بين سحابة ممسكة بمسدس يتصاعد منه الدخان بعد أن أردت رصاصاته « رازمارا » قتيلاً لتوه . وكتب تحته «القبلة الأخيرة». ومثال آخر ، كان ذلك البيان الذي أصدره كاشاني ، يقول فيه ما معناه أن الرصاصات التي أردت «رازم آراه» قتيلاً كانت مباركة من الله ، وأن البترول سيؤمم على الرغم من نشاطات الخائن الذي غرق الآن في دمه . كما كان هناك أيضاً بيان من «صفوي» تحت عنوان «هو العزيز» ، موجهاً إلى الشاه دون ذكر لأي من ألقابه ، مخاطباً إياه ببساطة «بسر بهلوي» ، أي يا «ابن بهلوي» . والبيان يخبره بشكل قاطع أنه يتحتم أن يصدر أمراً بالإفراج فوراً عن قاتل «رازم آراه» ، وأن يقدم له الإعتذار عما لحقه من ضيق بسبب استجواب البوليس له . والأهم من ذلك كله فشل الحكومة في إحضار إمام واحد يكون مستعداً لإقامة شعائر صلاة الجناز على «رازم آراه» .

وقد عرض «فهيمي» ، القائم بأعمال رئيس الوزراء ، ثلاثة آلاف جنيه على أحد الأئمة ليقوم بشعائر الصلاة ، لكن الإمام أخبره أنه يرى حياته أغلى من هذا بكثير .

وانخفضت الروح المعنوية للجيش بطبيعة الحال نتيجة لاغتيال «رازم آراه» واكتظت الشوارع بالمتظاهرين الصاخبين . معظمهم من مؤيدي حزب تودة ، ويصيحون «مورد بادي ترومان» ، أي الموت لترومان . وقد كان اختيار المتظاهرين لشخص الرئيس ترومان كهدف لسخطهم . وليس شركة البترول أو الشاه ، يظهر مدى ولائهم لموسكو ، ومدى ارتباط الأزمة الإيرانية بالحرب الباردة .

كان الجو مشحوناً بتوتر جسيم . ولذا حين قررت أن أذهب ذات مرة إلى مكاتب شركة البترول الانجلو إيرانية ، التي كانت تقع في مبنى كبير بالقرب من البنك المركزي (بنكي ـ مللي) لحضور مؤتمر صحفي رفض مرافقي من وزارة الخارجية أن يذهب معي .

وأخـبرني شقيق زوج الأمـيرة أشرف فيما بعد ، أن الشاه صعق عندما وصلته أنباء اغتيال «رازم آراه» . ولم يستطع أن يصدق أن رئيس وزرائه يمكن تصفيته بمثل هذه البساطة . وأخذ يقول ويكرر : «هذا شيء لا يصدق ، هذا شيء لا يصدق » ، ومضى يقول : «لا أعرف ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل ، فأنا وحيد تماماً . ولا أحد يفهم مشاكلي . الجميع يتآمر ضدي ، بعضهم عن عمد ، والبعض الآخر عن غير قصد . وعليَّ أنا أن أدفع الثمن» .

كان من الواضح أن أعضاء المجلس كانوا من ضمن هؤلاء الذين كان يعتقد الشاه أنهم يتآمرون ضده . فالحياة النيابية النشطة ، بمثابة ظاهرة نادرة في العالم الثالث ، حيث نجد السلطة الفعلية دائماً في الأغلب الأعم ، ما تكون في أيدي القوى الاستعمارية أو المحتلة ، أو في يد رجل واحد من مجموعة من الرجال ، من المدنيين أو العسكريين ، الذين أخذوا مكان المحتل ، ورغم أن بعض الإيرانيين ، الواعين بالحركة الدستورية في الأعوام الأولى لهذا القرن ، أعلنوا أنهم ورثة لتقاليد برلمانية ، إلا أن إيران في الواقع لا يمكن أن تكون استثناء من القاعدة . فبعد الحكم المطلق لأسرة « كاجار » جاءت فترتان من الحكم الأجنبي ، ثم ديكتاتورية الشاه رضا . ولقد تمتع المجلس بفترة قصيرة من الأهمية لأنها كانت فترة انتقال فيما بين الاحتلال ، واندماج الأمة وتوحيدها . ولقد كانت كل مراكز القوَّة الأخرى في الدولة عاجزة عن الحركة مؤقتاً ، ولذا أصبح المجلس هو المركز الشعبي .

وفي ظل ظروف كان البلد يقترب فيها من حالة الفوضى الكاملة ، وجد المجلس فرصته المؤاتية عام ١٩٥٠ ، مثلما حدث مع الجمعية الوطنية عام ١٧٩٠ ، ومجلس الدوما عام ١٩١٧ .

كان الشاه مضطراً للحصول على موافقة المجلس ، لتعيين رئيس جديد للوزارة ، ولذا أرسل فهيمي ، نائب رئيس الوزراء إلى المجلس بقائمة أسماء المرشحين للمنصب . وحين وصل «فهيمي» ، بـدأ «فاخر حكمت» المتحدث باسم المجلس ، في التفوه ببعض كلمات عن «الأحداث المأساوية في الأيام القليلة الماضية » . لكن مصدق قاطعه : «أيها السيد المتحدث باسم المجلس فلتكف عن الهراء ، يجب أن تقف معنا وتهتف (عاش تأميم البترول) » . وحاول

«فاخر حكمت» أن يستمر في إلقاء كلمته ، لكن مصدق قاطعه مرة أخرى ، مصرّاً على أن يهتف (عاش تأميم البترول) .. واضطر المتحدث باسم المجلس إلى أن يتوقف عن كلمته ، ونادى على «فهيمي» ليتحدث بدلاً منه ، قائلاً إنه يعلم بأن نائب رئيس الوزراء قد أحضر لهم رسالة هامة يلقيها عليهم .

وتوجه فهيمي إلى المنبر . وقال إن جلالة الشاه قد أرسله ليحصل على تفويض من المجلس حتى يتمكن من تشكيل وزارة جديدة ، مبيِّناً أنه من الخطورة بمكان أن تظل البلاد دون رئيس للوزراء في هذه اللحظة الحرجة . لكن هذا الكلام قوبل بصيحة احتجاج عالية من النواب . ومرة أخرى ، قام مصدق لكي يتحدث فقال : «انه من الغريب جداً ، أن يرسل الشاه بشخص ليطلب ثقته ... من أعطى الشاه الحق في تشكيل الوزارة ؟.. فهذه هي مهمة المجلس ، وان الشاه بسلوكه هذا ، يحاول انتهاك حرمة الدستور» .

عندئذ أوقف المتحدث باسم المجلس الجلسة لمدة ساعة ، حتى تهدأ العواطف ، تبودلت أثناءها الرسائل مع القصر . وعندما استؤنف الاجتماع لم يظهر «فهيمي» لكن المتحدث باسم المجلس قال للنواب إن الشاه أخبره أن يتقدم بثلاثة أسماء لكم ، وأنه واثق من استطاعتكم اختيار رئيس للوزراء من بينها . كانت الاسماء هي : «فهيمي» نائب رئيس الوزراء ، و«علي سهيلي» سفير إيران في لندن ، و «حسين علاء» وزير البلاط .

وطلب أحد نواب الجبهة القومية حق الكلام فقال :

«حضرات الأعضاء الموقرين ، إذا كنا في الماضي قد قمنا بتأييد الملكية فقد فعلنا ذلك لاعتبارات سياسية واجتماعية ، وليس بسبب شخص «محمد رضا بهلوي» . ويجب أن يعلم الشاه ، أن حكومة هذا البلد تنتمي كلية إلى ممثلي الشعب . فنحن الذين نعيِّن رئيس الوزراء . ويجب على الشاه أن يفهم أن بقاءه على العرش مرهون بتطبيقه للدستور . وينبغي أن يتوقف عن التدخل في السياسة . لقد فرض علينا «رازم آراه» رغم إرادتنا . ان الملك ما هو إلا فرد ، والفرد دائماً ما يتأثر بمن حوله ، من يضمن لنا أن الشاه غير متأثر بإخوته وأخواته وآخرين لا نعرفهم» ؟.

وبدأ مصدق في الحديث مرة أخرى فقال لفاخر حكمت :

«إذهب وقل للشاه كل ما سمعت هنا ، قل له إنه يجب أن يتذكر دائماً أننا نواب الشعب ، وأننا وحدنا المختصون . ثم استمرت المناقشة بعض الوقت ، قرر المجلس بعدها رفض أسماء المرشحين الثلاثة التي تقدم بها الشاه : «فهيمي» لأنه خائن حاول أن يدافع عن «رازم آراه» ، ووقف موقف المعارضة من التأميم ، وسهيلي لأنه صديق للأميرة أشرف ، وكان من الواضح أن اسمه دوّن في قائمة الشاه من خلال نفوذها ، كما رفض اسم «حسين علاء» على الرغم من أنه شخص مهذب ، لأنه تلقى تعليمه في إنجلترا ، وقضى كل حياته العملية في السلك الدبلوماسي ، ولم يكن خطيباً في الفارسية ، علاوة على أنه كان يعاني من قرحة في المعدة ، ثم أعلن المتحدث بعد ذلك أن حسين علاء طلب سحب ترشيحه . لكن الذي حدث بعد خمسة أيام ، أن الشاه أقنعه بأن يبقي على اسمه ويسانده في هذه الأزمة . وحاز قبول المجلس وسمح له بتشكيل الوزارة . واستمر الوضع كذلك بطبيعة الحال إلى أن جاءت الخطوة التي نرى الآن كما لو أنها كانت حتمية الحدوث وهي ضرورة أن يتولى الدكتور «مصدق» رئاسة الوزراء .

* * *

ليس في نيتي أن أدخل في تفاصيل قصة رئاسة مصدق ، فلقد أصبح رئيساً للوزراء في ١٩ أبريل ١٩٥١ . وصدر قانون التأميم في ٣٠ أبريل ووقعه الشاه في أول مايو ١٩٥١ . وكانت أولى نتائج هذه الخطوة أن توقفت شركة البترول عن دفع التزاماتها للخزانة الايرانية ، مما أدى إلى عدم صرف رواتب عديد من موظفي الحكومة . وكان لدي من الشواهد التي جعلتني أقدر الصعاب التي واجهها هؤلاء الموظفون ، فالمرافق الذي عيّنته لي وزارة الخارجية الإيرانية ، كان لا يجد اي نقود في جيبه أحياناً ، مما كان يسبب لي الحرج ، وفي ٢٦ مايو أقامت الحكومة البريطانية دعوى ضد إيران في محكمة العدل الدولية في لاهاي ، التي أصدرت حكمها في ٥ يوليو ، ويوصي في واقع الأمر بالعودة إلى إنتاج البترول ، كما كان الحال من قبل إلى أن تبحث الدعوى مرة أخرى . ووصل إلى طهران «أفريل

هاريمان» ، وهو دبلوماسي أمريكي ضليع تخصص في مواجهة الأزمات ، و «ريتشارد ستوكس» عضو الوزارة البريطانية ، لكنهما لم ينجحا في التوصل إلى حل وسط مقبول .

وفي ٣١ يوليو توقف تكرير البترول كلية ، وفي سبتمبر عرضت بريطانيا النزاع على هيئة الأمم . وذهب مصدق بنفسه إلى مجلس الأمن يعرض قضية بلاده .

وقد شهد عام ١٩٥٢ ، بريطانيا وهي تأخذ القضية مرة ثانية إلى محكمة العدل الدولية ، وكذلك وصول ورحيل عدد من الشخصيات من وإلى طهران ، وأخيراً قيام الحكومة الإيرانية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا . واستمر الأمريكيون في لعب دور غير واضح المعالم . فهم بطبيعة الحال كانوا يعارضون أساساً فكرة التأميم .. ولكنهم رأوا إمكانية استفادة شركات البترول الأمريكية بمزايا عديدة ، نتيجة للأضرار التي تلحق بانجلترا . فظهر العديد من رجال الأعمال الأمريكيين المهتمين بالبترول على الساحة ، وتركت الحكومة الأمريكية كل رجل أعمال ليقرر بنفسه ، حسبما تمليه عليه حصافته ، ما إذا كان يريد أن يشتري قطرات من البترول التي تكرر في عبدان أم لا .. وقد سبب هذا كثيراً من الكدر للحكومة البريطانية التي كانت تصر على أن هذا البترول ملكية مسروقة .

وبحلول ربيع عام ١٩٥٣ ، تدهور الموقف بشكل ملحوظ . فعلى الرغم من أن الحكومة تظاهرت بالشجاعة ، إلا أنه حدث ازدياد في البطالة والمصاعب . فمصدق وأقرب حلفائه كاشاني كانا لا يجيدان الإدارة . ثم بدأ النزاع يدب بينهما . وافتقد المجلس السيطرة ، والشاه أصابه السقم . وبدأ عدد من الشخصيات الهامة ، بما في ذلك بعض النواب ، يتسللون عبر الخليج إلى أماكن مثل الشارقة والكويت ، وهناك سرعان ما كانوا يتصلون بالسلطات البريطانية .

وبدأت التطورات في الشرق الأوسط تسبب القلق المتزايد للأمريكيين ... ففي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قامت ثورة الضباط الأحرار في مصر ، التي طردت الملك فاروق ، وأحلت محله نظاماً ثورياً يتجه اتجاهاً قومياً واضحاً . وظهر عبد الناصر كقائد ورمز للثورة العربية ، وسرعان ما أظهر أنه لا يجد أي فائدة من منظمة

الدفاع عن الشرق الأوسط التي كان الأمريكيون والبريطانيون يحاولون إقامتها ، وهكذا انضمت مصر التي ترفض التعاون ، إلى إيران التي تبدي العدوان الواضح . ولعل ستالين كان عنده بعض الحمق حينما عبر عن ثقته قبل وفاته في ٥ مارس ١٩٥٣ ... من أن إيران سرعان ما ستسقط كالتفاحة العفنة في أيدي السوفيت .

* * *

كان أول من عكس تيار الأحداث ، شركة البترول الانجلو ايرانية ـ وليس الأمريكيين ـ والتي كانت قد أنشأت خلال السنوات الماضية جهاز مخابرات كفيّ . وكما اتضح من قبل ، فقد كان كثير من الساسة يتقاضون منها رواتب ثابتة ، كما كانت الشركة تدفع لبعض زعماء القبائل مباشرة في الجنوب الغربي ، بعض عوائد البترول الذي كان من المفروض أن تدفعه لخزانة الدولة ، أما الآن ، وبالطبع ، فإن هذه المبالغ لم تعد تصلهم ، وبالتالي لم يرق لهم هذا الوضع ، ولذا حينما بدأ مندوبو الشركة في التلميح إلى إمكانية العثور على طريقة للتخلص من مصدق وكاشاني وكل تصرفاتهم ، وجدوا آذاناً صاغية .

وفي كتاب الانقلاب المضاد (الذي كان معروفاً على مستوى كبير في إيران على الأقل رغم مصادرته) يقول «كيرمت روزفلت» إنه باعتباره ممثلاً لوكالة المخابرات المركزية ، فقد كان على اتصال بالعناصر المضادة لمصدق في طهران في وقت مبكر (أواخر الأربعينات) وحتى قبل أن يصبح مصدق رئيساً للوزراء .

وقد استمر روزفلت في مراقبة الموقف ، وفي زيارة إيران على فترات متقطعة إلى أن فاتحه ممثلو شركة البترول الانجلو ايرانية ، في موضوع الانقلاب عند مروره بلندن في نوفمبر ١٩٥٢ . وقد أوضحوا له أنهم يودون أن يروا مصدق وقد أطيح به .. ويودون أن يتم ذلك بسرعة . واستمع لهم روزفلت بتعاطف ، وأبدى استعداده لدراسة خطط التخريب التي أعدتها الشركة ، لا أن يأخذ بها .

وفي الواقع كان الأمريكيون والشركة يرغبون في التخلص من مصدق لأسباب مختلفة ، فالشركة كانت تريد استعادة امتيازاتها ، وتود أن تتمكن من البدء في إنتاج البترول مرة أخرى ، بينما كان الأمريكيون يخشون ما أسماه روزفلت «بالتهديد

السوفيتي الواضح للاستيلاء على إيران» . ويزعم روزفلت أنه حينما قدم تقريراً موجزاً لـ «جون فوستر دالاس» في الاجتماع الذي عقد في وزارة الخارجية الأمريكية في ٢٥ يونيو ١٩٥٣ ، قال ان التهديد السوفيتي لإيران هو تهديد «حقيقي ، خطير ووشيك الوقوع» . وقد وافق دالاس على هذا الرأي قائلاً ، بأنه «لو تمكن الروس من السيطرة على إيران فإنهم سيتحكمون في الخليج الفارسي» . لقد كان ذلك حلمهم وطموحهم الأعظم ، منذ أيام بطرس الأكبر .

وربما كان من أهم الأسباب التي منعت البريطانيين من ترتيب الانقلاب المضاد لمصدق وحده هو خوفهم من رد فعل عنيف من الدب الروسي . فالمعاهدة الروسية الايرانية التي وقعت عام ١٩٢١ ، تعطي روسيا الحق في إرسال قواتها إلى إيران في ظروف معينة ، وهذه حقيقة كان البريطانيون واعين لها تماماً ، إذ تم الاستشهاد بالبند الذي له صلة بهذا الغرض عندما قام الروس والبريطانيون بالاشتراك في احتلال إيران عام ١٩٤١ . كما أن بريطانيا ما بعد الحرب لم تكن في وضع عسكري أو سياسي يسمح لها بتحدي روسيا بمفردها في إيران . على حين كان هذا الاحتمال قائماً بالنسبة للأمريكيين الذين أصبحوا أكثر استعداداً للدخول في المخاطرة ، خاصة بعد موت ستالين في مارس ١٩٥٣ ، وبعد أن أصبح ورثته حبيسي صراع خفي لا حدَّ له ، من أجل السلطة .

ونجح روزفلت في أن يقنع نفسه ، كما نجح في أن يقنع دالاس وبعض الأعضاء المسؤولين في الحكومة الأمريكية ، أنه حينما ستصل الأمور إلى حد المواجهة الصريحة بين الشاه ومصدق «فإن الجيش الإيراني والشعب سيقفون إلى جانب الشاه» ، ولذا بدأ روزفلت في الإعداد لهذه المواجهة ، وعلى الرغم من الهفوات التي كادت أن تؤدي إلى كارثة ، مما اضطر الشاه والأمبراطورة إلى البحث عن ملجأ مؤقت لهما في روما ، نجح الانقلاب المضاد . وعين الجنرال «زاهدي» رئيساً للوزراء مكان الدكتور «مصدق» .

وفي ٤ سبتمبر قدم «روزفلت» تقريراً بنفسه عن عملية آجاكس في البيت الأبيض استمعت له مجموعة تضم الرئيسين «ايزنهاور» و «جون فوستر دالاس» . ويقرر في كتابه أنه أنهى تقريره بملاحظة تحذيرية . فيقول : «ان نجاح العملية

يرجع إلى أن تحليلات الوكالة المركزية للمخابرات كانت صحيحة ، فقد توصلت الوكالة إلى نتيجة ، وهي أن الشعب والجيش الإيراني ، إذا ما تبيَّنوا أنه ينبغي عليهم الاختيار ، وكان مصدق هو الذي فرض عليهم هذا الاختيار ، بين ملكهم وبين شخصية ثورية يؤيدها الاتحاد السوفيتي ، فإنهم قادرون ، على اختيار واحد فقط ، يرغبونه ولا شك . ولذا إذا ما فكر الجهاز المركزي للمخابرات أن يقوم بمثل هذه العملية مرة أخرى ، فيجب عليه أن يكون على يقين مماثل بأن جيش وشعب البلد المعنية ، يريدان نفس الأشياء تماماً مثل الجهاز المركزي للمخابرات . . . »
ثم ختم روزفلت تقريره قائلاً : «أما إذا كان الوضع مختلفاً ، فليعهد بالأمر إذن إلى مشاة البحرية» ..

* * *

الفصل الخامس

طهران - مدينة مفتوحة

بحلول ٢٢ أغسطس عام ١٩٥٢ ، كان الانقلاب المضاد قد انتهى . ورجع الشاه إلى قصره واعتقل بعض مؤيدي مصدق ، واختبأ البعض الآخر . واستطاع مصدق نفسه أن يختفي في منزل أحد أصدقائه مدة يومين ، لكنه عندما سمع الأمر بالقبض عليه من خلال الإذاعة ، قرر الذهاب إلى قسم البوليس وتسليم نفسه .

كانت طهران في الحقيقة تعطي انطباع المدينة المهزومة ، فقوات الجيش والبوليس الموالية للشاه ، كانت تعقد محاكمات فورية لأي شخص يشك في أنه من مؤيدي مصدق . وقتل مئات من الطلبة واليساريين رمياً بالرصاص في الحال . أما حسين فاطمي ، وزير خارجية مصدق والمحرر السابق لإحدى صحف طهران الرئيسية (باختار امروز) ، التي أصبحت الناطقة بلسان الشباب ذي الاتجاه الوطني ، هذا المفكر المثالي الذي كان بالغ العداوة للشيوعية وللغرب بنفس الدرجة ، فقد قتل بالرصاص في الشارع .

كانت السلطة الحقيقية في طهران في تلك الأيام مركزة في يد السفارة الأمريكية وليس في قصر «نيافاران» . فقد كانت وكالة المخابرات الأمريكية هي التي أعدت للانقلاب المضاد ، ولذلك فهي التي تشرف على نتائجه الآن . وعاد «لوي هندرسون» السفير الأمريكي إلى سفارته في طهران بعد انسحابه لأسباب تكتيكية إلى سويسرا لفترة قصيرة . و «لوي هندرسون» صديق حميم «لكيرميت روزفلت» ، وأحد الذين حضروا الاجتماع الحاسم الذي عقدته وزارة الخارجية

---

* بعد فترة ، وكما ذكر ابنه لي ، وضع في زنزانة ، تصل المياه فيها إلى وسطه ، مما أدى إلى إصابته بروماتيزم حاد ، نتج عنه شلل كامل . وظل في السجن لمدة خمس سنوات ، قبل أن يطلق سراحه ، ثم مات بعد ذلك بفترة قصيرة .

الأمريكية في ٢٥ يونيو ، وقد وافق على مضض على القيام بعملية آجاكس .
أما روزفلت نفسه فقد انتقل من البيت الصغير في «شمران» الذي كان مركزاً للقيادة أثناء القيام بالانقلاب ، إلى السفارة ، وانتقل معه كثير من معاونيه ـ من بينهم ريتشارد هلمز ـ الذين عملوا بقية حياتهم في وكالة المخابرات الأمريكية المركزية ، الذين شوش هذا النصر السريع السهل فكرتهم عن امكانياتها ولا شك .

وامتدَّ نطاق السيطرة الجديدة السريع ليشمل الأقاليم بعد العاصمة .

فقد قام الجيش والبوليس بإنزال عقوبات خاصة بالمدن التي أظهرت تأييداً واضحاً لمصدق والجبهة الوطنية ، أو تلك المدن التي أبدى رجال الدين فيها عـداء واضحاً في نقدهم للشاه . فكانت مدن «قم» و «شيراز» و «تبريز» و «أصفهان» (مسقط رأس حسين فاطمي) مسرحاً لعمليات تفتيش واعتقال على نطاق واسع .

وفي طهران أزيل بيت مصدق بالجرّافات حتى لا يتحول إلى رمز وقبلة للمعارضة .

ومثلما تم الأخذ بالثأر من أعداء الشاه ، كوفئ أعوانه ، فكل رجال السياسة الذين اختفوا عن الأضواء أثناء حكم مصدق ، والأثرياء الذين صودرت ممتلكاتهم أو الذين أضيرت أعمالهم التجارية نتيجة لسياسة التأميم التي اتبعها مصدق ، والضباط الذين وقفوا مع الشاه ؛ كل هؤلاء ، الذين فرَّ منهم عدد كبير خارج البلاد ، كانوا يتوقعون أن يتلقوا التعويضات عما لحق بهم من أضرار . ورغم أن الخزانة الإيرانية كانت خاوية ، إلاَّ أنهم قد حصلوا على ما يريدون ، فقد سارعت الحكومة الأمريكية بمنح إيران قرضاً مقداره ٤٥ مليون دولار ، كما أبدت شركات البترول الأمريكية استعدادها لتقديم قروض سخيّة ، مقابل الأرباح التي ستجنيها فيما بعد . ولأن إلغاء تأميم البترول كان بطبيعة الحال من أهم البنود في جدول أعمال الحكومة الجديدة ، فقد استغرقت عملية تشكيل الاتحاد المالي الجديد الذي سيدير شؤون البترول في إيران ، ما يزيد عن العام . وعندما ظهر هذا التنظيم حاز القبول الكامل من شركات البترول الأمريكية حيث أصبح نصيبها الآن ٤٠ ٪ مما كان يحتكره البريطانيون لأنفسهم قبل التأميم .

كان من بين هؤلاء الخلصاء الذين كوفئوا ، الكولونيل «نعمت الله ناصري» ،

الذي سلَّم مصدق رسالة إقالته ، ورقي إلى رتبة جنرال وأصبح مسؤولاً عن السافاك .

والجنرال «فضل الله زاهدي» الذي قاد الانقلاب المضاد في طهران وأصبح أول رئيس وزراء بعد نجاح الانقلاب ، وابنه «أردشير» الذي كان يعمل ضابط اتصال مع «كيرميت روزفلت» ، وأهديت إليه ابنة الشاه ، شاهيناز ، كعروس له وفي النهاية عيِّن سفيراً في لندن وواشنطن ، والكابتن «خاتمي» قائد الطائرة التي أقلَّت الشاه إلى بغداد وروما ، عيِّن قائد للقوات الجوية ، وقد تزوَّج أخت الشاه بعد طلاقها من زوجها الأول الأمريكي ، أما «جعفر شريف إمامي» الذي كان نائباً لرئيس المجلس ، وساهم في إقناع عدد كبير من النواب بالهرب من البلاد ، الأمر الذي مهَّد الطريق لانهيار «دستوري» ، فقد عيِّن رئيساً لمؤسسة بهلوي وأصبح فيما بعد رئيساً للوزراء . وقد حقق «كيرميت روزفلت» هو الآخر المكاسب ، عندما عين مستشاراً لعدد من شركات البترول .

* * *

ولكن كيف تأتَّى للحكومة الجديدة أن تدعم نفسها ؟ فعلى الرغم من الهتافات المؤيدة للجماعات التي دفعت بها وكالة المخابرات الأمريكية إلى شوارع طهران . فإنه من الحماقة أن نتصور أن الشاه قضى بشكل حقيقي على مشاعر الحب التي يكنها الشعب الإيراني لمصدق . ولذلك كان لا بد من اتخاذ خطوات أخرى .

كان من ضمن الوثائق التي وجدت بعد الثورة في أرشيف قصر المرمر ، مذكرة ذات دلالة كبيرة ترسم خيوطاً للسياسة التي يجب على الشاه أن يحاول اتباعها ، كتبت المذكرة بالانجليزية وكانت غفلاً من التوقيع ، ومن المحتمل أن تكون من وضع مجموعة تمَّ إعدادها لهذا الغرض بواسطة السفارة أو وكالة المخابرات . اشتملت المذكرة على سبع توصيات أساسية هي : —

١ — ينبغي القيام بحملة مركزة لتقديم الشاه بمثابة الأب للعائلة الإيرانية كلها (فرمانده) كما يقول التعبير القديم مقتدين في ذلك بأفضل التقاليد الإيرانية الراسخة .

٢ — ينبغي استخدام كل أساليب الدعاية الممكنة لتدعيم مكانة العرش وسمعة الشاه شخصياً ، وقد ذكر بهذا الخصوص أنه يوجد في إيران مجموعة

جاهزة تقريباً لتأييد الشاه يمكنه أن يخطب ودها ، وهي النساء . فنصف سكان إيران تقريباً من النساء . وإذا كانت المفاهيم القديمة تتحكم في الرجال فإن النساء أكثر تأثُّراً بالمفاهيم الجديدة . لذا فإن العمل على تحرير النساء سيعطي الشاه قاعدة في كل منزل .

٣ ـ ينبغي على الشاه وحكومته الجديدة أن يبذلوا قصارى جهودهم لأن يزيدوا من حجم الطبقة المتوسطة ويدعموها . فعلى الرغم من قلة قاعدة هذه الطبقة إلا انها كانت تمثل أكثر أشكال المعارضة الفعالة لمصدق . فالطبقة المتوسطة بحكم غرائزها ومصالحها تخشى المغامرة . وتتبنى رؤية علمانية ، لذا يمكن أن تصبح هذه القاعدة الطبيعية للنظام .

٤ ـ ينبغي أن تظهر وجوه سياسية جديدة . فالساسة القدامى أمثال أحمد قوام السلطنة والسيد ضياء الدين الطباطبائي ، فقد نالت الشيخوخة منهم ، وأصبحوا غير قادرين على مواجهة المستقبل .

٥ ـ من المستحسن جداً أن يلعب الشاه دوراً بارزاً في الشؤون الدولية ، على مستوى الشرق الأوسط ، والمستوى العالمي الواسع إذ أنه قد ثبت أن كثيراً من رؤساء الدول الصغرى ، استفادوا كثيراً من الصورة التي خلقوها لأنفسهم في الخارج .

٦ ـ ينبغي أن يهتم الشاه اهتماماً بالغاً بالشؤون الدينية ، فيعمل جاهداً على انتزاع القيادة الدينية للبلاد من آيات الله في « قم » . فيجب عليه ، على سبيل المثال ، أن يصر على الذهاب للصلاة كل أسبوع في مسجد مختلف .

٧ ـ ينبغي وضع دراسة واعية لتنظيم المخابرات والسيطرة عليها ، ويراعى الاهتمام بشكل خاص بمطالب القوات الجوية ، لأنها إذا احتفظت بولائها فستكون بحكم مقدرتها على الحركة ، في موقف يسمح لها بالقضاء على أي تهديد من قبل وحدات الجيش ، هذا بالإضافة إلى أنها تتكون من أعداد قليلة من الضباط والأفراد ، يتمتعون بإمكانية قتال مركزة ويسهل إحكام القبضة عليهم أكثر مما هو الحال مع الجيش .

* * *

هذه التوصية الأخيرة كانت مسؤولة إلى حد كبير عن الطريقة التي دعَّم بها الشاه من سيطرته على جوانب الحياة القومية ، كما أنها كانت في النهاية المسؤولة أيضاً عن سقوطه . ولهذا ، تمَّ إنشاء ما يعرف بالسافاك ، البوليس السري ، في تلك الأيام الأولى ، ليكون بشكل أو بآخر فرعاً من الوكالة المركزية للمخابرات وتحت قيادة الشاه مباشرة . كما أنشئت منظمات أخرى موازية للمخابرات منها المكتب الثاني في الجيش الذي كان يتجسس على الجيش ولحساب الجيش والشرطة السياسية ، التابعة لوزارة الداخلية ، وبوليس الأقاليم التابع للكولونيل شوازركوف (وأصبح جنرالاً الآن) الذي مارس نشاطة في الأقاليم ، وخاصة بين القبائل .

كل أوجه النشاط هذه الخاصة بالمخابرات ، أوصى بها وأشرف عليها الأمريكيون ، وحتى يتم التأكد من أن القوات المسلحة يمكنها الاعتماد على كادر من الضباط المخلصين المدربين تدريباً موحداً ، تم إرسال كل الضباط من رتبة كولونيل فصاعداً تقريباً لقضاء فترة تدريب في الولايات المتحدة تتراوح بين سنتين أو ثلاث . وخلال فترة حكم الشاه التي دامت أكثر من ٢٥ عاماً ، أرسل ما لا يقل عن ١٥ ألف ضابط لتلقي تدريبهم في أمريكا خلال هذه الفترة من الارتباط الطويل ، هذا بخلاف عدة آلاف من صغار الضباط وضباط الصف الذين قضوا فترات أقصر .

كل أجهزة المخابرات هذه كانت تصب معلوماتها في مكتب الشاه الشخصي الذي كان يترأسه عادة جنرال ، وقد تم عزل أسلحة الجيش الواحدة عن الأخرى من جهة وعن السافاك وأجهزة المخابرات الأخرى من جهة أخرى . ولم يكن هناك من شيء إلا وتقدم عنه التقارير ، مثل رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة ، وقواد المشاة والمدفعية والمدرعات والبحرية وغيرهم ، هذه التقارير التي كانت تقدم إلى الشاه منفصلة ، لقد كان الشاه مصمماً على ألا تعطى هذه الأجهزة فرصة التنسيق لأن التنسيق قد يؤدي إلى النقد ، الذي يؤدي بدوره إلى التمرد ، وما حدث في واقع الأمر ، بطبيعة الحال ، أنه حينما بدأت تنتشر بوادر الثورة فيما بعد ، وأخذ موقف القادة يتذبذب ، لم يستطع قواد الجيش أن ينسِّقوا استجابتهم للموقف

لأنه لم يكن لديهم الوسيلة التي تمكنهم من ذلك .

ولا بد أن الشاه قد قرأ المذكرة آنفة الذكر ودرسها بعناية فائقة ، لأنه من الواضح أنه اتبع التوصيات التي قدمتها ، بل ويبدو أنه بدأ يؤمن بها أكثر من اللازم ويصدق الدعاية التي يقوم بها ، ولذا فبدلاً من أن يقتنع بقبول فكرة الظهور بمظهر الوالد للعائلة الإيرانية الكبيرة ، وصل به الأمر إلى أنه كان يتصور أن الشعب يعتبره فعلاً والداً له (أي فرمانده) ورغم أن موارده لم تكن تسمح بخلق طبقة وسطى جديدة ، إلا أنه نجح في خلق طبقة طفيلية جديدة من التجار والوسطاء الذين حصلوا على العقود والعمولات . وقد ضمت هذه الطبقة ممثلين لبعض الأسر الكبيرة في طهران ، وبعض العناصر البرجوازية التي كان من المفروض أن يمنحها الشاه تشجيعه . كما أعطى توزيع المزايا النور الأخضر للأسرة المالكة أن تأخذ نصيبها . علاوة على ذلك ، عهد للأميرة أشرف ، أخت الشاه التوأم ، بعملية اكتساب المجموعة الجديدة من الأنصار إلى صف الشاه ، ألا وهي النساء .

وربما لم تكن عملية خلق طبقة اجتماعية جديدة أمراً سهلاً بالنسبة للشاه لكنه استطاع خلق سياسيين جدد . فقد اختفى رجال الجيل القديم ، وشغلت مناصبهم برجال جدد ، تمت ترقيتهم . وعلى سبيل المثال «أمير عباس هوڤيدا» ، الذي خدم الشاه كرئيس للوزراء مدة أطول من أي فرد آخر ، والذي رفض في النهاية أن ينقذ عنقه بالهرب . بدأ حياته كموظف في هيئة الأمم ، ثم أصبح دبلوماسياً ، ثم رئيساً لوفد بلاده في هيئة الأمم ، في نيويورك ، ثم استدعي بعد ذلك إلى طهران ليعمل كوزير ثم رئيس للوزراء . وهو رجل لم يكن من عائلة قوية أو ينتمي إلى جذور أخرى ، لكن كان كله إخلاص وولاء للشاه ، كما كان هناك رئيسان آخران للوزراء من صنع الشاه كلية . أولهما هو «شانج انصاري» الذي كان يعمل صحفياً ومراسلاً لوكالة الأنباء الإيرانية في طوكيو . وقد ترك انطباعاً إيجابياً على الشاه خلال زيارته الرسمية لليابان عام ١٩٦٨ ، وهكذا تم استدعاؤه وعين وزيراً للاعلام والمالية فيما بعد ، أما ثانيهما «جامشيد أموزيجار» ، وهو من أفضل أولئك الساسة الذين وصلوا إلى القمة ، فقد بدأ حياته مهندساً .

كان كل هؤلاء الرجال في واقع الأمر ألاعيب في يد الشاه ، ومن المحظور

عليهم بحكم خلفيتهم توجيه أي نقد حاد للأساليب السياسية للشاه حتى ولو لم تحظَ بموافقتهم . وانطلاقاً من مبدأ تشجيع جماعات الأفراد التي تدين للشاه بكل شيء رأى الشاه أن يعيِّن البهائيين (وهم أفراد أقلية دينية وقع عليها كثير من الاضطهاد) في كل وسائل الاتصالات العسكرية ، مثل الرادار واللاسلكي وغيرها . وكانت إحدى نتائج هذه الخطوة عندما قامت الثورة الإسلامية وبرزت شكوك تجاه البهائية أن تعطلت وسائل الاتصال في الجيش .

* * *

ومن الوسائل الأخرى التي اتبعت لتدعيم نظام الشاه ، السيطرة على الصحافة والإذاعة ، فعندما زرت إيران كان يأتيني كبار الصحفيين وهم على وشك البكاء وهم يحتجون ، كيف أنهم كانوا مرغمين على نشر صورة الشاه ، كجزء من أسطورة «الفرمانده» على صدر الصفحات الأولى كل يوم . وكانوا يروون كيف أن عبادة الشخصية الملكية أخذت أشكالاً متطرفة ، فعلى سبيل المثال ، عندما توفي الرئيس عبد الناصر ، لم يكن من الغريب أن يكون هذا الخبر ، هو الخبر الأول في الصفحة الأولى في الجريدة اليومية بطهران «كايهان» لكن الرقباء أمروا بإيقاف الطبع ، وتعديل الصفحة الأولى ، بحيث يكون فيها خبر عن الشاه في الصدارة ، ثم خبر وفاة عبد الناصر في المرتبة التالية . وقد تسببت هذه الرقابة الصارمة في سخافات أخرى عديدة ؛ فمثلاً حرم استخدام الحبر الأحمر ، لأنه لون الشيوعية والثورة ، ومنع عرض أو نشر مسرحيات فيها إشارة لاغتيال الملوك ، حتى لو كانت هاملت . «مسرحية شكسبير الرائعة» .

وقد تلاءم الشاه مع متطلبات دعايته بشيء من التردد في البداية ثم بثقة متزايدة على مرِّ السنين . ولطبيعة شخصية الشاه الضعيفة فقد عوّض ذلك عن طريق التصرف بعجرفة متزايدة . فكان يشرح لمستمعيه ما سماه بالضعف المتأصل في المجتمعات الشرقية ، وكم هي بحاجة لأن تحكم بيد حديدية . كان يقول : الشعب جاهل وهو قادر على فعل الخير إذا ما وجهته الدولة نحو هذه الغاية ، ومن وجهة نظره كان هو الدولة ، لقد كان يعتقد حقاً أنه صاحب رسالة ، وهي أن يجلب الحضارة إلى شعب إيران .

وبطريقة أو بأخرى تم تفريق كل المقاومة ضد الشاه تقريباً ، فلقي كثير من المثقفين مصرعهم أو ألقي بهم في السجن بعد الانقلاب المضاد مباشرة . كما طلب الكثير السماح لهم بمغادرة البلاد ، وتبعهم الطلبة الذين لم يتمكنوا من مواجهة احتمال الحياة تحت حكم الشاه الديكتاتوري ، وخلال السنتين أو الثلاث الأول بعد الانقلاب ترك البلاد حوالى ٥٠ ألف شاب ـ بطريقة شرعية أو غير شرعية ـ إلى الكويت والعراق في بداية الأمر ، على أن يبحثوا عن ملجأ دائم وبعيد ، في أوروبا أو أمريكا . ومع بداية الثورة الإسلامية ، كان يوجد ١٥٠ ألف إيراني بالخارج ، بينهم ٣٥ ألف في الولايات المتحدة ، نصفهم من الطلبة والنصف الآخر اختار المنفى طواعية .

أما أولئك الذين مكثوا في إيران فقد واجهتهم قرارات صعبة . وحاولوا أن يحللوا الأسباب التي أدَّت إلى هذا الوضع . لماذا فشل مصدق ؟ وكما رأى كثير منهم فإن فشله يرجع إلى اعتماده على الجهاز الحكومي القائم ، وعلى ما يسمى بالعملية الديمقراطية . فهو في النهاية كان قد انتخب وبطريقة شرعية رئيساً للوزراء عن طريق المجلس . وكان يحظى بتأييد غالبية الشعب وكذلك النواب . لكن ذلك لم ينقذه (كما لم يفلح في إنقاذ الليندي فيما بعد في شيلي) . وهكذا قررت المعارضة السرية أن الإرهاب هو السلاح الوحيد المتاح لمن ينشدون التغيير ، وبدأت الجمعيات السرية في الانتشار ، وأصبحت جماعتان منها على جانب كبير من الأهمية ، الأولى ، جماعة «مجاهدي خلق» التي أسست في أواخر الخمسينات وتشكلت من بعض عناصر الجبهة القومية التي تمَّ حلّها وحظر نشاطها . وكانت ذات ملامح إسلامية ، لكنها تبنَّت العديد من الأفكار التقدمية الشائعة في العالم الثالث ، أما الأخرى فهي جماعة «فدائيين خلق» الماركسية الاتجاه بشكل واضح ، ولذلك كانت تعد الوريث لحزب تودة الذي تأثرت مصداقيته وشعبيته والذي كان قد تلاشى تقريباً في ذلك الوقت . وقد تبنت المنظمتان الإرهاب كسلاح وتمكنتا من البقاء على الرغم من أنه لم يكن لهما في البداية أثر واضح ، لأن السافاك اخترقت صفوفهما وجعلتهما في وضع لا جدوى منه . ثم أصبحت فدائيين خلـق أكثر كفاءة بعد أن أقامت اتصالاً بمنظمة جورج حبش ، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وأرسلت

بعض أعضائها للتدريب مع الجبهة في لبنان .

ونجح ثلاثة أعضاء أساسيين في المعارضة في الذهاب إلى مصر ، وهم إبراهيم يزدي ، وصادق قطب زادة ، ومصطفى شمران ، وقد تقلّدوا فيما بعد مناصب قيادية في الحكومة الثورية الجديدة . بعد وصولهم إلى القاهرة في منتصف الخمسينات اتصلوا بأجهزة المخابرات المسؤولة عن رعاية اللاجئين السياسيين . وأبدوا لهم رغبتهم في التدريب على السلاح ، لأنهم قرروا أن حرب العصابات هي السبيل الوحيد الآن أمام المعارضين للشاه ، وتم إرسالهم إلى معسكر انشاص خارج القاهرة (وهي ضيعة سابقة للملك فاروق) وكانت حينذاك المكان الذي يتلقى فيه أعضاء جبهات التحرير المختلفة تدريباتهم . وهناك التقوا بالفلسطينيين والأرتريين وجماعات أخرى من أفريقيا . ولكن بعد قليل دب النزاع بينهم وبين مضيفيهم ، لأن القسم المختص في المخابرات المصرية كان يريد من اللاجئين الإيرانيين أن ينضموا للعمل في الإذاعات الموجهة من القاهرة للهجوم على الشاه ، لكنهم رفضوا ، مصرّين على أنهم قد حضروا إلى القاهرة للتدريب على فنون القتال فحسب . وان الكلمات لن تفلح في الإطاحة بحكم الشاه . ولم يفلح أحد في إقناعهم بأن احتمالات المقاومة المسلحة في إيران كانت في حكم المستحيل . وأن الدعاية عن طريق الإذاعة سلاح قوي للغاية في ترسانتهم ، إلى أن تحين اللحظة المؤاتية . لكن النزاع استمر وقرروا مغادرة مصر ، (وكان عددهم قد زاد إلى خمسين) ذهب بعضهم إلى الولايات المتحدة ، والبعض الآخر إلى لبنان لمزيد من التدريب .

لقد كانوا يتمتعون في مصر بالأمان المعقول من رقابة السافاك . رغم أن بوليس الشاه ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية (الموساد) كانوا يعملون في المنطقة بأقصى طاقاتهم .

* * *

وفي ذلك الوقت بدأ التعاون بين السافاك والموساد . وكذلك بينهما وبين وكالة المخابرات المركزية . وأصبح ذلك التعاون سمة من سمات نشاط المخابرات في منطقة الشرق الأوسط ، وشهد عام ١٩٥٥ ، بالإضافة إلى توقيع حلف بغداد ، الغارة الإسرائيلية على غزة وصفقة الأسلحة التشيكية لمصر ، وبدأ التوتر يتصاعد

في المنطقة . ورأت إسرائيل ، شأنها في ذلك شأن الغرب وخاصة أمريكا ، أنه من الأهمية بمكان الإبقاء على إيران محصنة من عدوى تيار القومية العربية المتصاعد باعتبارها حلقة الاتصال الحيوية التي تربط العالم العربي بشبه القارة الهندية .

وقد بدأ رئيس الوزراء الإسرائيلي «دافيد بن جوريون» يطرح أول مبادرة على الشاه من خلال المساعي الحميدة للوكالة المركزية للمخابرات ، عن طريق مدير مخابراته (الموساد) مائير اميت . ولم يكن الشاه في حاجة لكثير من الإقناع لأنه كان يعرف المزايا التي ستجنيها البلدان من هذا التعاون ، ليس في مجال المخابرات فقط وإنما في مجالات أخرى ، فهنا يوجد بلدان غير عربيان ، واحدة تقع على الخليج والأخرى على البحر المتوسط ، يفصلهما بحر من القومية العربية ، تلك القوة الأساسية ، التي جعلت كلا منهما لديه من الأسباب ليخشاها ، وتركت الإنجازات الإسرائيلية انطباعاً إيجابياً على الشاه الذي كان يرى أن الإسرائيليين قد أثبتوا أنهم على مستوى عال من الكفاءة . ملمين بآخر التطورات التكنولوجية فكان على استعداد للتعلم منهم خاصة فيما يتعلق بالأمن . لذا انتقى بعض الضباط الأساسيين ، بما في ذلك بعض أفراد الحرس الملكي ، وأرسلهم للتدريب في إسرائيل * .

وقد اتخذت النصائح الأمريكية للشاه عدة أشكال مختلفة ، فعلى حين كانت وكالة المخابرات المركزية تمد إيران بالمساعدة في مجال المخابرات . كان الصوت الصادر من البيت الأبيض ينصح بالحذر . وعندما أصبح جون كينيدي رئيساً للولايات المتحدة عام ١٩٦٠ ، ووجه انتباهه إلى إيران . طالب الشاه أن يفرض شيئاً من النظام على شؤون بلاده . ويضع حداً للفساد الذي اشتهرت به أسرته وحاشيته بشكل فاضح ، وأن يعي بأن أمن البلاد لا يضمنه السلاح وحده . وقد أخبرني الشاه

* أوضح كيرميت روزفلت في كتابه الانقلاب المضاد (ص ٩) أنه كانت هناك علاقات ممتازة وإن كانت غير رسمية بين إيران وإسرائيل منذ عام ١٩٥٣ وأضاف قائلاً «وقد ازدادت هذه العلاقات توثقاً في الأعوام التالية . عندما انضم بعض الأصدقاء الإسرائيليين بشكل سري إلى جهاز المخابرات المركزية للمساعدة في تنظيم وترشيد جهاز الأمن الإيراني الجديد . وتمت هذه الخطوة الإسرائيلية كلية فيما يسمى «تحت المائدة» أي عملية سرية بالضرورة لكنها كانت بمثابة عون كبير للإيرانيين» .

فيما بعد بأنه كان يعتبر رسالة كينيدي بمثابة انقلاب أمريكي موجَّه ضده . لكنه استوعب النصيحة إلى حد أنه عيَّن الدكتور علي أميني ، الذي كان وزيراً للمالية في حكومة مصدق ، ويكن له الشاه كرهاً شخصياً ، رئيساً للوزراء لعلمه أنه يلقى موافقة الأمريكيين .

* * *

في هذه الفترة بدأت تظهر مجموعة العناصر المسيطرة على مسرح الأحداث في الشرق الأوسط في السبعينيات ـ ألا وهي التحالف بين البترول والسلاح والمخابرات وكانت كميات هائلة من الأموال تتدفق على الدول المنتجة للبترول ، والتي كانت حكوماتها وشركاتها على استعداد للإنفاق بسخاء لحماية استثماراتها ، والحماية الفعالة تعتمد على جهاز مخابرات جيد ، بنفس القدر الذي تعتمد فيه على أحدث الأسلحة . وطالما توجد الرغبة في دفع مبالغ طائلة لأي فرد يتبين أنه قادر على الامداد بها ، فإن قوة الإنسان كانت غلابة . وتضاعفت في هذه الفترة النشرات الخاصة التي تدَّعي أنها تعطي معلومات سياسية واقتصادية مستقاة من الداخل من خلال المكاتب الاستشارية التي فتحها العديد من رجال المخابرات الأمريكية الذين كانوا يعملون مع كيرميت روزفلت في إيران . والتي كانت جاهزة ومرحبة بتزويد الحكومات المحلية والشركات التجارية بالمعلومات ، وبالفعل وجدت العديد من الزبائن وكثيراً ما قدمت هذه المكاتب معلومات ذات فائدة . ولكنها كثيراً ما قدمت أيضاً معلومات هي في واقع الأمر من قبيل الفضائح التي تسمع في الأسواق ، أوردها أو اخترعها صحفيون من الدرجة الثالثة .

في نفس الوقت كانت القوة المعارضة للشاه تهجر العاصمة وتتجه جنوباً إلى مكان يقع على بعد مائة ميل ، إلى مدينة « قم » .

* * *

الفصل السادس

الثورة تنسحب إلى مدينة " قم "

لماذا مدينة قم ؟ . هناك ، كما هو معروف ، ثلاث مدن مقدسة لكافة المسلمين ، مكة ، التي يوجد فيها بيت الله الحرام ، وهي المكان الذي يحج إليه المسلمون ، والمدينة المنوَّرة التي هاجر إليها النبي قادماً من مكة ، وتوفي فيها ودفن ، والقدس ، التي توجه إليها المسلمون في صلواتهم في الأيام الأولى للإسلام ، وهي أيضاً المكان الذي شهد معجزة الإسراء بمحمد عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى . بجانب هذه المدن الثلاث يضيف الشيعة أربع مدن أخرى ـ النجف ، وهي المدينة التي دفن فيها الإمام علي ، وكربلاء ، التي شهدت مذبحة الحسين ابن الإمام علي وأتباعه ، ومشهد ، التي دفن فيها الإمام جعفر الرضا ، و «قُم» التي دفنت فيها فاطمة المعصومة ، أخت الإمام الرضا .

تقع مدينة قم على أحد طرق القوافل الرئيسية التي كانت تمتد عبر إيران ، وفي عام ٨١٦ م بينما كانت فاطمة في طريقها إلى زيارة أخيها ، ألمَّ بها المرض عند مدينة «سافا» ، التي تقع على بعد خمسين ميلاً شمال غرب مدينة قم ، فحملت إلى هناك حيث ماتت . وجاء في القصص الأسطورية التي تروى ، أنه بينما كانت «فاطمة» ترقد وحيدة على فراش الموت تصلي في عزلتها لله ، طالبة منه أن يريحها من عذابها طافت حولها روح النبي عليه الصلاة والسلام ، وكذلك روح ابنته فاطمة وزوجها علي وابنهما الشهيد الحسين . وقد خلعت أرواحهم القداسة على المكان الذي ترقد فيه .

* * *

وعندما اتخذ الملوك الصفويون المذهب الشيعي ديناً رسمياً للدولة الفارسية في بداية القرن السادس عشر الميلادي ، ازدادت أهمية مدينتي «مشهد» و «قم»

المقدستين اللتين تقعان داخل حدود الأمبراطورية . وقد أحاط الشاه عباس قبر فاطمة في مدينة «قم» بآيات من المعمار ، يعتبر من روائع الفن الفارسي ، كما أصبحت المدينة مركزاً للدراسات الدينية ، وملتقى لكل علماء الدين يفِدون إليه ، ومثوى للأتقياء يختارون أن يدفنوا فيها . وتبدو ضواحي المدينة هذه الأيام بمرائبها وورشها ومطاعمها مثل أي مدينة أخرى . لكن حينما يعبر المرء الجسر الذي يقع فوق مجرى نهر جاف ويدخل المدينة القديمة لا يملك إلا أن يشعر بالهالة الدينية التي تحيط بالمكان .

لقد أصبحت مدينة «قم» في الواقع عاصمة دينية لإيران . وفي البداية كانت اصفهان هي العاصمة السياسية ، ثم تبعتها طهران بعد ذلك . لكن الملوك ورجال الدين وجدوا أنه من الأفضل لكليهما أن يبقوا على هذه المسافة بينهما فالملوك فضلوا ألا يراقب كبار رجال الدين أسلوب حياتهم عن كثب ، إذ من المحتمل أن يدينوا نمط الحياة التي يعيشونها ، على حين أن رجال الدين فضلوا أن يحافظوا على استقلالهم المكاني والفعلي ، ولذا كلما كانت السلطات تصدهم في أي مكان فإنهم كانوا ينسحبون إلى قم ليلعقوا جراحهم .

* * *

وحتى يمكن فهم السمات المميزة للمذهب الشيعي ، لا بد لنا أن نرجع إلى أيام الإسلام الأولى ، وإلى الحرب الأهلية التي نشبت بين المسلمين بعد جيل واحد من وفاة النبي .

فالنبي محمد كان حامل رسالة إلهية ومجاهداً في سبيلها في نفس الوقت وبموته توقف الوحي ، وبقيت كلمة الله (القرآن) في الدنيا ، وفي التاريخ ، وكان التحدي الذي واجهه خلفاء رسول الله ، هو كيف يمكن التوفيق بين وجود الله الدائم والثابت في التاريخ (من خلال القرآن) من جهة وبين الحكم الدنيوي من جهة أخرى .

وقد فرض هذا التحدي نفسه عقب وفاة الرسول مباشرة .

لم يترك الرسول أي وصية ، ولم يعيِّن أي خليفة له ، كما لم ينجب ابناً فنشأت الحاجة الماسة إلى شخص يرشد ويحمي الجماعة الإسلامية الآخذة في التزايد .

لكن السؤال الذي طرح نفسه هو ، كيف سيتم اختيار هذا الشخص ، وعلى من سيقع الاختيار ؟

كان من الواضح تماماً وبشكل يقيني بالنسبة لفاطمة بنت الرسول التي عاشت بعد وفاته أن الرجل الذي يجب اختياره هو زوجها علي بن أبي طالب ، فهو لم يكن زوج ابنة الرسول وحسب ، لكنه كان أيضاً ابن عمه ويكاد يكون ابنه بالتبني ، وباستثناء خديجة زوجة الرسول الأولى ، كان عليٌّ أول من اعتنق الإسلام . وقد اعتنق هذه العقيدة الجديدة في سن مبكرة وهو ما زال فتى صغيراً ، وهذا يعني أنه لم يركع قط للأوثان التي كانت منصوبة في معابد مكة الوثنية ، على عكس كل من اعتنقوا الإسلام . لقد كان علي هو من غطى هجرة محمد عندما هاجر من مكة إلى المدينة ، وكان هو أيضاً نائب الرسول وحامل راية الإسلام في فتوحات المسلمين الأولى ، كما جرح في معركة أحد ستة عشر جرحاً ، من ذا إذن عنده من المزايا التي تفوق مزايا علي ليتولى قيادة جماعة المسلمين ؟ ألم يكن لعلي ما يشبه الحق الثابت في خلافة الرسول ؟.

ولكن آخرين فكروا بطريقة مختلفة . فعقد اجتماع على عجل ضم مجموعة من أصحاب النبي المقربين إليه (ولم يكن علي موجوداً بينهم) واختاروا أبا بكر ، والد عائشة الزوجة المفضلة للنبي الذي وافته منيته وهو في بيتها ، ليكون خليفة رسول الله . وفي الحقيقة ، كان أبو بكر أكثر من مجرد والد زوجة للرسول . فقد كان أول الراشدين الذين آمنوا بالإسلام ، ولم يتذبذب إيمانه على الإطلاق ، وقد كرس أبو بكر حياته ونفسه للنبي تكريساً مطلقاً وكان هو الشخص الذي اختاره النبي ليصاحبه في هجرته من مكة إلى المدينة . وقد أجمع أصحاب النبي على أن أبا بكر رفيق رسول الله ، البسيط التقي ، ذا الولاء الذي لا يتحول ، سيحافظ على وحدة الجماعة الجديدة .

تلقى أبو بكر البيعة من جماعة المسلمين ، بما في ذلك بيعة علي فيما بعد واستمرت خلافته لمدة عامين ، قام خلالها بتوحيد صفوف المؤمنين ، الذين واجهوا أزمة الردة بينهم عندما توفي الرسول وكان هناك من يظنون أنه خالد لا يموت ، وقد كان الإنجاز الذي حققه أبو بكر أن بيّن للمؤمنين الذين تملّكهم الفزع ،

أنه ينبغي على الإنسان ألا يعبد إلا الله ، لأنه هو الحي الخالد ، أما محمد فهو من البشر رغم أنه رسول الله .

وبعد وفاة أبي بكر أفلت النجاح في المنافسة من علي مرة أخرى . فلقد تمت البيعة للرجل الذي أوصى به أبو بكر ، وهو عمر بن الخطاب ، السياسي والمحارب العظيم ، في أول جيل من المسلمين ، الذي قوّضت جيوشه قوة الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية اللتين قسمتا بلاد الشرق بينهما لعدة قرون . وعندما قتل عمر ابن الخطاب على يد عبد فارسي . اختار المجلس الذي عيَّنه وهو على فراش موته عثمان بن عفان . خليفة له . وقد أعطى عليٌّ البيعة لكل من عمر وعثمان على مضض ولم يحدث إلا بعد قتل عثمان هو الآخر أن أصبح علي الخليفة الرابع .

* * *

كانت تكمن وراء مشاكل الخلافة مجموعة معقدة من القوى القبلية والشخصية والاجتماعية والاقتصادية ، التي لا يزال صداها واضحاً في العالم الإسلامي حتى اليوم . فأهل مكة ، أول من تلقوا الرسالة السماوية بواسطة الرسول ، كانوا ينتمون إلى مجموعات قبلية مختلفة . وطبقات اجتماعية متباينة – التجار والعمال والعبيد . وكانت الطبقتان الأخيرتان ، بطبيعة الحال ، أول من تقبل وبلهفة شديدة رسالة العدل والنظام الاجتماعي الجديد التي أوحي بها لمحمد ، أما طبقة التجار فقد رفضوها باستثناء قلة صغيرة . أما علي ، فقد اعتبر واحداً من الفقراء والمضطهدين ، فأبوه كان من الفقراء لدرجة أنه اضطر إلى أن يتجه إلى أقاربه (بمن فيهم الرسول) يطلب منهم العون كي يربي أبناءه . وكان كبير التجار هو أبو سفيان ، من فرع بني أمية من قبيلة قريش (القبيلة التي كان ينتمي إليها كل سكان مكة ، بمن في ذلك الرسول) .

كانت مكة في القرن السابع الميلادي أكبر مركز تجاري في بلاد العرب . وكانت القبائل تنقل تجارتها كل عام إلى دمشق وما بعدها . ورغم أن الخليفة عثمان كان من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام إلا أنه كان ينتمي إلى فرع بني أمية مثل أبي سفيان . وقد تقبل أبو سفيان الإسلام في وقت متأخر وبعد أن أصبح من الواضح أن العقيدة الجديدة ستحرز النصر . كان عثمان نفسه تاجراً ثرياً ، وخلال خلافته التي دامت اثني عشر عاماً وصلت الثروة التي كانت تصب في كل من

مكة والمدينة أبعاداً كبيرة ، بسبب فتوحات جيوش عمر . وقد حاول عمر الذي كان يتسم بالبساطة والتقوى والحزم والعدالة في حكمه أن يضع حداً للفساد الذي نتج عن هذه الثروة بالضرورة . وقد روي عنه أنه قال وهو على فراش الموت «والله لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتها إلى الفقراء»`. أصحابها الحقيقيين .

لم يكن عثمان من نفس نوع عمر وربما كانت الظروف التي أعقبت الفتوحات الخارقة تفرض عليه إرضاء الجميع ، ولم يفرِّق بين ماله الخاص ومال بيت المال فأخذ يوزع الأموال والعطايا بسخاء ، وصعد بنو أمية بسرعة إلى أعلى المناصب القياديه في الأقاليم حيث بنوا لأنفسهم القصور الفاخرة ، المكتظة بمظاهر الترف الأمبراطوري بما في ذلك اقتناء العبيد والجواري .

ازدادت المعارضة لعثمان ، ولم تأت المعارضة من هؤلاء الذين شعروا بأنهم لم ينالوا المكافأة التي يستحقونها فحسب ، بل من أولئك الذين اعتقدوا أن النقاء الأصلي للإسلام يواجه تحدياً خطيراً ، وأن الانغماس في أمور الدنيا قد أخذ يخنق كلمات الحق . وانتشر السخط في الأقاليم ، خاصة في الكوفة والبصرة في العراق وفي مصر ، وفي أوائل عام ٦٥٦ م سارت الفرق العسكرية الثائرة إلى المدينة عاصمة الأمبراطورية الإسلامية في ذلك الوقت ، وحاصرت منزل الخليفة ، وبعد أربعين يوماً من الحصار اقتحمت المنزل واغتالت عثمان البالغ من العمر اثنين وثمانين عاماً وهو جالس يقرأ القرآن .

كان مقتل عثمان هو الشرارة التي فجَّرت الحرب الأهلية التي قسمت المسلمين في القرن السابع الميلادي ، وأحدث انقسامهم شرخاً لا تزال آثاره ظاهرة إلى الآن في التاريخ الإسلامي . كان علي موجوداً بالمدينة خلال وقوع هذه الأحداث العنيفة . ورغم تعاطفه مع المتمردين ، إلا أنه كان مرتبطاً بيمين البيعة والولاء لعثمان ، وحاول أن يلعب دور الوسيط لكن دون جدوى . وقد ذهب في ولائه إلى حد أنه أرسل ولديه للدفاع عن عثمان . وقد ضغط عليه المتمردون لكي يقبل الخلافة ، لكنه رفض أن يأخذها منهم وحدهم ، لكنه قبلها عندما سانده معظم أشراف مكة والمدينة وكان من بينهم من تبقى من أصحاب النبي . وبويع خليفة

في المدينة بعد مقتل عثمان بستة أيام .

ورفض البعض البيعة على أساس أن جماعة المسلمين الحقة لم تستشر . وكان من أهم الرافضين شأناً معاوية حاكم سوريا ، فعندما استولت جيوش المسلمين على دمشق العاصمة الاقليمية الثرية للروم ، خلال السنوات الأولى من خلافة عمر كان من الطبيعي أن يحصل بنو سفيان على حكمها . فهم بحكم كونهم تجاراً كانوا على صلة دائمة بالمدينة ومواطنيها ، ويملكون الخبرة والمهارة اللازمة لذلك . والآن وبعد أن انتقل الحكم إلى ابن أبي سفيان الثاني معاوية ، وهو رجل ذو مقدرة متميزة ، استطاع أن يحافظ على هدوء ولايته خلال الاضطرابات التي عمَّت الامبراطورية وبما أنه مثل عثمان ينتمي إلى فرع بني أمية ، لم يكن من الغريب بالنسبة له أن يطالب بالبحث عن قتلة الخليفة وضرورة معاقبتهم طبقاً لما جاء في القرآن . وذهب إلى أبعد من ذلك بأن اتهم علياً بأنه مسؤول مسؤولية مباشرة عن الأحداث الدامية التي وقعت في المدينة .

وقد تردد عليّ في اتخاذ أي إجراء ، إذ أنه كان يكره أن يشرع في أي إجراء ضد أتباعه وضد المسلمين الآخرين ، وحاول أن يستبدل معاوية وآخرين من بني أمية ممن عيَّنهم عثمان بولاةٍ من عنده . لكن ولاته لم يستطيعوا دخول دمشق . وبدأ الجانبان في حشد قواتهما والإعداد للصراع الدنيوي ، الذي بدأت تتضح حتميته .

دارت المعركة الفاصلة في «صفين» على نهر الفرات . التي لا تبعد كثيراً عن حلب . وواجه المسلم أخاه المسلم . لكن من أجل ماذا كانوا يحاربون ؟ من أجل العقيدة أو من أجل السلطة ؟ من أجل المبادئ أم من أجل الغنائم ؟ من أجل ثواب الله أم من أجل مغانم الجاه والنفوذ . كان تكوين الجيشين مختلفاً تمام الاختلاف . إذ كان جيش علي يضم الكثير من المحاربين المتزمتين الذين احتفظوا بالحماسة الصلبة لأيام الإسلام الأولى . شأنه في ذلك شأن كل الجيوش القائمة على النهج الفردي والمتطوعين . كان ينقصه النظام ولا شك . حيث كان لكل فرد فكرته الخاصة لما يجب فعله . أما جيش معاوية فقد كان على درجة أعلى من النظام . تحت قيادة قائد قدير يعرف تماماً ما يريده ، ومصمماً على الحصول عليه .

هكذا كانت المواجهة بين الإسلام الثوري ، وبين الجهاز المتطور للامبراطورية الإسلامية القوية ، ولا يمكن هنا أن يقال ان الصراع كان بين الخير والشر أو بين الحق والباطل . إذ أن الخير والحق لم يكونا حكراً على أي منهما . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الصدام بينهما مراً لهذه الدرجة ، ونتائجه بعيدة المدى إلى أكبر حد .

بعد ثلاثة أيام من القتال المتقطع . كان يبدو أن قوات عليّ بدأت في الظهور على قوات معاوية . رغم تفوق الأخيرة من ناحية التجهيزات العسكرية . ولذا لجأ معاوية إلى حيلة بارعة ، فطلب من رجاله أن يعلقوا صفحات من القرآن على رماحهم ويصيحوا « فلنحكم كلمة الله » ونجحت الخدعة واتفق علي ومعاوية على تعيين مندوبين ليحكما بينهما على أن يلتزما بشروط التحكيم . وخدع عليّ مرة أخرة في المرحلة الثانية . فلقد تم الاتفاق بين الحكمين على وجوب خلع كل من علي ومعاوية . وتعيين خليفة جديد . لكن بعد أن أعلن ممثل علي خلعه ، تراجع ممثل معاوية عن التزامه ، وأعلن أن معاوية هو الخليفة الحقيّ والآخذ بثأر عثمان .

* * *

وهكذا انشطر العالم الإسلامي نصفين : لكلٍّ خليفةٌ يدّعي لنفسه الشرعية وكان علي يسيطر على معظم الجزيرة العربية وبلاد فارس والعراق ، ومعاوية يسيطر على سوريا ومصر . وقد بعث هذا الانقسام وهذه الحلول الوسط ، الغضب في نفوس العناصر المتدينة المتطرفة ، التي أطلق عليها اسم (الخوارج) الذين رفضوا كلاً من الخليفتين المتنافسين . وأعلنوا أن ما يحدث لا علاقة له بأمور الدين ، . وإنما هو صراع تافه من أجل سلطة زائلة . « فالحكم لله وحده » كما كانوا يصرون . وسرعان ما شرعوا في وضع معتقداتهم موضع التنفيذ باغتيال أعدائهم . وقرر بعضهم أن كلا الخليفتين يستحق القتل . وفي يناير عام ٦٦١ م . اغتيل علي أثناء دخوله المسجد في عاصمته الكوفة إذ كان ما زال مصراً على عدم حراسته اقتداء بالرسول وأبي بكر ؛ أما معاوية الذي كان يحظى بالحماية التي تتواجد في بلاط ملكي محنك ، فقد أفلت من الاغتيال .

ترك علي ابنين ، الحسن والحسين ، اللذين كانا يمثلان في ذلك الوقت ،

كما كان أبوهما من قبل ، فكرة السلالة الحاكمة في الإسلام (أي أهل البيت) . وكما رأينا من قبل ، كان هناك من يؤمنون بعدالة مطلب علي في الخلافة بعد موت الرسول مباشرة . وقد اتضحت القسمات الأساسية لحزبه (شيعة علي) بعد موت علي نفسه . ولم يكن الموضوع مجرد الولاء لرجل أو لأسرته . إذ أنه منذ البداية ارتبط اسم عليّ بالفقراء في مكة والمدينة ، وقد استمر هذا التيار الثوري في الإسلام مما يؤكد المضمون الاجتماعي لرسالة محمد . وقد روى أبو ذر الغفاري ، وهو أحد فلاسفة الإسلام الأول ومن ضمن حزب علي عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال : «ثلاث للناس جميعاً ، النار والماء والكلأ» . وحينما يذكر أبو ذر الغفاري هذه الأشياء الثلاثة الأساسية بالنسبة لحياة العربي ، فإنه في واقع الأمر كان ينادي بتأميم وسائل الإنتاج قبل ماركس بثلاثة عشر قرناً .

وقد شاعت بين العرب قصص عديدة عن شغف الرسول بحفيديه ، لكنهما ، على أي حال ، رجلان يختلف كل منهما في مزاجه الخاص ، ولقيا نهايتين مختلفتين . فالحسن كان رجلاً تقيًّا لا يفرض ذاته ، سرعان ما انزوى في حياة خاصة ، في المدينة حيث مات بعد ثمانية أعوام . أما الحسين أخوه الأصغر فكان على استعداد أكبر للقتال ، فرفض أن يعطي البيعة لمعاوية ولا لابنه يزيد الذي لم يرث ممتلكات أبيه في سوريا فقط ، بل ورث معها أيضاً مطالبته بالخلافة .

في خريف عام ٦٨٠ م ترك الحسين المدينة مع أسرته ومؤيديه عبر الصحراء قاصداً الكوفة عاصمة أبيه القديمة . وقد أصبحت قصة خداع قوته الصغيرة التي حاصرتها قوات يزيد في نهاية الأمر وذبحت أفرادها قرب مدينة كربلاء بالعراق بمثابة مأساة إنسانية بل وشخصية راسخة في وجدان الشيعة رسوخ قصة آلام المسيح في وجدان المسيحيين . وعندما رأى الحسين أن الأمل في القتال وحب الاستشهاد وقد استشهد فيما بعد العديد من شيعة علي .

* * *

كان من الضروري أن أعطي موجزاً لهذه الأيام الأولى للإسلام ، لأنه من المستحيل على أي فرد أن يدرك ما يحدث الآن ، إلا إذا فهم ما حدث آنذاك ــ ولو إلى حد ما ــ والإسلام يختلف عن المسيحية في أنه لا يفرض على المؤمنين

به القواعد التي تحكم العبادات فقط ، وإنما ينظم أيضاً كل جوانب الحياة اليومية ، ويزود المؤمنين بإطار لتنظيم الجماعة في هذا العالم .

لكن ، وكما بيّنا من قبل ، فإن القضية تتلخص في أن محمداً كان أثناء حياته هو حامل الرسالة ، وهو أيضاً الذي يقوم بتطبيقها ، وبموته اكتملت الرسالة . وبقيت القوانين والشرائع . إلا أن كل قانون يتطلب تفسيراً ، فما هو مصدر التفسير في الإسلام ؟ ويتركز الخلاف بين الشيعة والسنة حول أحد أحاديث الرسول «تركت فيكم ما لو تبعتموه لن تضلوا ، كتاب الله وسنتي» ويفسر أهل السنة هذا الحديث بأنه يعني القرآن وسنة محمد الرسول . لكن الشيعة يضيفون عبارة أخرى إلى هذا الحديث ينسبونها إلى الرسول «كتاب الله وسنتي وعترتي أهل بيتي» ويؤكد أهل السنة أن خلفاء محمد لم يكونوا أكثر من مجرد مفسرين للشريعة غير معصومين من الخطأ مثل بقية البشر ، على حين يؤمن الشيعة بأن محمداً كان هو الإمام أو المفسر أثناء حياته ، وبعد وفاته كان هناك أئمة آخرون من أهل بيته يقدمون التفسير للمؤمنين ، ويجب على هذا الإمام أن يثبت أنه من سلالة علي وفاطمة ابنة الرسول ، لأن علياً وأهل البيت تلقوا رسالة الله بأعلى قدر من الوضوح . وإذ يؤمن السنيون بالاعتماد على الإجماع ، يؤمن الشيعة بما يشبه الحق الإلهي لآل البيت ، ويؤمن غالبية الشيعة بأن الأئمة قد استمروا في الدنيا بشكل ظاهر إلى أن اختفى الإمام الثاني عشر عام ٨٧٣ م . وهم ينتظرون عودته ، عودة المهدي ، هذا المرشد المعصوم ، الذي سيقيم العدل في العالم ويحرر الفقراء . لكن إلى أن يحين ذلك اليوم لا بد أن توجد طريقة أخرى لتفسير شرائع الله ، ويمكن العثور عليها من خلال هؤلاء الذين لديهم معرفة وفهم خاص لأمور الدين ، وهم الفقهاء ، الذين يعدون بمثابة نواب الإمام .

وقد تضافرت عدة قوى لتعميق الهوة بين السنة والشيعة خلال الصراع الدنيوي الذي نشب بين المسلمين في القرون الأولى للإسلام . فبعد مقتل علي والحسين تفرّق أتباعهم وأصبحوا عرضة للاضطهاد الشديد ، حتى أن الخلفاء الأمويين المنتصرين الذين كانوا يحكمون الأمبراطورية الإسلامية من عاصمتهم دمشق ، جعلوا محك الإيمان أن يسب المرء علياً وأسرته ، والفشل في هذا الاختبار عقوبته

الموت . ولكي يتحاشى الشيعة هذا المصير لجأوا إلى مبدأ (التقية) والذي يعني أنه من الشرعي أن يظهر الإنسان غير ما يبطن إذا ما وقع في يد العدو أو إذا وجد حياته في خطر أكيد . وقد وجدت الشيعة بشكل حتمي أتباعاً كثيرين ، بين الساخطين لسبب أو لآخر على السلطة المركزية للنظام السني التقليدي ، من الفقراء والمعدمين والأقليات . وكذلك هؤلاء الذين تقبلوا الإسلام عندما اكتسحهم الفاتحون المسلمون . لكنهم كانوا يحتفظون بإحساس قوي بذاتهم القومية . مثل الفرس .

عندما انتقلت السلطة في الأمبراطورية الإسلامية في منتصف القرن الثامن من الخلفاء الأمويين في دمشق إلى الخلفاء العباسيين في بغداد . كان الظن أن أياماً من الطمأنينة ستبزغ على (شيعة علي) ، لكن ذلك لم يحدث لأن دمشق عاصمة الأمويين كانت واقعة تحت التأثير الحضاري البيزنطي بشكل واضح وفي المقابل فإن بغداد عاصمة العباسيين كانت واقعة تحت تأثير حضارة بلاد الفرس المجاورة . ومع أن الفرس (وكان معظمهم آنذاك من الشيعة) كانوا يشغلون مناصب قيادية في الحكومة والإدارة أيام العباسيين ، كما أحرزوا شهرة واسعة ككتَّاب وشعراء وفلاسفة وفنانين ، إلا أنهم كانوا يشعرون بأنهم في مرتبة أدنى . ورغم تمتعهم بالامتيازات إلا أنهم لم يتمكنوا من ممارسة الحكم ، وكان بإمكانهم أن يبتدعوا لا أن يباشروا ، وعلى الرغم أنه خلال الألف سنة التالية وصلت الشيعة إلى الحكم في بعض الفترات الزمنية والأماكن كما هو الحال في مصر الفاطمية واليمن على سبيل المثال ، إلا أنهم غالباً ما كان يتم قمعهم واضطهادهم فيما عدا بلاد فارس .

* * *

لعله قد اتضحت الآن بعض السمات الرئيسية للمذهب الشيعي عامة وللشيعة الإيرانية خاصة . فبداية نجد لديهم ذلك الارتباط العضوي بالتقاليد الثورية الإسلامية أي بعصر العدالة الاجتماعية في تعاليم الرسول والسعي نحو تحقيقها حتى لو أدى ذلك إلى معارضة السلطة السياسية ، وثانياً وهناك أيضاً تبنِّي قضية علي وأسرته كأئمة ، أي مفسرين وشفعاء عند الله . وقد وصلت هذه العملية إلى حد أنهم صنعوا صورة أسطورية لعلي يبدو فيها واحداً من أبطال الفرس قبل الإسلام ،

بل وأكسبوه بعض صفات البطل رستم . ثالثاً ، هناك ما يسمى أحياناً بعقدة كربلاء . الاستغراق في فكرة الاستشهاد ، باعتباره قدر يباركه الله ويجزي صاحبه أكبر الثواب . اقتداء بالمثل الذي ضربه الحسين . رابعاً : هناك العملية المستمرة للتفسير ، التي يقوم بها الأفراد المؤهلون لها ، في غيبة الإمام الحقيقي . وأخيراً هناك ميراث الاضطهاد ، الذي لم يؤد إلى الاستياء العنيف من أي تدخل أو سيطرة أجنبية فحسب ، بل أدى بهم أيضاً إلى قبول التظاهر بالقبول (التقيّة) كشكل ضروري للحماية ضد هذا الشر . فحينما يتهم الأجانب الإيرانيين بأنهم أمة مخادعة ، فتفسير ذلك ، أنهم ، ربما وبغير وعي منهم يصطدمون بمبدأ (التقية) في التطبيق . لكن يجب الإشارة هنا إلى أن الخميني قد أعلن أن الإيرانيين قد وصلوا إلى مرحلة النضوج والاستقلال ، تجعل هذا المبدأ الذي كثيراً ما أساؤوا تطبيقه في الماضي لا لزوم له على الإطلاق .

لا بد من الاعتراف بأن المذهب الشيعي في إيران يتسم بنوع من الحزن المأساوي ، فالتوتر والحزن هما السمتان الواضحتان في احتفالات المحرم الخاصة بإحياء ذكرى استشهاد الحسين . ولا يمكن للمشاهد أن ينساها أبداً إذ تتضافر عمائم رجال الدين السوداء مع الشادور الأسود الذي ترتديه النسوة لتؤكد هذا الإحساس بالحزن . والإيرانيون كأمة يتذكرون دائماً وهم يرزحون تحت نير الطغيان الأجنبي والمحلي ، ذلك العصر الذهبي حينما كانت بلادهم وهي من أعرق الأمم ، محط احترام وخشية العالم . ولمدة ألف عام كان الإيرانيون كمؤمنين ينتظرون عودة الإمام ، المحرِّر ، المخلص . ولقد أنتجت إيران واحدة من أعظم الحضارات وأبقاها بميراثها الأدبي والفني الذي ليس له نظير ، فيما عدا عنصر الحزن والإحباط هذا الذي يلقي عليها بظلاله . إن هذا الإحساس بالحزن وبالمأساة الذي يتخلل عقيدة إيران وتاريخها هو الذي يخلق هذا الخليط المتفجر .

* * *

وفي بداية القرن السادس عشر جعل الشاه إسماعيل أول ملوك الأسرة الصفوية المذهب الشيعي الدين الرسمي للدولة . وبهذه الطريقة تحالفت السلطات الدينية والدنيوية ، العقيدية والوطنية ضد الأمبراطورية العثمانية السنية التي تشكل الخطر

الأساسي بالنسبة لإيران . ومنذ ذلك التاريخ أعيد تنظيم الحياة الدينية في إيران بطريقة مختلفة عن كافة البلاد الإسلامية الأخرى . وتركزت مدارس العلم الشيعية في مسجدين . واحد خارج البلاد ، مسجد علي بالنجف ، والآخر داخل البلاد ، مسجد فاطمة المعصومة بمدينة قم .

وتوجد ست مراتب محددة ، للذين ينخرطون في سلك الدراسة في هذه المساجد ، المرتبة الأولى ، هي مرحلة «طالب العلم» ، وعند تخرجه يصبح «مجتهد» والتي تعني حرفياً ، شخص أجهد نفسه كي يكـــون رأياً . والمرتبة الثالثة هي «مبلغ الرسالة» ، والرابعة «حجة الإسلام» ، والخامسة «آية الله» ، والسادسة والأخيرة هي «آية الله العظمى» الذي يصبح بشكل آلي «مرجعية» ، أي شخصاً يرجع إليه في كل شيء .

وحسب التقاليد المتبعـة لا يمكن أن يكـون هناك أكثر من خمسة ، في مرتبة «آية الله العظمى» في نفس الوقت . ولا يمكن القبض عليهم طبقاً لدستور عام ١٩٠٦ ميلادية ، ولذلك حينما كان الخميني مجرد «آية الله» كان من الممكن للشاه أن يأمر بالقبض عليه ، لكنه حينما أصبح «آية الله العظمى» أصبح من المستحيل القبض عليه . وبدلاً من ذلك أرسل إلى المنفى .

والنواة الأساسية في مدارس الشيعة هي «الحوزة» أو حلقة المريدين الذين يتحلقون حول المعلم يتلقون شروحه . وإذا وصل أحد الدارسين إلى مرتبة حجة الإسلام ، يمكنه أن يؤسس الحوزة الخاصة . وكلما زاد عدد المريدين الملتفين حوله كلما اقترب من الوصول إلى المرتبة التالية ، مرتبة «آية الله» . ولكن المرشح لا يمكن أن يصل إلى المرتبة الأخيرة . كآية الله العظمى . إلا إذا قبله هؤلاء الذين هم في هذه المرتبة بالفعل . وكان في مقدوره أن يقدم بحثاً دينياً له قيمة عالية ، وكانت رسالة الخميني بعنوان «تحرير الوسيلة» وهو عنوان له مغزاه العميق .

* * *

وإحدى نقاط الخلاف الهامة بين رجال الدين الشيعة والسنيين ، هي وضعهم المالي المستقل . في البلاد السنية المذهب تقوم الدولة بتلقي الهبات الدينية ثم تدفع لرجال الدين والعلماء مخصصاتهم . لكن مجتهدي الشيعة ورجال الدين الآخرين

يتسلمون مخصصاتهم مباشرة من النصيب الذي يهبه أتباعهم للإنفاق على الشؤون الدينية بما في ذلك نصيب المساجد والمدارس وأوجه التقوى الأخرى . وهكذا من حقهم أن يحصلوا على خُمس دخـل المريدين في الحوزة . وفي عام ١٩٢٠ م عندما حاول الشاه رضا أن يحدّ من قوة رجال الدين ، وكان يأمل في أن يجعل إيران تتبع النمط السني ، بجعلهم موظفين في الدولة ، قوبل بمعارضة قوية للغاية ، ليس من قبل رجال الدين فقط وإنما من مريديهم ، الذين استمروا في تقديم يد العون لهم ، لدرجة أنه اضطر إلى الإقلاع عن محاولته . فالمواطن الإيراني قد يكون على استعداد لخداع موظف الضرائب ، لكنه ليس على استعداد لخداع إمامه أو نائب الإمام .

وقد استخدم الخميني الأموال التي تلقاها في المنفى من مريديه أحسن استخدام ، فبالإضافة إلى أنه كان ينفق بسخاء على المدارس والخدمات الاجتماعية ، قام أيضاً باستخدام أحدث أدوات الدعاية ، مثل آلات تصوير الوثائق والكاسيت وعن طريقها أمكنه توزيع عِظاته وتعاليمه في طول إيران وعرضها .

ويتحدث الخميني بشيء من الاحتقار عن علماء الدين الانتهازيين ويصفهم «بفقهاء السلطان» . إذ تتسم تقاليد قم ، التي ساهم الخميني في إرساء قواعدها ، بأنها عكس الانتهازية ، ويحقق النص الذي يجعل لرجال الدين الاستقلال المالي ، كما تساعد المسافة الكبيرة بينها وبين طهران ، على إبعادها عن رقابة الحكومة المركزية . وعلاوة على كل ذلك ، توجد في قم حياة دينية مستمرة تتسم بالحماسة البالغة ، مما يجعلها ملاذاً في وقت الشدائد ، ومدينة على استعداد لتحدي السلطة في طهران المنافسة عندما تزول الشدائد .

* * *

الفصل السابع

مدينة قم المحاصرة

عادة ما يكون الجو العام داخل مدينة يلعب الدين فيها دوراً أساسياً سواء كانت هذه المدينة روما أو مكة أو بنارس أو كيوتو ، مختلفاً تماماً عنه في أي مدينة علمانية . في ذلك الوقت لم تعد قم تضم مجموعات المجتهدين المألوفة بحوزاتها ، سواء كانوا من المعلمين والدارسين ، وإنما أصبحت تضم أيضاً كافة اللاجئين الجدد . الذين لا يكفون عن مناقشة أحداث الماضي وإمكانيات المستقبل . ومن الطبيعي جداً أن يكونوا مهتمين اهتماماً زائداً بالدور الذي لعبه القائد الديني «آية الله كاشاني» أيام مصدق . وكانوا يسألون أنفسهم ، عما إذا كان على حق في أن يشتغل بالسياسة إلى هذا الحد ؟ والإسلام بالطبع ، لا يفصل بين الدين والسياسة ، إذ أنه مهتم طول الوقت بجميع جوانب الحياة في المجتمع ، لكن كاشاني كان يشغل منصب رئيس المجلس وهو منصب سياسي قيادي . وأحياناً كان يقوم بمهام الرجل الثاني في الحكومة . فهل كان ذلك من الحكمة في شيء ؟ هل كان من الحكمة أن يلقي بثقل النفوذ الديني كله الذي يرمز هو له ، خلف قضية سياسية واحدة : قضية تأميم البترول ؟ .

ورغم أن القضية التي ارتبط بها كاشاني رتباطاً وثيقاً ، قد انهزمت ، كما أنه هو نفسه قد مات ، إلا أن زملاءه في «قم» لم يشعروا بالهزيمة . فلقد أدركوا أن الشاه قد بيَّت النية ، مثل أبيه ، على أن يفصل بين الدين والدولة ، وهذا أمر لا يمكنهم قبوله أبداً . ولو ترك الأمر للشاه يفعل ما يريد ، لاقتصر الإسلام على العبادات فقط ، على حين أن الإسلام وكما يعرفون ، يغطي جميع أوجه الحياة ، وفي المجتمع الإسلامي الحقيقي ، يكون دور العلماء المتفقهين في علوم الدين تفسير قوانين الدولة .

في هذه الأيام العصيبة كان أحد «حجج الإسلام» (وكان صغير السن نسبياً ، إذ أن سن الستين ليست سناً متقدمة بين القيادات الدينية في قم) ويدعى «روح الله الخميني» نسبة إلى مدينة خمين ، يقوم بتدريس الفقه والمنطق ، بدأ يلفت الأنظار إليه ، كما بدأت أعداد المريدين تزداد في حوزته . حيث كان يعطي إجابات لكل الأسئلة التي تطرح في كل مكان في «قم» .

نعم ، قال الخميني : «لقد ارتكب كاشاني بعض الأخطاء ، لأن هدفه كان يجب أن يكون الإسلام وليس البترول . لأن كل ثمار الأرض بما فيها البترول ، تدخل في نطاق الإسلام» .

في ذلك الوقت جمع الخميني بين تدريس الدين والعمل السياسي ، كما يفعل الآن ، واتخذ خطوات لمساعدة أسر هؤلاء الذين قتلوا في الانقلاب المضاد أو الذين اختفوا ، أو اضطروا للذهاب للمنفى . كما بعث برسائل لجميع رؤساء دول العالم الإسلامي والعربي يطلب منهم مساعدات في هذا المضمار . ومن بين كل من تسلموا الرسائل لم يستجب سوى الرئيس جمال عبد الناصر . في ذلك الوقت كانت مصر وسوريا كيانين في الجمهورية العربية المتحدة ، وأمر الرئيس جمال عبد الناصر بإرسال مبلغ ١٥٠ ألف دولار عن طريق جهاز المخابرات الذي كان يرأسه السيد عبد الحميد السراج في ذلك الوقت لتوضع تحت تصرف لجنة الإعانات ، وغادر مطار بيروت شخص لبناني يعمل مع السراج ، لكنه حينما وصل إلى مطار طهران ألقي القبض عليه ، ويبدو أن السافاك أو إحدى الوكالات التي تعمل معها (وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والموساد) قد نبهت أنظار المسؤولين إليه في المطار .

وبالطبع كان الشاه يبلّغ تماماً بكل ما يقوله الخميني في حوزته ، ولم يكن سعيداً بما كان يسمعه عن هذا النجم الصاعد في سماء العالم الديني ، ورأى أنه قد آن الأوان ليضعه في حجمه الطبيعي . فأذاع خطاباً توجَّه فيه إلى القيادات الدينية في إيران ، ودون أن يذكر الخميني بالاسم ، يسألهم فيه عن رأيهم في زعيم شيعي مشهور كان على استعداد لقبول أموال من غير الشيعيين ..

في اليوم التالي أعطى الخميني جوابه في حوزته ، وقال : «لقد آن الأوان

لأن تنتهي «التقية» وأن نقف ونعلن ما نؤمن به» ثم اقتبس جزءاً مما قاله الشاه في الإذاعة وعلّق عليه قائلاً : «أنا لست في حاجة إلى نقود ، فالهبات التي تجيء من حوزتي تغطي كل احتياجاتها ، والنقود التي أرسلها الرئيس جمال عبد الناصر لم تكن مرسلة لي ، وإنما كانت للجنة المساعدات . لسد احتياجات الأرامل والأيتام ، هؤلاء الذين ترملوا وتيتموا من جراء حكم الشاه وحكم أبيه من قبله ، وانني أنتهز هذه الفرصة لأعلن نهاية «التقية» .

* * *

بهذا الإعلان أصبح الخميني أول زعيم ديني يستنكر التقية ويهاجم الشاه بشكل مباشر ، وسرعان ما وجد جوانب أخرى يهاجم الشاه على أساسها . وفي عام ١٩٦٢ أعلن الشاه ما سماه «ثورة الشاه والشعب» أو «الثورة البيضاء» التي تتكون من ست نقاط من ضمنها الإصلاح الزراعي وتحرير المرأة وتعديل قانون الانتخابات. فحتى ذلك الوقت . كان الرجال فقط هم الذين لهم حق التصويت أو الترشيح . وكان على الناخبين والمرشحين أن يقسموا على القرآن . وفتحت هذه التنظيمات الجديدة الباب للنساء ولغير المسلمين ، وعارض الخميني هذه القوانين ، ومنذ ذلك الوقت برزت سمعته كمعاد لحقوق المرأة .

أثارت هذه الإجراءات ثائرة الخميني وجعلته يرسل برقية إلى الشاه ، لكن الشاه رفض أن يرد عليه بشكل مباشر . فأرسلت برقية باسم الحكومة تخاطب الخميني بلقب «حجة الإسلام» وهي عبارة فيها شيء من الإهانة ، لأنه كان قد ارتفع إلى مرتبة «آية الله» وكل ما ذكرته البرقية هو أن الشاه يتمنى أن يهتدي الخميني إلى الطريق الصحيح .

في ذلك الوقت حصل الخميني على مؤازرة رجال الدين الشبان في إعداد عريضة ترسل إلى الشاه ، ولم يكن آيات الله الآخرون قد وقفوا معه بعد . ومع أن الشاه لم يفلح في محاولته في نقل قيادة الشيعة الدينية العليا خارج إيران . بأن يترك أحد المجتهدين في النجف (العراق) ليحل في المرجعية الكبرى محل آية الله «بازجرودي» الذي كان قد توفي مؤخراً ـ إلا أن القيادة الدينية في قم كانت لا تزال على حذر . وقد كان الخميني يجمع بين طريقة تفكير المحافظين في

«قم» . وطريقة قوى المعارضة في طهران ، حينما لجأ إلى العناصر الشابة من رجال الدين .

وقد طالبت العريضة بثلاث نقاط :

أولاً : طلبت من الشاه أن يحطم ما سموه «بسلاسل العبودية» مع أمريكا . كما حثوه على «ألا يضحي» بمعتقدات الشعب واستقلال الأمة في سبيل تأمين مصالح أمريكا والصهيونية .

ثانياً : لا بد أن يحترم الشاه المسلمين والحريات الإسلامية . وألا يفرض حكمه بالرصاص وخداع الناس بالحيل التي تسمى «الانتخابات» و«الثورة البيضاء» .

ثالثاً : لا بد أن يستخدم الشاه ثروة إيران المتزايدة لمكافحة الفقر والجهل ، ويترك للشعب حريته ليبني مستقبله .

ولم يردّ الشاه بشكل مباشر مرة أخرى ، على هذه العريضة . لكنه أرسل أحد رجال السافاك ، بصحبة أحد رجال الدين إلى مدينة قم ليخبر الخميني بنصيحة مبطنة بالتهديد تدعوه إلى أن يكف عن مهاجمة الشاه . ويكف عن مهاجمة إسرائيل* ، ويكف عن مهاجمة أمريكا . وإذا ما نفذ هذه الشروط الثلاثة فإن الخميني يكون له مطلق الحرية في أن يقول كل ما يريده عن الأمور الأخرى وينبغي عليه أن يعرف بأن هذه الشروط بمثابة إنذار .

في اليوم التالي ، وفي مسجد فاطمة ، أذاع الخميني كل ما دار في هذه الجلسة . ثم تساءل «ما معنى هذا ؟ وماذا يريد مني الشاه . بأن يبعث لي رسولاً من السافاك ؟ ولماذا لا يسمح لي بمهاجمة إسرائيل ؟ هل للشاه والد إسرائيلي أو أم إسرائيلية ؟ ولماذا لا يسمح لي بمهاجمته شخصياً ؟ هل هو علي ؟ كلا ، إنه إنسان ،

---

* يتبين لنا من دراسة كتابات الخميني أنه كان لا يثق في اليهود منذ الزمن البعيد فقد كان يؤمن إيماناً عميقاً بأن اليهود يكرهون الإسلام منذ البداية ويحاولون إحباط جهوده . وعندما أعلنت دولة إسرائيل هاجمها الخميني في الحال . وقد ساهم هذا الموقف ، وتبنية للقضية الفلسطينية واهتمامه الشديد بوضع القدس في وقوفه في صف الدول العربية . وقد كان لهذا الوضع نتائجه الهامة فيما بعد لأن الشاه كان يحاول أن يجتذب شعبه بعيداً عن جيرانهم العرب وبالتالي عن حركة التضامن الإسلامية . عن طريق التطلع للوراء لأيام قورش العظيم وماضي إيران قبل الإسلام

وإذا أخطأ نقول له انه أخطأ ، مثلما نقول له انه أصاب عندما يفعل الصواب .
وما كل هذا بخصوص الولايات المتحدة ؟ هل من المفروض أن نمجِّد من يستعبدوننا .
ومن حطم احترام أمتنا لنفسها» . واستمر يقول ويضغط بمنطق ثوري وهو يثير
زملاءه في «قم» «اما أن ينضم إلينا كل رجال الدين ، وإلا فهم أسوأ من المرتدين .
وإن لم يتكلموا جهاراً ، فمعنى هذا أنهم قد اختاروا جانب الشيطان» بهذا الأسلوب
حاول الخميني أن يرغم أعضاء القيادات الدينية ، الذين يفضلون الحصافة وإخفاء
الرأي على الشجاعة والمجاهرة به نتيجة للخوف أو الشك أو الاعتماد على مبدأ
التقية ، على الإفصاح عن موقفهم .

كان اختيار الخميني لمسجد «فاطمة» في قم ليقوم بهجومه الشديد على
حاكم البلاد ، يبدو للكثيرين فعلاً ينطوي على حماقة شديدة ، لكن الخميني ،
مثله في ذلك مثل لينين وكثيرين من الثوار ، كان لديه إحساس يكاد يكون غريزياً
باللحظة المؤاتية وبالعبارة ذات الدلالة التي تلتصق في أذهان سامعيه وتذكرهم
بكلماته . وقد ختم موعظته متوجهاً للشاه مرة أخرى ومباشرة «لم أعدد قلبي لتقبل
إنذارك ، وإنما أعدَدْته لتلقّي رماحك» .

* * *

أثبت الخميني براعة فائقة في استخدامه للكلمات ، فكل مستمعيه ولا شك
يعرفون لغة القرآن ، ومن هنا كان استخدامه للكلمات القرآنية في إطار معاصر .
إذ كان يشير إلى أعدائه على أنهم «طواغيت» وأصبح من الشائع في كل أنحاء
إيران أن يسمع المرء الناس يتهم الواحد منهم الآخر بأنه «طاغوتي» أو يحتجون
بأنهم ليسوا كذلك . كما استخدم الخميني كلمات أخرى من القرآن مثل
«مستضعفين» و«مستكبرين» ، ولم يكن من العسير على المرء أن يجد العديد
من الناس الذين تنطبق عليهم هذه التعريفات .

كما أظهر الخميني مهاراته التكتيكية كثوري في استغلاله عادة العزاء التي
يتبعها كل الشيعة . فهناك ثلاث مناسبات يتجمع فيها المعزون لإحياء ذكرى
الموتى : الأولى وتسمى «مجلس العزاء» وتقام بعد الوفاة مباشرة عندما يقوم
المعزون بزيارة بيت المتوفى لمواساة أسرته . والثانية وتسمى «مجلس التراحيم»

وتقام كل خميس حيث يلتقي الأصدقاء ليتذكروا محاسن الفقيد ، وتستمر لقاءات الخميس هذه حتى اليوم الأربعين من الوفاة ، وهو «مجلس الأربعين» وهو اليوم الذي يفترض فيه صعود الروح إلى بارئها في السماء . ويتم الاحتفال بهذه المناسبة بحماسة غير عادية خاصة إذا كان المتوفى شهيداً من أجل دينه ، وقد تمَّ العديد من هذه المناسبات قبل الإطاحة بحكم الشاه .

كان من المعروف أن الخميني سيلقي بخطبة في حوزته في الأيام الأخيرة من شهر مارس عام ١٩٦٣ م بمناسبة الذكرى السنوية لموت الإمام جعفر الصادق * . وكان التوتر آخذاً في التزايد في مدينة قم لعدة أيام مضت ، وقامت الحكومة بإرسال قوات لتدعيم قوات الجيش والبوليس في المدينة . لكن عندما بدأ الاجتماع في الحوزة شعر الخميني بوجود عناصر معادية مدسوسة فيها ، ربما يكونون من عملاء السافاك الذين يحرِّضون على الشغب . فأوقف الاجتماع وشرح لمريديه الأسباب التي دعته إلى ذلك . وبدأ بعض من أولئك في مضايقته فرد عليهم قائلاً «إن لم تتوقفوا عن هذا الشغب فسأذهب إلى مقام فاطمة المعصومة ، وهناك سأقول ما أريد قوله» وخيم الصمت . لكن قطعته صيحة انطلقت فجأة «عاش الشاه» ودب الشجار وانتهى الاجتماع .

في اليوم التالي تحركت قوات كبيرة من البوليس وهي تهتف باسم الشاه نحو المدرسة التي يقوم الخميني بالتدريس فيها ، بقصد إلقاء القبض على بعض أتباعه . لكنهم قوبلوا بالمقاومة ، واندلعت المعركة . فقتل حوالي اثنين وعشرين شخصاً وتم القبض على عدد أكبر من هذا . وترك الخميني المدرسة وذهب إلى منزله حيث تبعه بعض أعضاء حوزته وقال : «دعوهم يهاجمونني هنا لو أرادوا» . ثم أكمل خطابه الذي كان قد بدأه في اليوم السابق فقال :

---

* كان جعفر الصادق الإمام السادس من الأئمة الاثني عشر (٧٠٠ – ٧٥٦ م) مشهوراً بعلمه . وفي العصر الذي كانت قيادات الشيعة تحيا حياة يتهددها الخطر ، قام جعفر حتى قبل احتفاء الامام الثاني عشر بعد قرن من الزمان بتطوير وشرح المفهوم الذي يخول الإمام الحق في تعيين وكيل له يقوم مقامه على شرط أن يكون شخصية مثالية تسمو على الاعتبارات الدنيويه ومفسر مخلص لتعاليم الامام وقد قام الخميني بإضافات إلى شرح هذا المفهوم .

«ان هجوم الأمس الذي قامت به قوات عسكرية وأفراد من الجيش في ملابس مدنية ، يذكرني بالهجوم المغولي على إيران منذ خمسمائة عام مضت . لقد كان المهاجمون يهتفون «عاش الشاه» ! لماذا ؟ أليس من الغريب أن يفعلوا ذلك في الوقت الذي يهاجم فيه الشاه الأماكن الإسلامية المقدسة ، وينتهك تعاليم الإسلام ؟ هل هذا ما تمثله حياة الشاه .. مهاجمة القرآن والإسلام .؟» .

وكانت السلطات ما تزال مترددة في اتخاذ الخطوة الأخيرة ، بإلقاء القبض على الخميني . فاهتدت إلى تكتيك جديد . كان لأنباء المعارك والقتلى في قم وقع الصدمة العميقة على آية الله «الحكيم» أقدم المجتهدين الشيعة في مدن العراق المقدسة ، فأرسل برقية إلى زملائه المجتهدين في إيران مقترحاً عليهم الحضور إلى كربلاء والنجف ، إذا كانوا يشعرون في إيران أن «قم» أصبحت مكاناً خطراً بالنسبة لهم . وبطبيعة الحال علمت السلطات بمحتوى البرقية ، فبعثوا برسالة إلى آية الله شريعة مداري أقدم آيات الله في «قم» يعربون عن استعدادهم لتقديم التسهيلات الممكنة لأي شخص يود الرحيل إلى العراق . وكان رد الخميني برقية أخرى موجهة إلى الشاه «لن أتخلى عن مسؤولياتي بعون الله ، وإذا كان لنا أن نموت ، فسنكون من الشهداء ، وإذا كتبت لنا الحياة . فسنكون من الظافرين» ، ومرة أخرى أرسل الخميني برقيات إلى رؤساء الدول الإسلامية والعربية يخبرهم بما حدث من وجهة نظره طالباً منهم التأييد ، وعلى الرغم من أن الرقيب قد أوقف هذه البرقيات ، إلاّ أنه تمّ تهريب بعض النسخ إلى النجف حيث وزعت من هناك .

* * *

كان يوم ٥ يونيو ، هو يوم «مجلس الأربعين» للذين قتلوا أثناء الهجوم على المدرسة الفيضية . وحاولت قوات البوليس والشرطة التي كانت ما تزال موجودة بأعداد كبيرة في مدينة «قم» أن تمنع عقد هذا الاجتماع ، وانتهز الخميني هذه الفرصة ليلقي بأعنف خطبة له حتى هذه اللحظة ، ومرة أخرى توجه بالحديث إلى الشاه مباشرة «استمع إلى نصحي ! استمع إلى أولئك الذين تهمهم مصالح الشعب بشكل حقيقي ! استمع ، أيها البائس العليل ! لقد عشت حتى الآن خمساً وأربعين عاماً في هذه الدنيا . فلتتوقف هنيهة ولتتأمل ماذا قدمت لبلدك . وليكن

مصير أبيك درساً تتلقنه . تتهمنا بالرجعية إنما أنت الرجعي الأسود» . ثم تناول الخميني بعد ذلك قضية اعتماد الشاه على الولايات المتحدة وإسرائيل في كلمات لا تقل عنفاً عما سبق .

كانت هذه الكلمات متطرفة إلى أقصى مدى ، وتحرك البوليس وألقى القبض على الخميني (ولم يكن قد أصبح آية الله العظمى بعد ، مما يجعل من المستحيل القبض عليه) . واندلعت المظاهرات على الفور في قم وطهران حيث أودع السجن . وجاء في تقرير صحفي لوكالات الأنباء يومها ما يلي «اجتاحت طهران أمس الاضطرابات ، كما اجتاحت معظم المدن الرئيسية الأخرى في إيران . وقد أدى القبض على روح الله الخميني إلى اندلاع المظاهرات في الشوارع ، التي امتلأت بالدبابات والمدافع ، » ويقول المعلقون انها كانت من أعنف المظاهرات منذ الإطاحة بمصدق . وجاء في التقارير أن ما يزيد عن مائة شخص قد قتلوا . ورغم أن هذه التقارير الأولى عن عدد الضحايا كان مبالغاً فيها ، إلا أن مما لا شك فيه أن الاضطرابات كانت على مستوى لم تعرف إيران مثله منذ مدة طويلة ، وبعد ثلاثة أيام من القبض على الخميني ، قام أحد طلبة المدرسة الدينية في قم باغتيال حسن علي منصور رئيس الوزراء أثناء دخوله المجلس .

وتحرك آيات الله الأخر ، وفي مقدمتهم شريعة مداري ، وأجازوا رسالة الخميني «تحرير الوسيلة» وهكذا أصبح من آيات الله العظمى وأصبح استمرار اعتقاله قضية حساسة ، وأقلته سيارة إلى الحدود التركية حيث ترك وحده في هذه المنطقة المهجورة . لكنه نجح في عبور الحدود من تركيا إلى النجف . حيث لحقت به زوجته وأسرته في نهاية الأمر . وقد حدث أثناء وجوده بالسجن أن ألمحوا إليه بأن الشاه قد يكون على استعداد لمقابلته ليحلا خلافاتهما ، على شريطة أن يبدي الخميني شيئاً من التعقل . وأرسل الخميني رده هذه المرة من المنفى «لقد أخبروني بأنني إذا قابلت الشاه فإن ذلك سيكون كفيلاً بحل كل شيء . لكنهم يعلمون جيداً أن الأمة كلها قد رفضت الشاه . ولقد أشاعوا أن صدر الشاه في سعة البحر . بإمكانه أن يضم كل من يود العودة إليه . لكنه بحر مسمم وأي شخص يغمس فيه حتى مجرّد طرف إصبعه فسوف يسري فيه السم . لقد حاولوا أن يقنعوني بمقابلة

الشاه ، حتى يسمِّموا سمعتي» .

أما في طهران فقد استغل الشاه حادث مقتل رئيس وزرائه . لاتخاذ إجراءات صارمة ضد المعارضة . فألقى القبض على كثيرين منهم قدموا للمحاكمة أو تم التخلص منهم بطرق أخرى .

وخضعت مدينة قم خضوعاً تاماً . وقام معارضو الشاه هناك بالهجرة في اتجاه معاكس ، من قم إلى طهران ، حيث يسهل الاختباء فيها .

* * *

الفصل الثامن

حكم الشاه المطلق

وانتصر الشاه ، وتم فرض الهدوء على قم وطهران ، وسحقت المعارضة ، ونفي الخميني . ولم يكن هناك ما يدعو الشاه للقلق بخصوص المجلس . فحينما أعلن «ثورته البيضاء» ، توجه إلى الجماهير مباشرة متخطياً رجال السياسة عن طريق إجراء استفتاء عام . لقد كانت في الواقع «ثورة الشاه ــ والشعب» ، بتخطِّيها رجال السياسة . ومند هذه اللحظة أصبح المجلس مجرد صفر ، إذ كان الشاه يؤلف الوزارات والأحزاب ويصبغها حسب هواه . لقد بدأت سنوات الحكم المطلق ، وليس هناك أساس للشرعية القانونية غير الاستفتاءات تجري بين الحين والآخر بدعوى الديمقراطية !

وقد ساعدت الأحداث التي وقعت في أماكن أخرى على تدعيم مركز الشاه . فنفوذ عبد الناصر كزعيم لحركة القومية العربية ، التي كان الشاه يخشاها ويسخط عليها ، قد تأثر من جراء نتائج حرب يونيو ١٩٦٧ ، التي زادت بشكل هائل من سمعة إسرائيل ، حليف الشاه الخفي ، فلم يعد هناك حسب تصوره حاكم مثله في المنطقة له نفس القوة والموارد . وكان لقرار بريطانيا أكثر من فائدة من وجهة نظر الشاه ، هذا القرار الخاص بإنهاء بريطانيا لحمايتها على منطقة الخليج ، الذي تخلَّت فيه بالتالي عن هيبتها البحرية والسياسية في مياه هذه المنطقة لمدة استمرت ١٥٠ عاماً . فقد حصلت الكويت على استقلالها عام ١٩٦١ وأعلنت عام ١٩٦٨ انها لن تلجأ إلى بريطانيا من الآن فصاعداً لطلب الحماية ضد عدوان خارجي ، وفي بداية عام ١٩٦٨ م اتفق حكام البحرين وقطر والإمارات المتصالحة على قيام اتحاد فيدرالي بينهم ، وبذلك حل الاستقلال محل الاعتماد على ذراع بريطانيا الواقي ، ولعل العنصر الوحيد الذي كان يشكل شيئاً من التعقيد هو مطالبة

إيران بالبحرين ـ هذا المطلب الذي ورثه الشاه ، وأحسَّ أنه مرغم على أن يأخذه مأخذ الجد ، حتى ولو لم يشاركه أحد من خارج إيران في دعواه .

وفي عام ١٩٦٩ م تم التوصل إلى صيغة لإنقاذ ماء الوجه تتضمن إرسال بعثة لتقصي الحقائق عن طريق السكرتير العام للأمم المتحدة . وحصلت البحرين أيضاً على استقلالها في أغسطس ١٩٧١ م . وتبعتها قطر بعد شهر واحد . وفي شهر يوليو أعادت الإمارات المتصالحة صياغة نفسها داخل دولة مستقلة عرفت باسم «دولة الإمارات العربية المتحدة» .

بخروج بريطانيا من الصورة ، مع ضعف معظم هذه الدول الجديدة ، في جميع النواحي إلا في أرقام عائدات البترول فإنه لم يبق في ذلك الوقت سوى قوتين بارزتين في الخليج ـ المملكة العربية السعودية ، وإيران بطبيعة الحال . ومع أنه كان للعراق منفذ ضيِّق على رأس الخليج ، إلا أن العراق كان مشغولاً في ذلك الوقت بأموره الداخلية .

وكان الشاه يرى أن الخليج في طريقه لأن يصبح أهم منطقة اقتصادية واستراتيجية في العالم ، لذا ينبغي أن تشترك السعودية وإيران في السيطرة عليه ، على أن يكون لإيران الجانب الأقوى من السيطرة ، وعلى أن تلجأ الدولتان إلى الولايات المتحدة من أجل الدعم الدبلوماسي والسلاح . وكان إنشاء البحرية الإيرانية هو رمز هذا الوضع الجديد . في الوقت الذي لم تكن لدى السعودية كاسحة ألغام واحدة في الخليج ، أما إيران فقد حصلت على مدمرات وطرادات وفرقاطات وقوة جوية تابعة للبحرية . وفي عام ١٩٧٥ م ، أعلن الشاه : «ان قوتنا في الخليج الفارسي الآن ، تفوق قوة بريطانيا التي كانت هنا في أي وقت ، عشر مرات ، بل عشرين مرة» !!

* * *

كان هذا التعليق تعبيراً نموذجياً عن جنون العظمة الذي بدأ الشاه يعاني منه بشكل واضح عندما استقر دوره كحاكم مطلق لبلد في موعد مع المقادير . لذا كان لا بد أن يصبح كل شيء مبالغاً فيه حتى يجذب أنظار العالم . وكانت حفلة التتويج هي أول مناسبة ترمز لهذه العظمة الجديدة . كانت زوجة الشاه الثانية ثريا لم

تنجب ، فطلقها عام ١٩٥٨ . وفي ديسمبر ١٩٥٩ تزوج من فرح ديبا التي أنجبت له ابناً ووريثاً عام ١٩٦١ م . والآن آن الأوان لأن يقام ذلك الاحتفال الذي تأخر طويلاً .

كان أبوه الشاه رضا قد قام بوضع التاج على رأسه بنفسه مثل نابليون ليبين للجميع بأنه ليس مديناً به لأحد ، وكانت هذه لفتة مقصودة باعتبار أنه استولى على العرش من خلال جهده الشخصي . أما ابنه ، من الناحية الأخرى ، فقد ورث العرش عنه . وقد قرر هو أيضاً تتويج نفسه بنفسه ، على أساس أنه احتفظ بالعرش الذي ورثه لمدة تزيد عن ستة وعشرين عاماً ، اجتاحتها العواصف والاضطرابات ! وقد قال خلال الاحتفالات التي أقيمت في ٢٦ أكتوبر عام ١٩٦٧ م في قصر الجوليستان بمناسبة عيد ميلاده الثامن والأربعين : «لقد توَّجت نفسي بنفسي لأن الشعب الإيراني يعيش الآن في رخاء وطمأنينة . لقد قطعت على نفسي عهداً منذ زمن طويل ألاَّ أكون ملكاً على شعب من الشحاذين أو المضطهدين ، والآن وقد غمرت السعادة الجميع ، أذنت بإقامة حفل التتويج» . وبعد أن وضع التاج على رأسه ، وضع تاجين صغيرين ، أحدهما على رأس زوجته فرح التي توجت امبراطورة . وآخر على رأس ابنه . وأطلق على نفسه لقب «أريا مهر» أي ـ «نور الآريين» بالإضافة إلى لقبه «شاهنشاه» أي «ملك الملوك» .

* * *

كانت حفلة التتويج مناسبة رائعة دون شك . فقد أمر الشاه بصنع تيجان جديدة عند كارتييه ـ أكبر محل للمجوهرات في باريس ـ كما لو أن كل التيجان الموجودة في الخزانة الامبراطورية لا تليق بهذه المناسبة . ورصِّع التاج الذي وضعه على رأسه بـ ٣٣٨٠ جوهرة أما التاجان الآخران فرصِّعا بعدد أقل قليلاً .

واحتفل الشاه عام ١٩٧١ بالثلاثين عاماً التي قضاها على العرش ، لكنه وصل إلى ذروة جنونه بالاحتفالات في أكتوبر عام ١٩٧٢ ، حينما تم الاحتفال بمرور ألفين وخمسمائة عام على قيام الحكم الملكي ، وأقيم الاحتفال الذي كان يتسم بالعظمة البالغة ، بين أطلال عاصمة الأخمينيين السابقة «برسوبوليس» وحضره ستة وثمانون ملكاً وأميراً ورئيس دولة ، ملوك النرويج والسويد وتايلاند والدانمارك

وبلجيكا واليونان . كما حضره الأمير فيليب والأميرة آن من بريطانيا ، ومن أفريقيا حضر الأمبراطور هيلاسيلاسي ، والرئيس سنجور من السنغال ، وسبيرو أجينو نائب رئيس الولايات المتحدة ، والرئيس بودغورني من الاتحاد السوفيتي . كما حضر الملك حسين والرئيسان فرنجية من لبنان وبورقيبة من تونس ، وكذلك كل حكام دول الخليج . هذا فضلاً عن رؤساء وزراء فرنسا وإيطاليا والبرتغال وآخرين كثيرين . علاوة على كل هذا قام الشاه بجمع خليط غريب من أصحاب الصحف والكتّاب وتجار السلاح وأصحاب رؤوس الأموال .

لم أحضر الاحتفال بذاته ، لكني كنت مهتماً بالمكان الذي أقيمت فيه هذه المناسبة الفريدة ، وأعترف بأنني وجدته عندما زرته متنافر الذوق بدرجة فاحشة . تحولت برسوبوليس إلى مدينة من الخيام ، لكل ممثل دولة خيمة خاصة به . وداخل كل خيمة مبطنة بالحرير ، وكانت في الواقع سرادقات كبيرة ، كانت توجد حجرة معيشة كبيرة ، وحجرة نوم ، ومطبخ . وكان مطعم «مكسيم» في باريس مسؤولاً عن تقديم الطعام للضيوف ، لكن إذا كان أحدهم يفضل طعامه القومي على الأطعمة الفاخرة التي يعدها الطباخون الفرنسيون فله إحضار طباخه الخاص بالطائرة على حساب الشاه . وهكذا اشترك هؤلاء العظماء وحاشيتهم مع من هم أقل شأناً في استهلاك تلال الكافيار والأطعمة الشهية الأخرى . ولنا أن نتخيَّل الأجهزة اللازمة للإعداد وللقيام بمثل هذا الاحتفال الطويل . لقد أقيمت عشرات من محطات القوى الكهربائية في الصحراء ، لتشغيل الثلاجات وأجهزة تكييف الهواء ، والتليفونات ، وأجهزة التليفزيون والانتقال وخلافه ، وقد كلَّف هذا الاحتفال الذي استمر ثلاثة أيام الخزينة الإيرانية حوالى مائة وعشرين مليون دولار ، لكن الشاه كان موقناً بأن الاحتفال يستحق كل مليم أنفق عليه . وقال انه يريد أن يظهر للشعب الإيراني أن له أصدقاء في العالم ، كما لو كان الحضور إلى إيران لأكل الكافيار هو برهان الصداقة . لكن السبب الحقيقي لرضاه كان شخصياً أكثر منه أي شيء آخر . فلقد شعر أن مهرجان برسوبوليس بمثابة «خاتم الشرعية الذي مهرت به أسرة بهلوي» وقد قال مرة لصديق ملكي ، التقى به في باريس : «إن أحفاد شرلمان قد جاؤوا إلى برسوبوليس ليعربوا عن

تقديرهم لابن الجاويش» . قال الشاه هذه الكلمات ضاحكاً لكنه كان يعني ما يقوله بشكل جدّي .

* * *

لسوء الحظ لم يكن الإسراف في اللهو هو المجال الوحيد في إيران في أواخر الستينات وأوائل السبعينات. بل كان كل واحد في هذا الوقت يحاول أن يحصل على نصيبه من الفطيرة . فقد كان الشاه يعتبر إيران ملكية خاصة ، تؤول باكورة ثمارها إلى العائلة المالكة بطبيعة الحال . مع مراعاة بعض الاعتبارات والحدود ومناطق النفوذ . فالملكة الأم كانت مهتمة بتملك الأراضي والعقارات . وكان لها مكتب مهيب في مبنى يقع في شارع «تخت طاووس» أصبح بعد الثورة مكتب وزير الشؤون الثورية . أما الأمير محمود رضا أخو الشاه ، فقد ركز اهتمامه على استخراج المعادن ، بما في ذلك الكوبالت والبوكسيت والفيروز ، وكان أكبر مساهم في شركة استخراج الفيروز وشركة «شاهراند» الصناعية وشركات أخرى عديدة . والأميرة أشرف كانت مشتركة في الأعمال المصرفية ومصانع الورق ، واليانصيب . وكذا الأصدقاء الأوفياء لم ينسوا ، «فأردشير» ابن الجنرال زاهدي ، الذي تزوج ابنة الشاه وعين سفيراً في واشنطن ، استولى على حصة كبيرة مسيطرة من أسهم صناعة السيارات ، كما حصل عدد لا حصر له من الساسة والدبلوماسيين والعسكريين ورجال الأعمال ، على مكافآت مماثلة ، كما كوفئ رجال المخابرات المركزية الأمريكية الذين أثبتوا نفسهم للنظام .

وعين جعفر شريف إمامي الذي كان واحداً من أوفى خدام الشاه ، في وظيفة نائب رئيس مجلس الأمناء لمؤسسة بهلوي (وكان الشاه نفسه هو رئيس المجلس) لمدة ستة عشر عاماً ، وكانت مصدر نفوذ وربح كبيرين له .

كانت مؤسسة بهلوي قد انشئت عام ١٩٥٨ م بدعوى أنها مؤسسة خيرية ، تستمد مواردها من بيع الأراضي الملكية لمستأجريها وتوجه دخلها إلى المساهمة في أوجه الخير . وحقيقة كانت تفعل ذلك ، مثل مساعدة العيادات الطبية وأندية الشباب وإرسال آلاف من الطلبة للدراسة بالخارج . لكن وراء هذا ، كان تشعبها يزداد بشكل ملحوظ في الحياة الاقتصادية للبلاد لدرجة أنها أصبحت بمثابة

امبراطورية اقتصادية مستقلة داخل الدولة . وفي عام ١٩٧٩ قدرت ممتلكاتها بحوالى ثلاثة بلايين دولار .

وكان في مرتبة الحقائق التي تدعمها الأرقام أن كلا من الأسرة المالكة ومؤسسة بهلوي تتحكمان في ٨٠ ./. من صناعة الاسمنت في إيران و ٧٠ ./. من الفنادق السياحية و ٦٢ ./. من البنوك والتأمين و ٤٠ ./. من صناعة النسيج و ٣٥ ./. من صناعة السيارات وهكذا .

ونفس التداخل بين المصالح الخاصة والعامة كان متواجداً في كل هيئات الدولة . فكان «هوشانج انصاري» وزير المالية لعدة سنوات ، يقوم برعاية المصالح المالية الخاصة بالشاه . أما أخوه «قورش انصاري» فقام بالنيابة عن الشاه بشراء ٢٥ ./. من أسهم مؤسسة كروب ، نظير ما قيل بأنه ٥٥٠ مليون مارك الماني .

في هذه الفترة كان يبدو وكأن النظام قد تملكه ضرب من الجنون فبرسوبوليس القديمة قد أدارت رأس الشاه . فقد قام هناك بالترفيه عن ضيوفه ، بأن قامت وحدات من الجيش مرتدية أزياء أخمينية بتقديم عرض عسكري ، حيث كانت الفرصة للتعويض عن إحساسه بعدم الثقة في الماضي ليقدم نفسه وكأنه تجسيد جديد «لقورش» ، و «دارا العظيم» * . وبدأت طقوس البلاط تزداد تركيباً . فهناك الانحناءات المختلفة والرجوع بإحدى القدمين إلى الوراء عند التحية ، وعلى الزوار أن يتركوا الحضرة الملكية سائرين بظهورهم وما شابه ذلك من السخافات . وقد توصلت إلى افتراض سليم مفاده ، أنه كلما زادت بروتوكولات البلاط أبهة ، كلما كان الوجه الآخر للعملة هو ازدياد معاناة الشعب من الاضطهاد .

* * *

وقد لاحظت التغيير الذي طرأ على شخصية الشاه عندما تحدثت إليه مرة أخرى بعد خمس وعشرين سنة من أول لقاء بيننا . كان في الماضي يتحدث بحرية ، ويستمتع بالأخذ والعطاء في الحوار ، أما الآن فيصغي بكياسة ولا يدلي إلا بملاحظات محدودة ، إلا إذا كان الأمر يتعلق بحديث صحفي.. وكان يفضل

---

* اختار الشاه اسم قورش لولي عهده .

أن يقدم نفسه على أنه لغز ، مثل تلك العرائس الروسية الخشبية ، إذا ما فتحت إحداها وجدت أخرى بداخلها دائماً ، وكان يبقي أفكاره مختبئة داخل تحفظه الملكي الذي يشبه القوقعة التي لا يمكن اختراقها . كان يحول نفسه عن قصد إلى ملك شرقي من ملوك الفرس القدامى ، أو فراعنة مصر ، أو أباطرة الروم كلهم مجتمعين في شخص واحد . كل هذه الملكيات التي كان يقلدها لم تكن تتسم بروعة ومهابة طقوس البلاط فيها فقط ، إنما كانت تتسم بالحكم المطلق . وقد أصبح هذا أيضاً من سمات أسرة بهلوي . فهناك فرد واحد ، هو وحده الذي يستطيع اتخاذ القرارات . وكان كل أولئك المحيطين بالشاه يرتعدون في وجوده لأنهم من صنعه . وكلما ازدادت مكانته حسب تصوره كلما ازداد تضاؤلهم ، لأنهم بدونه لا يساوون شيئاً . وكان يقال أحياناً انه «بينما لم يكن يجرؤ أحد على إخفاء الحقيقة عن أبيه الشاه رضا ، فإن أحداً لم يعد يجرؤ على أن يخبر ابنه بها» .

وقد قال الشاه لأحد الشخصيات الملكية غير الإيرانية لكنه قريب لأسرة بهلوي «نحن السادة الآن ، وسادتنا السابقون ، هم عبيدنا الآن . كل يوم يسلكون طريقهم إلى أبوابنا يسألوننا معروفاً . يسألوننا ، ما هو السبيل ليكونوا في خدمتنا ؟ هل نريد سلاحاً ؟ هل نريد محطات قوى نووية ؟ كل ما علينا هو أن نفصح عن رغبتنا ، وسرعان ما يهرعون لتلبيتها ! » . كلمات مغرورة ، لكنها كانت متوقعة من رجل ضعيف ، يقف على رأس أمة مضطهدة ، ويتصور نفسه حراً يتحدث بالنيابة عن أمة حرة أيضاً . ان ما كان يشعر به الشاه غالباً ، وبالمعنى الحرفي للكلمة أنه يقف على قمة هذا العالم .

لا يمكن أن يكون حفل التتويج أو مهرجان برسوبوليس هما المسؤولين عن هذا الإحساس بالزهو الذي أصاب الشاه ، بل كان هناك سبب ثالث ما زال أكثر إثارةً ـ وهو ارتفاع سعر البترول . فلقد كانت ديون إيران بعد مهرجان برسوبوليس ثلاثة بلايين دولار ، لكن مع نهاية عام ١٩٧٣ ، أي بعد ما يزيد عن العام بقليل ، سددت إيران كل ديونها وأصبحت أمة دائنة ، حتى ان دولاً مثل بريطانيا كان يسعدها أن تقترض منها . كان ارتفاع سعر البترول إلى أربعة أضعاف ، هو سبب هذا التحول ، هذا الارتفاع الذي وعد بزيادة احتياطي

إيران من البترول من ٥ بليون دولار في العام إلى ذلك الرقم الخرافي ، ١٩ بليون دولار .

* * *

كيف حدث ذلك ؟. عندما قامت الدول العربية باستخدام «سلاح البترول» لأول مرة بعد اندلاع حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وخفَّضت من إمداد الغرب ، لم تنضم إيران لها في هذه العملية . فإيران في نهاية الأمر ، ليست دولة عربية ، وتتمتع بعلاقات خاصة مع إسرائيل ، عدو العرب . ورغم ذلك فقد كانت إيـران هي الدولـة التي أبـدت استعدادها أكثر من أي بلـد عربي للضغط على الغرب ، برفع أسعار البترول ، ومع أن الشاه كان من أصدق حلفاء الغرب في الشرق الأوسط إلا أنه نصب من نفسه مدافعاً عن خطوة تهدد اقتصاديات الغرب بالشلل لعدة أعوام قادمة . فهل كانت هذه فكرته هو ، أم ان أحداً دفعه إلى ذلك ؟

في نهاية عام ١٩٧٣ كان من الواضح أنه لا بد من اللجوء لرأي الخبراء في مهمة قوى السوق لمعرفة مدى إمكانية زيادة أسعار البترول ، دون أن يؤدي ذلك إلى انفجار في الاقتصاد الدولي . فلن تكون هناك فائدة من زيادة سعر البترول إلى أربعة أضعاف ، إذا لم يكن هناك من سيشتريه . لكن الشاه أظهر ثقة بالغة في قراراته بشأن الاستمرار في زيادة الأسعار ، الأمر الذي يؤكد ولا شك أنه قد تلقى نصيحة جيدة من أحد المصادر ، وانطلاقاً من مبدأ «من هو المستفيد» ؟ اتجهت شكوك الكثيرين إلى الأمريكيين . فلقد كانت شركات البترول الأمريكية هي التي لا تزال مسيطرة ومتحكمة في سوق البترول ، وكان الدولار هو العملة المستخدمة في التعاملات الدولية الخاصة بالبترول . كما أن غرب أوروبا واليابان قد أصبحتا بالتدريج منافسين قويين لأمريكا في مجال التجارة . والارتفاع الرهيب في سعر المصدر الأساسي للطاقة التي يستخدمونها ، لا بد سيضعها جميعاً في مكانها . وكما قال هنري كيسنجر عن حق بشأن رفع سعر البترول «هذه هي نهاية مشروع مارشال» ، وكان تزويد أوروبا بالطاقة نظير سعر منخفض من أهم فوائد المشروع التي جنتها أوروبا بعد ان مزقتها الحرب .

واستفادت أمريكا بطريقة أخرى ، وقد كتبت آنذاك أقول : «نحن العرب

تربطنا بالغرب سلاسل من ذهب» . وهذا ينطبق بكل المقاييس على إيران . فالولايات المتحدة كانت تحصل على البترول وتزود إيران والدول العربية بالسلع الاستهلاكية والسلاح . واحتفظت أمريكا بنقد دول البترول على هيئة دولارات تفقد قيمتها باستمرار ، أما فائدة رأس المال فكانوا ينفقونها على السلع الأمريكية . وحصلت أمريكا على الأرباح ، وحصل منتجو البترول على حملات الكراهية بسبب رفع الأسعار . ولم يكن هذا الوضع سيئاً للولايات المتحدة .

كذلك لم يكن الوضع سيئاً بالنسبة للشاه ، أو هكذا كان يبدو له في ذلك الوقت . لقد انتهز فرصة مؤتمره الصحفي الشهير الذي عقده في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣ ليلقي بمحاضرة على الغرب . وكانت محاضرة يشوبها الحزن أكثر من الغضب ، وبدا كأنه معلم حازم لكنه عادل ، يوبخ تلاميذه الضعفاء . قال : «يجب على الغرب أن يتعلم كيف يعيش داخل حدود الموارد المتاحة له ويبحث له عن مصادر أخرى للطاقة غير البترول . وإذا كان الناس في الغرب يودون أن تستمر مجتمعاتهم في إفراز الهيبز (الخنافس) وفي ترف الأحاديث بلغة اليسار في الصالونات فليفعلوا ذلك على حسابهم الخاص وليس على حساب بلاد أخرى مثل إيران» واستمر قائلاً «ثمة انحلال في الغرب ، وليس لديهم شيء نتعلمه منهم . وهم يودون تصدير أفكارهم المنحلة إلينا ، تلك التي يسمونها ديمقراطية ، لكن ذلك شيء لا يمكننا أن نقبله»

وبدأ الشاه يتحدث عن المستقبل ، وكيف أن إيران سرعان ما ستصبح خامس دولة صناعية في العالم . وتحدث عن القوة النووية وعن الأسلحة ويبدو أنه لم يكن هناك حد لأحلامه بالنسبة لبلده ، وبالنسبة لنفسه ، وإذا كان الشاهنشاه ، الأريامهر ، يحاول أن يبعد نفسه عن معلميه في الغرب إلى هذا الحد ، فإنه لسوء حظه ، وكما بينت الأحداث فيما بعد ، كان قد أبعد نفسه عن شعبه أيضاً .

الفصل التاسع

شرطي المنطقة

من فوق القمة العالية التي كان يشغلها الشاه في ذلك الوقت ، ألقى بنظرة متفحصة إلى العالم ، وخلص إلى أن الوقت قد حان لإجراء تغييرات معيَّنة . وكانت أول منطقة استحوذت على انتباهه بالطبع فناء داره الخلفي ، منطقة الخليج ، حيث لم يجد هناك أي مجال للمنافسة . فالمملكة العربية السعودية رغم ثرائها الضخم ، لا يتجاوز تعداد سكانها أربعة ملايين نسمة بالمقارنة بعدد سكان إيران البالغ عددهم سبعة وثلاثين مليوناً . أما العراق فكانت تشكل خطراً محتملاً ، لكن الشاه شعر أن بمقدوره أن يتجاهلها في الوقت الراهن . وباستثناء هذين البلدين ، فإن منطقة الخليج تتكون من مجرد عدد من الإمارات ليس إلا ، ويمكن التعامل معها بسهولة . حقاً ، لقد تنازل عن مطالبة إيران بالبحرين ، لكن كانت هناك طرق لتأكيد سيطرة إيران العليا في الخليج ، أفضل من الإلحاح بالمطالبة بالأراضي . وهو أمر يبدو تحقيقه بعيد الاحتمال . فعمل على تشجيع هجرة الإيرانيين إلى دول الخليج ، الكويت ، ودولة الإمارات ودولة البحرين ، التي تعاني كلها من عجز دائم في العمالة ، وهو بذلك يكون قد ساهم بشكل خفي وفعال في تغيير نمط الأجناس في الخليج . ولعل أكبر دليل على قوة ومكانة الإيرانيين الذين يعيشون على الشاطئ الغربي للخليج ، انه حينما قام الشاه بزيارته الرسمية للكويت ، قامت الجالية الإيرانية هناك بفرش الطريق بطوله من المطار إلى القصر الذي كان سيقيم فيه ، بالسجاجيد الإيرانية ، لتمر عليها سيارته الرولز رويس . كما أن كل حكام الخليج قد حضروا احتفالات برسوبوليس ، التي كان لها أعمق الأثر عليهم ، لما لقوه من استقبال رائع وانبهارهم بهذا العدد الكبير من الضيوف المرموقين الذين كانوا في صحبتهم . واستمروا في القيام بزيارات منتظمة إلى حد كبير لبلاط

طهران ، لثقتهم التامة بما سيلاقون من ترحيب . ولم يخف بعضهم ، مثل الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي ، إيمانه بضرورة التطلع إلى طهران باعتبارها مركز القوة الحقيقي في المنطقة .

والاعتراف بهذه الحقيقة من جانب حاكم دبي قد يكون له شأن ، والاعتراف بها من جانب رئيس الولايات المتحدة له شأن آخر . وهذا هو ما حصل عليه الشاه بالفعل . فلقد كانت أمريكا تحاول يائسة تخليص نفسها من المستنقع الفيتنامي ، لكن حكومة نيكسون كانت تعلم أنه بعد الانتهاء من هذه العملية ، سيبقى هناك عديد من المناطق الحساسة في العالم لها فيها من المصالح الحيوية ، ما يجعلها تتخذ حيالها الترتيبات الخاصة بالأمن ، بشكل ضروري وقاطع . هذا الأمر الذي أطلق عليه «مبدأ نيكسون» الذي ينادي بضرورة حماية هذه المناطق من خلال قوة محلية أو مجموعة من القوى تقوم بمهمة الشرطي في المنطقة ، بتأييد من الأمريكيين وبسلاح أمريكي ، لكن دون تدخل أمريكي مباشر إذا أمكن . وكان من الواضح أن إيران هي المرشح المؤهل أكثر من غيره للقيام بهذه المهمة في الخليج . فالسعودية بمواردها البشرية المحدودة لا تستطيع القيام بهذه المهمة ، والعراق كانت لا تزال تسعى إلى الاستقرار ويشدها باستمرار دورها المطلوب في الصراع مع إسرائيل . أما بالنسبة لمصر ، ورغم طرد الرئيس السادات للخبراء السوفيت في صيف عام ١٩٧٢ ، وإظهاره لاتجاهه السياسي ، فإنه كان مشغولاً في ذلك الوقت بالإعداد للحرب لاستعادة سيناء ، إذن لا يتبقى غير إيران للقيام بهذه المهمة ، بما تمتلكه من طاقات بشرية ، وأهم من ذلك إمكانياتها التي تؤهلها لذلك . وقد سعدت كثير من الشركات الأمريكية التي كانت تنتج الطائرات والأجهزة الالكترونية وصناعات أخرى وازدهرت خلال حرب فيتنام ، سعدت بالشاه كزبون حريص على شراء المعدات منها ودفع أثمان سخية مقابل ذلك .

* * *

لذلك عندما قام نيكسون وكيسنجر بزيارة طهران في مايو ١٩٧٢ ، في طريق عودتهما من موسكو بعد الاجتماع مع بريجنيف هناك ، وجدا نفسيهما يتحدثان مع رجل يفكر تماماً بنفس طريقتهم . وقد قدم لهما الشاه تحليلاً للموقف كما كان

يراه ، وهو شيء كان يجيد القيام به للغاية ، معبراً عن نفسه بوضوح وقوة ، كرجل يتابع باستمرار الأحداث الجارية عن قرب ، حيث كان يزود بالتقييمات السياسية التي أعدها أبرع الخبراء السياسيين في الوزارات والمؤسسات الأمريكية التي تحصل على مكافآت مالية من إيران .

وقد حاول الشاه ، أن يوضّح لزائريه نقطتين أساسيتين :

الأولى ، أن الاتحاد السوفيتي كان لا يزال مستمراً في محاولته للوصول إلى مياه الخليج الدافئة ، وهو حلم حكام روسيا منذ أيام بطرس الأكبر .

الثانية ، أنه بنفس القدر الذي يعلمه الإيرانيون تماماً ، يطمع السوفيت في بترول إيران ، وليس هناك من يراقب التنبؤات الخاصة ، بعرض مستقبل البترول وطلبه في السوق العالمية أكثر منه ، فآخر تقييمات الموقف حسب تقارير المخابرات في ذلك الوقت تبين أن الاقتصاد السوفيتي بحلول عام ١٩٨٥ ، لا بد وأن يعتمد على بترول إيران أو على أي مصادر رئيسية أخرى في الشرق الأوسط .

وعندما وصل الحديث إلى مناقشة دور إيران ، بصفتها الدرع الواقي الأساسي ضد السوفيت في المنطقة ، أشار الشاه إلى عدد من المميزات الهامة منها ، وفي المقام الأول أن إيران ليست بلداً عربياً ، لذا فهي ليست جزءاً من الصراع العربي الإسرائيلي المتشابك ، إلا أنها بلد إسلامي ويمكنها أن تلعب دوراً قيادياً بالنسبة للدول الإسلامية الأخرى . هذا بالإضافة إلى أنها بلد ثري مزدهر يحكمها رجل شغوف لأن يضطلع بهذا الدور .

لكن الشاه أكد أنه على استعداد خاص ليلعب هذا الدور ، شريطة أن يكون شريكاً لا تابعاً ، وقد أظهر ضيقه ببعض أشكال التدخل الأمريكي في شؤون بلده ، نتيجة للانقلاب المضاد ١٩٥٣ ، وبدأ في وضع نهاية لها . فتوقف ـ وقد كان ذلك قد جرى لبعض الوقت ـ عن مقابلاته الأسبوعية مع ممثل وكالة المخابرات المركزية في إيران ، وطلب أن تسحب الوكالة كل الرسميين الذين عيِّنوا مستشارين وخبراء في كل الوزارات والجيش بعد عام ١٩٥٣ ، كما طلب أن تكون كل الاتصالات في المستقبل بين طهران وواشنطن من خلال قناة مباشرة تصل بين قصر نيافاران ومجلس الأمن القومي الذي يرأسه كيسنجر . تم ذلك بالفعل لكنه

أدى فيما بعد ، إلى نتيجة عكسية بالنسبة للشاه ، حيث أنه خلال الشهور الأخيرة لنظام الشاه لم يكن في مقدور وكالة المخابرات المركزية أن تحصل على المعلومات التي كانت تحتاج إليها ، والتي كان من الممكن عن طريقها أن تتوصل واشنطن إلى تقدير دقيق لما يحدث ، وربما كان من المحتمل إنقاذ عرش الشاه .

ولعل أصدق دليل على أن الشاه لم يعد الشريك الضعيف في التحالف مع أمريكا ، انه في الوقت الذي كان يضع فيه الضوابط لمدى التدخل الأمريكي في شؤون إيران ، كانت إيران تتدخل وبشكل متزايد في شؤون أمريكا الداخلية . إذ أن الأموال الإيرانية في ذلك الوقت وجدت طريقها إلى عدد من الشركات الأمريكية ، وحيث أن العقود الإيرانية أصبحت مربحة إلى هذا الحد ، فقد ظهرت جماعة ضغط إيرانية كبيرة في الولايات المتحدة (لوبي) ، لها تشعبات في الأعمال المصرفية والبترول والتسليح . وتتمثل مدى قوة الاتصالات الإيرانية الجديدة في حدثين : فقد تم تعيين زوجة السناتور الجمهوري جافيتس مستشارة للعلاقات العامة لشركة الخطوط الجوية الإيرانية طبقاً للتعليمات التي وردت في خطاب مكتوب وموقع من مدير مكتب الشاه الخاص . والأمر الثاني هو إرسال تبرعات للبيت الأبيض مباشرة للمساعدة في حملة إعادة انتخاب نيكسون ، كما أثبتت القرائن الموثقة فيما بعد .

* * *

ولم يضيع الشاه الوقت في إثبات أنه سيقوم بدوره كشرطي في منطقة الخليج بشكل جدّي . وأنه حلَّ محل بريطانيا كحامٍ للمنطقة بشكل عملي ، وفي أول نوفمبر ١٩٧١ وهو اليوم السابق لانتهاء الضمانات البريطانية للإمارات المتصالحة والتي استمرت فترة طويلة ، تحركت القوات الإيرانية واحتلت ثلاث جزر صغيرة في الممرات العربية المؤدية لمضيق هرمز ، وهي أبو موسى وجزيرتا طنب ، التي كانت تابعة للشارقة ورأس الخيمة لوقت طويل ، لكن الشاه ادَّعى ملكيتها لإيران . ومع أنه من الصعب أن نصنف هذا التحرك بأنه عملية عسكرية ، إلا أن امتداد نفوذ الشاه أكسبه الكثير من الرضا .

وبعد التفاهم مع نيكسون وكيسنجر ، قامت قواته بالدخول في مهمة شاقة .

فقد كان هناك ثورة ذات اتجاه ماركسي يظهر لهيبها المكبوت في ظفار (سلطنة عمان) منذ عدة أعوام ، ولقيت هذه التورة تأييداً من جمهورية اليمن الشعبية (محمية عدن سابقاً) . وفي يوليو ١٩٧٠ استولى سلطان عمان قابوس بن سعيد على السلطة وأقصى أباه بانقلاب عسكري تم بتشجيع من البريطانيين . وفي عام ١٩٧٢ بدأ السلطان الهجوم على الثوار ، بعد أن دعم قواته المسلحة بالتعاقد مع ضباط وضباط صف وطيارين بريطانيين وباكستانيين . ولكن في نهاية عام ١٩٧٣ ، أصبح من المعروف أن القوات الإيرانية كانت مشتركة أيضاً وبشكل نشط في القتال هناك ولا يعرف أحد موعد وصولها على وجه الدقة ، وإن كان يبدو أن فرقة مدرعة وفرقة مظلات اشتركتا في الهجوم . ولم يبذل الشاه أي جهد في إنكار وجود قواته ، بل على العكس ، كان يسعده أن يعرف العالم أن الشرطي يؤدي مهمته .

وقد أظهر الشرطي نشاطاً متزايداً في منطقة أخرى ، وهي منطقة كردستان . ففي تقرير قدمه السناتور «بايك» للكونجرس الأمريكي عن (وكالة المخابرات المركزية ونشاطاتها عام ١٩٧٥) يعرض فيه أن رئيس وكالة المخابرات المركزية في إيران يقرر أن الملا مصطفى البرازاني قد اتصل به بالفعل في أغسطس ١٩٧١ ، طالباً العون في صراعه ضد الحكومة العراقية المركزية في بغداد ، ورغم أن البرازاني كان قد تلقى هو نفسه معونة من السوفيت وعاش في موسكو في الفترة من ١٩٤٥ ـ ١٩٥٨ ، إلا أنه كان يناشد الولايات المتحدة أن ترسل له العون ، على أساس أن الحكومة العراقية قد تحالفت مع السوفيت . وأوضح «بايك» في تقريره أن مندوب وكالة المخابرات في طهران ، كان قد أرسل إلى واشنطن في مارس ١٩٧٢ ، بتقارير عن احتياجات البرازاني ، ويوصي بضرورة تلبيتها .

وعندما تقابل نيكسون وكيسنجر والشاه أثار معهما قضية كردستان . وأوضح لهما أنه يرى ، مع تزايد التزاماته في الخليج فلا بد من تحييد العراق . ولذا فقد أكد للبرازاني أن الأمريكيين سيقدمون له المساعدة ، وأضاف بأنه إذا ظهرت أية مشاكل بخصوص تمويل هذه المعونة فإنه على استعداد لأن يصبح مسؤولاً عنها . وأخبر نيكسون الشاه ، بأنه سيبحث القضية باهتمام عند عودته لواشنطن .

في أول يونيو أعلنت الحكومة العراقية تأميم كل العمليات الخاصة بالبترول . وفي ١٦ يونيو اتصل نيكسون بالشاه ليخبره بأنه سيبعث إليه برسول يحمل معه رده على طلبه بخصوص الأكراد . كان الرسول هو جون كونالي ، الحاكم السابق لتكساس ، والذي انضم للحزب الجمهوري ، بالإضافة إلى كونه محامياً له صلات عديدة بذلك الثلاثي المتآمر ، شركات البترول ، شركات السلاح وأجهزة المخابرات الذي بدأ يسيطر على الموقف الدولي ، وبالمناسبة ما زالت سيطرته باقية .

قابل « كونالي » الشاه ، وقد بين تقرير « بايك » فحوى الرسالة التي أحضرها معه ، ومؤداها أن أمريكا على استعداد لمساعدة الأكراد ، إكراماً لحليف وفيّ (إيران) يشعر انه مهدد من قبل عدوه التقليدي (العراق) . ويبين التقرير أيضاً ان الأمريكيين كانوا يهدفون إلى تزويد الأكراد بالمساعدة التي تكفي لجعلهم مصدر قلق وضيق للعراقيين فحسب ، لا أن يحققوا انتصاراً كاملاً على بغداد ، الأمر الذي كان سيمكنهم من المطالبة بشيء من الاستقلال مما كان يسبب كثيراً من الحرج لإيران التي توجد فيها أقلية كردية كبيرة .

كيف يكون ذلك عند التطبيق ، هذا ما ظهر خلال عام ١٩٧٤ ، ففي فبراير من ذلك العام ، أبدى العراق كثيراً من العناد في محاولته لتعويق توقيع فك الاشتباك ، الذي كانت أمريكا تحاول عقده بين إسرائيل ومصر وسوريا بعد حرب أكتوبر . وقد أكد كيسنجر للمفاوضين المصريين عندما كان في القاهرة خلال يناير ١٩٧٤ ، انه لا يوجد مبرر للقلق : « فالشاه سوف يتولى أمر العراق » . وبعث كيسنجر رسالة إلى الشاه ، وبعد عدة أيام أذاعت وكالات الأنباء رسالة صادرة من إيران تقول : « أعلن متحدث عسكري إيراني اليوم أنه قد قتل عديدون وجرح واحد وثمانون شخصاً في اشتباك وقع على الحدود بين القوات الإيرانية والعراقية . ويقال ان العراقيين قد تركوا حوالى أربعة عشر قتيلاً في أرض المعركة . وقد جاء في بيان عراقي أن خسائر الطرفين كانت فادحة ، كما قال البيان ان القوات الإيرانية بدأت تحتشد على الحدود ، وان وحدات من الطيران الايراني قد اخترقت المجال الجوي العراقي » .

وبدأت قصة إيران والأكراد تأخذ اتجاهاً مغايراً عام ١٩٧٥ . فقد بدأت

علامات خيبة الأمل على الشاه ، إذ يبدو أن الأكراد كانوا أدوا دورهم ، فبدأت تظهر بين الأكراد في الجانب الايراني علامات التذمر والسخط ، وهذا آخر شيء كان الشاه يوده أن يحدث . .

في ذلك الوقت برز صدام حسين باعتباره الرجل القوي في العراق ، وكان من المقرر أن يحضر والشاه اجتماع منظمة الأوبك في الجزائر في مارس ١٩٧٥ ، ومن خلال المساعي الحميدة للرئيس هواري بومدين ، رتب اجتماع للزعيمين تم الاتفاق فيه على أن يقطع الشاه كل المعونات لأكراد العراق . وقد باغت هذا التحول المفاجئ الجميع بمن في ذلك الأكراد وكيسنجر الذي عبر عن شكواه للشاه من هذا التحول ، بأنه قد ترك بين يديه أسلحة سوفيتية بحوالي ٢٥ مليون دولار (إذ كان قد تم الحصول على هذه الأسلحة من خلال تجار السلاح في شرق أوروبا) .

* * *

وعقدت مع الشاه لقاء صحفياً آخر ، وكان هذه المرة عندما كان في أوج قوته . كنا على اتصال في عدد من المناسبات . لكن هذا يعد أول لقاء لنا بعد خمسة وعشرين عاماً . وأعتقد أنه من المفيد هنا ، أن أورد جزءاً من محتوى هذا اللقاء ، لأنه لا يبين الخطوط الأساسية للسياسة التي كان يتبعها الشاه فحسب ، بل يبين أيضاً كيف تغير الرجل خلال ربع قرن .

كانت لقاءاتي الأولى تتم في قصر المرمر وسط طهران ، لكن هذه المقابلة تمت في قصر «نيافاران» في شمزان ، حيث يطل مكتب الشاه على بانوراما للعاصمة بأسرها تخطف الألباب وتمتد عبر البصر ، ولاحظت أن طقوس البلاط أصبحت أكثر تركيباً ، عما أذكره ، ورغم أن الشاه حياني بحرارة إلا أنه كان يوجد ثمة تحفظ في سلوكه أكثر من ذي قبل . وفي بداية حديث صحفي كان من المتوقع له أن يطول ، أخبرني الشاه أن الوقت المحدد للحديث غير محدود ، وانه قد أخبر كبير الياوران بألا يقاطعه أحد مهما كانت الظروف . لم يتردد الشاه في إجابته على أسئلتي سوى مرة واحدة عندما سألته إذا كان من الممكن ألا أستخدم عبارات التشريف مثل : «يا صاحب الجلالة الأمبراطور» طوال فترة حديثي

معه . فوافق ، لكن بعد فترة صمت قصيرة ، مما يدل على أن تنازله هذا لم يكن متفقاً تماماً مع رغبته .

بدأت الحديث باسترجاع الظروف التي تقابلنا فيها للمرة الأولى ــ اغتيال رئيس وزرائه ، تأميم البترول ، وتحدي مصدق والمجلس له بشكل علني .

فذكرني مبتسماً بعنوان الكتاب الذي كنت قد كتبته بعد عودتي للقاهرة ، «**إيران فوق بركان**» . ثم انفرجت أساريره وقال : «إيران ليست الآن فوق بركان ، لقد رأيتنا في الوقت الذي كنا فيه موضع الاختبار ، ولكننا اجتزناه الآن بنجاح . في ذلك الوقت كان الجميع يختبرونني . الإنجليز حاولوا اختباري من خلال مصدق (من الواضح أنه كان لا يزال ينظر إلى مصدق على انه رجل انجلترا) . وحاول الروس اختباري من خلال بيشفاري ، والأمريكيون حاولوا اختباري ، حينما فرضوا «علي أميني» رئيساً للوزراء . كان مصدق في البداية رجلاً طيِّباً ، لكنه انتهى شريراً ، وأعتقد ان فاطمي هو شيطانه العبقري» . فقاطعته قائلاً انني كنت معجباً بمصدق ، وكنت أعتبر فاطمي صديقاً . لكن الشاه أصرَّ على قوله : «كان مصدق مخلصاً ، بينما لم يكن فاطمي كذلك» . وأضاف بأنه يعلم بأن أسرة فاطمي كانت لا تزال تتلقى أموالاً في منفاها في اصفهان من بعض المصادر .

ولم نضيع وقتاً طويلاً في استعراض الماضي وانتقلنا إلى الحاضر . فأخبرت الشاه ان هناك ثلاثة أمور استرعت انتباهي على وجه الخصوص وهي التي أريد أن أسأله عنها . الأمر الأول هو السلاح . «فكل يوم تشتري إيران المزيد والمزيد من السلاح ، وسيصل الإنفاق على السلاح هذا العام ٤ بليون دولار . لكن من هو العدو الذي تسلح إيران نفسها ضده . في رأيي أن إيران لا يمكن أن تستخدم هذا السلاح ضد الاتحاد السوفيتي . لأنه مهما بلغ حجم الأسلحة التي تحصل عليها إيران فإنها لا يمكن أن تكون نداً للاتحاد السوفيتي بسبب عدم تكافؤ قوى البلدين» .

أما سؤالي الثاني فكان ينصب على عُمان ، إذ يوجد هناك قوات إيرانية تحارب ضد الثوار في ظفار ، جنباً إلى جنب مع قوات السلطان . وأنا هنا لا أبدي رأياً في الثورة ذاتها ، لكن إرسال القوات الإيرانية هو بالتأكيد تدخل في الشؤون الداخلية لبلد عربي . أما سؤالي الثالث فيتعلق بكردستان . وكما أرى ، فلقد

كانت إيران هي القوة الدافعة وراء تمرد الأكراد . على الأقل في مراحلها الأخيرة . «لكن بعد اتفاقك الأخير مع صدام حسين في الجزائر ، سحبت كل مساعدتك وسقط التمرّد . ألا يثبت هذا أنك المسؤول عن استمرار هذا التمرد» .

أصغى الشاه بانتباه إلى أسئلتي ، ولم يتحرك سوى مرة واحدة ليثبت نظارته وقال : «سأجيب على أسئلتك الواحد تلو الآخر» . أولاً بخصوص السلاح . الإجابة ، نعم نحن نسلح أنفسنا . أجل وستصل مشترياتنا من السلاح هذا العام إلى ٤ بليون دولار . وستزيد هذه الكمية في العام القادم والعام الذي يليه حتى تصل في النهاية إلى ٨ بليون دولار .

وسنحتفظ بهذا المعدل لعدة سنوات . تسألني عن الغرض من هذه الأسلحة . وإليك الإجابة . لقد حصلنا على هذه الأسلحة لأننا نريد أن نكون أقوياء جداً في المنطقة التي نعيش فيها . هل تريدنا أن نكون ضعفاء ؟ هل يجب أن نظل ضعفاء لأن هذا سيدخل السعادة على العرب ؟ . لا يمكن لأي بلد أن يكيف سياسته الدفاعية بما يتفق مع مخاوف الآخرين .. (في هذه اللحظة ، لم يسعني إلا أن أشعر بأن الشاه على الرغم من أنه لم يتغير كثيراً من الناحية الجسمانية إلا أنه كان شخصاً جد مختلف عن الشاب الحائر الذي تحدث معي بكثير من الصراحة عام ١٩٥١ عن أبيه وأخواته ، وعن إصراره أن يبني لنفسه مكاناً في قلب شعبه) .

ثم استمر في حديثه «تسألني ضد من ستوجه هذه الأسلحة ، أتظن انها موجهة ضد العرب . أعتقد ان موقفي تجاه البحرين كاف ليقضي على هذه الفكرة . وعلى الرغم من اننا نعتبر البحرين إيرانية إلا انا لا نرغب في ضم أراضٍ تكون القوة فقط هي السبيل إلى الاحتفاظ بها . ويتهم البعض إيران بأن لها مخططات توسعية في الإمارات . لكن ماذا يمكن للإمارات أن تقدم لنا ؟ هل نحن نريد بترولهم ؟ وما هي المبالغ التي يتحصلون عليها ؟ بليونان ، ثلاثة بلايين ، أربعة بلايين في العام ؟ هذا مبلغ تافه بالنسبة لنا .

«سأعطيك فكرة واضحة عن سياستنا الدفاعية . نحن نعيش في منطقة ، وكما سميتها انت نفسك في إحدى مقالاتك الأسبوعية حسب ما أذكر ، مركز الجاذبية في العالم . وأنا أنتمي لهذه المنطقة ، وأمتلك حصة فيها وأنوي الاحتفاظ

بها . ولي مهمة فيها أنوي القيام بها ، ولي سياسة أنوي اتباعها . ولا يمكن أن يكون هناك حصة أو مهمة أو سياسة لا تساندها القوة العسكرية . فالقوة العسكرية ستستخدم ضد أي تهديد من أي مصدر . وإذا كان التهديد ممن هم أقل منا قوة ، فيمكننا أن نتكفل به كما يمكننا أن نواجه تهديد من هو ند لنا . لكن التهديد من قوة أعظم ، فهذا شيء آخر في هذه الحالة ، فأنا أعتبر قواتنا العسكرية بمثابة « ترباس » على الباب ، يمكنه الصمود بما فيه الكفاية حتى يخف أصدقاؤنا لمساعدتنا .

« والقوات الجوية الإيرانية ينبغي أن تكون من القوة بما فيه الكفاية لتحمي المنطقة كلها من الخليج الفارسي حتى بحر اليابان . فالهند في طريقها للانهيار . وستصبح الهند وباكستان الأسواق الطبيعية لمنتجات إيران الاقتصادية . ، لكني سوف أحمي باكستان ضد العدوان الهندي . فأنا ضد تقسيم باكستان ، الهند ترغب في ذلك ، وأنا أعارضها » . ! !

ووجهت له سؤالاً عن الأسلحة النووية فقال : « في الوقت الحالي أنا لا أمتلك أسلحة نووية ، فهي مكلفة للغاية ، وليس لدينا الصواريخ أو الطائرات التي تحملها ، ولكن هناك شيء واحد أحب أن أؤكده لك ، بأن إيران لن تكون آخر بلد في المنطقة النووية » .

ثـم انتقل بعد ذلك إلى سؤالي الثاني عن عمان فقال : « نعم هناك بعض قواتي تحارب في عمان . أجل ، تحارب جنباً إلى جنب مع قوات السلطان قابوس . فالثورة في ظفار شيوعية ، وأنا ضد الشيوعية في المنطقة . وهذه ليست مسألة عقيدة لكنها مسألة أمن » . ثم ذهب إلى مكتبه وعاد بخريطة وقال لي وهو يشير إلى مضايق هرمز « انظر ، هذا هو منفذي إلى العالم ، هذا هو الممر الذي يسلكه بترول إيران ، بما يساوي ٢٠ مليون دولار في اليوم . ثم تنبَّه إلى أنه لا يزال يحسب القيمة بالأسعار القديمة . ماذا أقول ؟ بل أكثر بكثير من ذلك ـ مائة مليون ـ بل مائة وعشرون مليوناً من الدولارات تمر كل يوم من خلال هذه القناة الضيقة . وبالتالي يمكن لأي فرد أن يعطل الملاحة هناك لمجرد أن يلقي بحجر . فهل يتوقع مني أن أسمح بقيام نظام شيوعي على المضايق ، لن أسمح بذلك على الإطلاق ، فمضايق هرمز هي عصب الحياة بالنسبة لإيران ، لذا حينما طلب مني السلطان المساعدة قدمتها

له . وأخبرته أنني لا أريد لقواتي أن تبقى هناك . فالثورة في ظفار ليست بالشيء الضخم إنها مجرد شرارة وأنا أريد أن أطفئ الشرارة قبل أن تصبح لهيباً ، وحسب معلوماتي فإن عدد الثوار لا يزيد عن خمسمائة أو ستمائة ثائر » . فقاطعته لأقول انني كنت في مسقط مؤخراً ، وتكوّن لدي الانطباع بأن عددهم قد بلغ أضعاف العدد الذي ذكره ، وإلا ، لِمَ استمرت الثورة طوال هذا الوقت ، ولِمَ أرسل هو مثل هذه القوة الكبيرة لتتعامل معها ؟

قال الشاه : «أنت تسيء فهمي . إن حجم القوة التي أرسلتها إلى ظفار لم يقررها مدى اندلاع الثورة ، بل قررتها أهمية مضايق هرمز بالنسبة لي كما أن الغرض من القوة هو أن أظهر مدى إصراري على عدم السماح بقيام نظام شيوعي هناك . وقد قمت بحثّ بعض أصدقائي العرب على أن يتكفلوا بهذه المشكلة ، ولقد حاولوا ، لكنهم لم يحرزوا أي نجاح ، لذا فقد ترك الأمر لي لأفعل شيئاً . هل يتسم حديثي بالصراحة معك ؟ (كان ذلك إجابة على سؤالي الذي طرحته عليه في بداية الحديث . فلقد أوضحت له انني أحب في مثل هذه اللقاءات أن أعرف درجة الصراحة التي سيدار بها الحديث ـ خمسون في المائة ؟ أو خمس وسبعون في المائة ؟ أو مائة في المائة ؟ وقد اختار الشاه المائة في المائة) .

وهكذا وصلنا إلى السؤال الثالث بخصوص كردستان . ومرة أخرى قال الشاه ان حديثه سيتسم بالصراحة مائة في المائة . «بالتأكيد لقد ساعدنا الثورة الكردية ، وحتى المرحلة الأخيرة ، كنا الوحيدين الذين نمدهم بالمساعدة . وعندما أوقفنا مساعدتنا انهارت الثورة . فلعدة سنوات كانت الحكومات العربية تضايقنا بدعاياتها العدائية ومحاولاتها التخريبية ، فوجدت ثمة إمكانيات في قلاقل كردستان ، وبعد التفكير في الموضوع قررت مساعدة الأكراد» . وسألت الشاه عن الوقت الذي استغرقه اتخاذ هذا القرار . فقال : «لقد فكرت فيه لمدة ساعة تقريباً . ومن الواضح انني لم أكن أرغب في بعث المسألة الكردية ، فلدينا أقلية كردية كبيرة في إيران ، لكني أردت أن أصفع الحكومة في بغداد على وجهها . عندما توقفوا عن مضايقتنا توقفنا نحن عن مضايقتهم . لقد كلفتنا عملية كردستان ٣٠٠ مليون دولار ، وهذا مبلغ ضخم حتى أنفقه ، لكن كان عليَّ أن أنفقه . أنا لا

أحاول إخفاء أي شيء . ولا ينبغي على إيران أن تخفي أي شيء مطلقاً . فشاه إيران لا يتوارى خلف أحد ، ونحن نخبر كل شيء عما ننوي فعله ، ونفعله » .

* * *

وانتقلنا إلى موضوع آخر ـ التعاون بين السافاك وجهاز المخابرات الإسرائيلي المعروف بالموساد . وبهذا الخصوص تحدث الشاه بصراحة غير عادية إذا ما وضعنا في الاعتبار أنه يتحدث إلى صحفي عربي ، فقال : «ان تعاوننا مع إسرائيل لا يقتصر على المخابرات فقط ، بل إنه أوسع من هذا بكثير ، فلقد أرسلت مجموعات من كل أسلحة الجيش وفروع الإدارة المدنية للتدريب في إسرائيل» ثم أضاف وربما لأنه شعر أن هذا الأمر يحتاج إلى شيء من التبرير : «دعني أسألك سؤالاً ، وقد كنت صديقاً لجمال عبد الناصر ، هل في إمكانك أن تخبرني لماذا اختلفت معاملته لتركيا عن معاملته لي ؟ فمنذ إنشاء إسرائيل كانت لتركيا علاقات دبلوماسية معها على مستوى السفراء . ولقد كانت علاقتنا بإسرائيل على مستوى محدود للغاية ، لكن عندما زدنا من هذه العلاقة ، والتي لم تصل إلى مستوى السفراء ـ غضب عبد الناصر غضباً شديداً ، وقطع العلاقات الدبلوماسية معنا ـ لماذا لم يفعل نفس الشيء مع تركيا ؟ »

قلت : «لقد أقامت تركيا علاقاتها مع إسرائيل قبل مجيء عبد الناصر للسلطة . وكانت سياسته أن يبقي الحصار حول إسرائيل . لذا كان يقف ضد أي بلد يقيم حلقات اتصال مع إسرائيل . ولقد أدارت تركيا ظهرها للعالم العربي منذ أمد طويل ، عندما كان أتاتورك يطمح في أن يجعلها جزءاً من أوروبا . وعلاقاتنا بتركيا كان يشوبها الإبهام ، لكنها كانت قوية دائماً مع إيران . وكان عبد الناصر يخشى أن لو كسرت إيران حلقة الحصار حول إسرائيل ، فإن هذا سيكون بمثابة سابقة للدول الإسلامية الأخرى مثل أندونيسيا والملايو وباكستان ، يمكنها أن تتبعها . كانت المسألة مسألة مبدأ مثل مبدأ هالشتين في المانيا الغربية الذي كان ينص على أن أي بلد تعترف بالمانيا الشرقية ستقطع علاقاتها بالمانيا الغربية بشكل آلي» .

قال الشاه : «أنا لا أستطيع أن أقبل تفسيرك . وأعتقد ان سفيركم في طهران

أقنع عبد الناصر بأن نظام الحكم هنا ، كان على وشك الانهيار* . وعلى أي الأحوال فعندما أصبح عبد الناصر عدوي تصرفت حسبما يقول المثل القديم «عدو عدوي صديق لي» . لكن الأوضاع الآن اختلفت . هل تعلم ان الصحافة الإسرائيلية تشن الآن حملة : هجوم شديد ضدي شخصياً ؟ ولقد أخبرت الإسرائيليين الذين أتوا إلى هنا لمقابلتي ، أنه لا يمكنهم أن يتوقعوا الاستمرار في احتلال الأراضي العربية بالقوة . وإذا أرادوا ذلك ـ فعليهم أن يصبحوا أمة تعدادها عشرون أو ثلاثون مليوناً بدلاً من عددهم الحالي ـ اثنين أو ثلاثة ملايين . ولسوء الحظ لم يستمعوا لما أقول» .

وقد قاده الحديث عن إسرائيل إلى الحديث عن الولايات المتحدة والبترول فقال : «يتهمني البعض بأنني ألعوبة أمريكية . ولكن فلتعطني سبباً واحداً يجعلني أقبل القيام بهذا الدور . فلا يمكنك أن تتخيل عدد المرات التي اصطدمت فيها مع الأمريكيين ، وآخرها كان بخصوص منظمة الأوبك . فقد كانوا يريدون تحطيمها من الداخل وقاموا بمحاولة في هذا الاتجاه فأصاب السعوديين الذعر ، وكان عليَّ أن أتحمل عبء المواجهة . إنني أمارس سلطتي بإرادتي . فلماذا أمارس السلطة لحساب طرف آخر ؟ . .»

واستمر الشاه قائلاً :«لدينا الآن ثروة ضخمة من البترول لكن التحدي الذي يواجهنا الآن ، هو كيف نستخدم الوقت والثروة لصالحنا ، لكي نبني قوة أمتنا . الغرب يقوم بحملة كراهية ضدنا ويتهموننا بأننا سبب التضخم الذي يعانون منه . فهم لم يستطيعوا أن يدركوا أن أزمة البترول ليست هي السبب المباشر في التضخم ـ فلقد كان معدل التضخم في الغرب عام ١٩٧٤ ، ٣٠ ٪(ثلاثين في المائة) في السنة ولم يتسبب رفع أسعار البترول إلا في ٢ ٪ منها . وفي الواقع نحن لا نزال نبيع بترولنا بأسعار رخيصة للغاية ، وأنا أرى أنه لا بد أن تستمر أسعار البترول في الارتفاع ـ ليكون هناك نوع من التوازن بين ثمن البترول الذي نصدره وثمن السلع

---

* كان هذا بعيداً كل البعد عن الحقيقة ، فالسفير في ذلك الوقت كان يحاول عن صواب ، أن يبقي على العلاقات الطيبة بين بلده والبلد التي يمثلها فيها .

التي نستوردها من العالم المتقدم . وهذا هو العدل بعينه . ولعل هذا يشجِّع الغرب المتفسخ لاكتشاف مصادر جديدة للطاقة ، حتى لا يترك إيران في النهاية خالية من كل شيء إلا بمجموعة من آبار البترول الفارغة . البترول بالنسبة لنا ليس مجرد دخل ، وإنما هو رأس مال . ولن أدع العالم المتقدم يعيش على حساب رأسمالنا » .

قلت : «والآن ، هناك سؤال ، أنا متلهف لطرحه عليك ، ألست مديناً لنا نحن العرب بالظروف التي جعلت هذه الزيادة في أسعار البترول ممكنة ؟» فأجاب الشاه : «هذا صحيح إلى حد ما ، لقد ساهمتم بالفعل في خلق الظروف المؤاتية ، أدت إلى اقتراب سعر البترول إلى مستواه المعقول ، ورغم ذلك فهو ما يزال رخيصاً جداً» ..

وأردف الشاه قائلاً : «أريد أن يرث ابني بلداً أفضل من ذلك الذي ورثته عن والدي ، فعندما كنت في سنِّه سمعت أصواتاً تهمس في أذني عن قدر إيران . وأنا لا أريد أن يرث ابني أحلاماً بل تحقيقاً لهذه الأحلام . إن ثروة بلدي لا تكمن في تصدير البترول الخام ، إنما في البتروكيماويات . يجب أن تصبح إيران مصنعاً ضخماً للبتروكيماويات . فأنا إذا صدرت البترول فسأحصل على ٢٠ دولار للبرميل ، وإذا صدرت البتروكيماويات فسأحصل على ١٢٠ دولار للبرميل وأنا أستطيع شراء التكنولوجيا . فأنا لست مثل اخوانكم العرب الذين ينفقون أموالهم في شراء العمارات في لندن وباريس ونيويورك . وإذا كان لي أن أستثمر أموالي في الخارج فإني أستثمرها في التكنولوجيا . إن برنامجي يتضمن أن تنتج إيران ١٢ مليون طن من الحديد والصلب في العام . وخلال عشر سنوات أود أن يصل مستوى المعيشة في إيران إلى نفس مستوى أوروبا . وخلال عشرين عاماً سنكون في مستوى الولايات المتحدة . إن معظم العرب لا يفهمون أفكاري هذه ، لكن قليلاً منهم بدأوا يقدرونها حق قدرها» .

* * *

وسألني الشاه رأيي في الموقف الدولي فأوضحت له ما أراه على أنه التغيرات الأساسية وهي ــ تقلص نفوذ الغرب منذ عام ١٩٥٥ ــ واختفاء سحر الماركسية ،

(وهنا قاطعني الشاه يقول : «نعم ، لقد كنت أقول دائماً بأن أي شخص ليس شيوعياً في سن العشرين فلا قلب له ، وأي شخص يظل شيوعياً حتى سن الأربعين لا عقل له» . وكان بالفعل يعتقد أنه هو الذي صك هذا الكليشيـــه .) وبالتحديد الذي فُرِضَ على القوة الأمريكية ، وظهور مشكلات جديدة مثل تلوث البيئة والفضاء ، والتحكم في الجينات ، وهكذا . وقد دفع هذا الشاه إلى تقديم عرض شامل للوضع العالمي ، وهي من الأشياء التي يقوم بها الشاه على أكمل وجه ويستمتع بها .

قال الشاه : «لقد اتفقنا على أن منطقة الخليج ستكون مركز الجاذبية والصراع من أجل السيطرة على العالم خلال العشرين عاماً المقبلة . والمحيط الهندي فراغ سيحدث فيه صدام بين القوتين الأعظم ويجب أن يكون لنا دورنا في هذا ، وانني أتنبأ بفترة طويلة من الفوضى في شبه القارة الهندية . كما أن جنوب شرق آسيا لا يزال في مرحلة التكييف بعد الحرب الفيتنامية . وقد كنت أخشى أن تتخذ أمريكا موقفاً انعزالياً بسبب فيتنام ، ولو كان هذا قد حدث لحطم الأمريكيون أنفسهم ومعهم بقية العالم خلال عشر سنوات . لذلك حاولت أن أجعلهم يتدخلون في شؤون العالم قدر استطاعتهم ، وأعتقد انهم بدأوا يخرجون من الصدمة التي أصيبوا بها في فيتنام .

«إلا أن انسحاب الأمريكيين من جنوب شرق آسيا قد ترك فراغاً لا يمكن أن تشغله إلا اليابان . واليابان في رأيي لغز . والمستقبل وحده كفيل بأن يظهر مدى استجابتها ، لكني أعتقد أن اليابان ستصبح ولا بد قوة عسكرية مرة ثانية ، والسؤال الوحيد هو كيف ومتى ؟

«ودعنا نتطلع إلى الجنوب والغرب ، إلى العالم العربي . فالعرب مستغرقون تماماً في الصراع العربي الإسرائيلي . أفلا يوجد حل لهذه المشكلة ، ولقد بدأت التفكير في إيجاد نوع من التوازن الجديد للقوى في المنطقة يستند إلى مثلث إيران ومصر والجزائر ، فالمسافة بين طهران والقاهرة هي نفس المسافة تقريباً ما بين القاهرة والجزائر . من الواضح ان إيران ليست عربية ، ولكن لا بد أن أسألك هل مصر عربية ، هل الجزائر عربية ؟ أعلم أنك ستدافع عن القومية العربية التي

تؤمن بها ، لكن أليس من الواجب أن نفكر بجدية في توازن جديد يستند إلى الإسلام ؟» فتدخلت لأقول انني أعتبر مصر والجزائر بلدين عربيين بكل تأكيد .

ثم سألني : «هل تريدني أن أنهمك في القيل والقال ؟ ثم انتقل مع ذلك إلى تقويم بعض الشخصيات : «لقد قابلت الملك خالد مؤخراً لأول مرة . ويبدو انه شخص حسن النية . لقد أخبروني ان الأمير فهد هو القوة الحقيقية وبإمكانه أن يفعل الكثير لكنني لا أدري . إذ يجب أن يكون هناك دليل على ذلك ، أما السادات فصديق حميم لي ، قلبي معه . وأنا أفكر فيه كل صباح . لقد اجتزت كل الاختبارات التي مرت بي ولكني أعلم كم من الاختبارات العديدة عليه أن يجتازها . أما بومدين فرجل ذكي ، لكن أهدافه أكبر منه . فهو يخطط لدور كبير للجزائر في أفريقيا وهذا شيء طيب على شرط أن يوجه التوجيه الصحيح . إذ يجب علينا كلنا أن نفكر في أفريقيا . لم أقابل القذافي أبداً ، ولا أعتقد أنني أفهمه . على أية حال ، يكفي العالم العربي قذافي واحد .

«أما غرب أوروبا فجيسكار مثل جيد للقيادة الجديدة التي بدأت في الظهور . وربما تكون التقاليد البيروقراطية الفرنسية من العراقة بحيث تجعل من الصعب على الفرنسيين الاستغراق في الأحلام ، لكننا سنزودهم بالرؤى . أما الملك خوان كارلوس فهو شخصية مرموقة . وانني أشعر بالأسف لأن فرانكو كان أنانياً فيما يختص بالسلطة ولم يسمح لخوان كارلوس قط بتجربة ممارسة السلطة أثناء حياته . أما بريجنيف فهو صاحب شخصية قوية ، لكنها واحدة من تلك الشخصيات التي لا تصلح إلا لفترات الانتقال . علاقاتنا الآن طيبة مع الاتحاد السوفيتي . فلقد وجدنا أساساً معقولاً للتعاون معهم» .

وتوقف الشاه عن الكلام ليسألني عما فعلته في إيران وماذا رأيته . فذكرت له بضعة أشياء من غرس الغابات والمشروعات الثقافية ، وهما شيئان كنت أعلم اهتمام الأمبراطورة بهما ، لكن يبدو أن الشاه لم يكن حريصاً على مشاركتها له في الأضواء ، لأنه عندما أعيد طبع حديثي ني جريدة اطلاعات ، كانت هذه إحدى الفقرات التي حذفت . وسألت الشاه عن الشباب الإيراني ، ولماذا يتظاهر الطلبة الإيرانيون ضده كلما ذهب إلى الخارج ؟ فرفض كل ما جاء بالسؤال

وأصدر صوتاً عبرّ به عن سخطه وازدرائه وقال : «كلهم شيوعيون .. شيوعيون أو يتقاضون مرتبات من الشيوعيين» .

فسألته : «لكن ماذا عن تقارير منظمة العفو الدولية ، عن التعذيب الذي يقوم به السافاك ، والتي نشرت في «الصنداي تايمز» . فكانت إجابته «الشيوعيون مرة أخرى» . فاعترضت قائلاً اني أعرف المسؤولين عن الصنداي تايمز ، وبالتأكيد لا يمكن للشاه أن يقول انهم شيوعيون . فقال : «ربما ، لكني أعلم أنه قد دفع مليون دولار لنشر هذا التقرير» .

ان التحول الذي أحدثته خمسة وعشرون عاماً كان مدهشاً حقاً . فالشاب الصغير القلق أصبح الأوتوقراطي الواثق من نفسه ، والأمير الخائف الذي كان يتحسس طريقه خلال حقل الألغام السياسية ، قد أصبح السياسي الذي يعتبر نفسه رجل دولة ، تقف وراءه خمسة وثلاثون عاماً من الحكم ، وتلميذ الأمريكيين أصبح يتعامل معهم الآن معاملة الند للند ، وطموحه أكبر من طموحهم ومفاهيمه الدولية أكثر عمقاً واتساعاً . لكن الشاه لم يتغير كثيراً من ناحيتين : كان لا يزال يعتبر التهديد الأساسي له هو الشيوعية والشيوعيون ، كما كان لا يزال لا يثق كثيراً في ساسة بلده .

* * *

كان دور الشاه كشرطي دولي قد وضع موضع التطبيق في سياق غريب للغاية ، اتضح من خلال حديثه معي . لكنه لم يذكر علاقته بما يدور نظراً لشدة سريته . وكان ذلك يختص بأفريقيا والعربية السعودية وفرنسا ، وتلك التركيبة الجديدة المكونة من البترول والسلاح والمخابرات ، التي سرت عدواها آنذاك إلى إيران ولعديد من الدول العربية كذلك .

كانت أنظار الجميع مركزة وقتها على أفريقيا . فمنذ أن نفي الشاه رضا إلى جنوب أفريقيا ، أظهر الشاه وآخرون من أعضاء أسرته اهتماماً بهذا البلد ، اما لأسباب عاطفية أو عملية ، وأصبح لديهم بالتالي استثمارات ضخمة هناك . كان الشاه أكبر مساهم في شركة الترانسفال للتنمية . وكان الشاه شأنه في ذلك شأن

حكام جنوب أفريقيا الذين كانت تربطه بهم علاقات وثيقة ، قلقاً للغاية مما يسميه «انتشار الشيوعية» في أفريقيا ، وبسبب التدخل السوفيتي والكوبي في أثيوبيا وأنجولا ، وبسبب ازدياد حركات التحرر الوطنية ذات الاتجاه الماركسي في كل مكان ، كما كانت السعودية قلقة بنفس الدرجة بسبب التطورات الأخيرة في أفريقيا ، خاصة وانهم كانوا يفضلون محور الرياض ــ طهران ــ القاهرة ، على محور طهران ــ القاهرة ــ الجزائر الذي كان يدعو له الشاه .

وقد أصيب كل من الشاه والسعودية بخيبة أمل في الولايات المتحدة ، وضعفت ثقتهم في الرئيس فورد ، على حين كانوا يؤملون كثيراً في الرئيس جيسكار ، كذلك كان الرئيس السادات الذي طرد كل الخبراء السوفيت في يوليو ١٩٧٢ والذي أصبح معادياً للشيوعية تماماً بنفس درجة عداء الشاه والسعودية . وبدأت شبكة الاتصال الفرنسية في الظهور ، حين أخذت مصر تشتري السلاح من فرنسا بما في ذلك الميراج ٢٠٠٠ ، بأموال سعودية . كذلك اتضحت اهتمامات فرنسا بأفريقيا فقد حافظ الفرنسيون على وجود عسكري في بعض مستعمراتهم السابقة خاصة أفريقيا الوسطى وتشاد ، كما أن الصناعة الفرنسية كان لها حصة هائلة في الشركات التي تتعامل في اليورانيوم والكوبالت والنحاس والماس والذهب والمعادن الأخرى . ولا حاجة بنا للقول بأن شركات البترول كانت تراقب ما كان يجري في أفريقيا بنفس القلق والاهتمام الذي كان يتسم به موقف الحكومات .

وهكذا بدأت معالم تحالف جديد معاد للشيوعية . صمم أعضاؤه على أن يكونوا «أولياء أمور أنفسهم وليسوا عملاء لأمريكا» على أن هذه الرغبة الاستقلالية لم تثر استياء واشنطن بأي حال . فقد كان كيسنجر سعيداً للغاية بأن يرى أهدافه في أفريقيا تتحقق من خلال وكيل ، وفي الواقع فإن هذا كان كفيلاً بحل كثير من المشاكل بالنسبة له . فعندما حاول التدخل في أنجولا بشكل مباشر أوقفه الكونجرس ، أما الآن فتوجد جماعة لا يتحكم فيها الكونجرس ، وعلى استعداد لتمول نفسها بنفسها . كما كان دافيد روكفلر وبنك تشيس مانهاتن باستثماراتهم الضخمة في أفريقيا ، واعين بالتحالف الجديد سعيدين بوجوده .

* * *

وبعد الاجتماع الأول الذي تم في السعودية ظهر إلى الوجود ما أطلق عليه «نادي السفاري» ، وقد اختير هذا الاسم لأنه بدا للمشاركين في الاجتماع أن له نكهة خاصة تتلاءم مع روح أفريقيا وعالم المغامرات . وكان من ابتكار رجل مرموق هو «الكونت كلود الكسندر دي مارنش» ، رئيس هيئة أمن الدولة الفرنسية ومكافحة التجسس . كان «دي مارنش» شخصية قيادية . طويل القامة يتحدث الانجليزية بطلاقة . واشترك في المقاومة خلال الحرب . وقد مكّنه موقعه من الاتصال بكل أولئك الذين يحضرون إلى باريس لشراء الأسلحة أو لبيع البترول أو لتنسيق شؤون المخابرات أو لخليط من الأغراض الثلاثة كما هو الحال في معظم الأحيان . وكانت طبيعة عمله هي تأمين سلامة هؤلاء الناس ، وسرية وجودهم إذا كان ذلك لازماً ، ومعرفة طبيعة مهمتهم تماماً . وفي بعض الأحيان كان ينتاب «دي مارنش» قلق متزايد خشية سقوط الممرات البحرية لناقلات البترول في الشرق الأوسط إلى أوروبا في أيدي الأعداء ، فكان يزين مكتبه بعدد من الخرائط بها خطوط تزداد سمكاً لتظهر حجم الشحنات التي تقلها ناقلات البترول عبر القرن الأفريقي ورأس الرجاء الصالح . وكان من رأيه أن يتحد ، كل من يهمهم وقف المد الشيوعي ، لاتخاذ خطوات مشتركة . وقد اقتنعت خمس حكومات بوجهة نظر الكونت ، وهي فرنسا وإيران والسعودية ومصر والمغرب وتمت محاولة للاتصال بالجزائر منذ البداية ، لكن الرئيس هواري بومدين لم يستجب للمحاولة ورفضها .

وتمت كتابة اتفاق بين الحكومات الخمس والتوقيع عليه كما ينبغي فقام الشيخ كمال أدهم مدير المخابرات السعودية بالتوقيع نيابة عن السعودية ، والجنرال ناصري رئيس السافاك عن إيران ، ورئيس المخابرات المصرية نيابة عن مصر وأحمد الدليمي رئيس المخابرات المغربية نيابة عن المغرب . وقام الكونت دي مارنش نفسه بالتوقيع نيابة عن فرنسا . وقد وجدت نسخة من هذا الاتفاق في ارشيف السافاك بعد قيام الثورة .

بدأ الاتفاق بالنص على ما يلي : «أثبتت الأحداث الأخيرة في أنجولا وفي الأجزاء الأخرى من أفريقيا ، أن القارة ستكون مسرحاً للحروب الثورية التي

يحرض عليها ويدبرها الاتحاد السوفيتي ، الذي يقوم باستغلال الأفراد والتنظيمات التي تتحكم فيهم الايديولوجية الماركسية أو يتعاطفون معها » . وأهداف الاتحاد السوفيتي وافريقيا تتلخص في ، أولاً ـ التحكم في موارد القارة الخام و « بالتالي في صناعة وحياة أوروبا الاقتصادية والعالم الثالث » . ثانياً ـ التحكم في الطرق البحرية حول أفريقيا . ثالثاً ـ التحكم في الدول العميلة .

انتقلت الاتفاقية بعد ذلك للنظر في طرق وقف هذا التهديد ، ازاء ذلك لا بد أن يكون المشروع « عالمياً في مفهومه » يتبعه مركز للعمليات مؤهل لتقييم مجريات الأمور في أفريقيا ، والتعرف على مناطق الخطر ، والتوصية بطرق التعامل معها . ويضم المركز ثلاثة أقسام ـ قسم للسكرتاريا لمتابعة الشؤون الجارية . وقسم للتخطيط وقسم للعمليات . واختيرت القاهرة مقراً للمركز « لأسباب واضحة » وطلب من السلطات المصرية إعداد مكتب مناسب وأماكن للمعيشة . أما فرنسا فستزود المركز بالمعدات الفنية للاتصالات والأمن . أما رئاسة المركز فيتولاها ممثلو الدول الأعضاء بالتناوب كل عام . واتفق على جدول زمني يتم بمقتضاه قيام المركز بحلول أول سبتمبر ١٩٧٦ وتنتقل إليه هيئة الموظفين بعد اسبوعين .

وعقد « نادي السفاري » عدة اجتماعات في العربية السعودية وباريس وكذلك في المركز بالقاهرة . وقد أنفقت مبالغ طائلة للحصول على مبنى للمركز وملحقات له وفي إقامة شركات « للتمويه » وفي تركيب الخطوط الساخنة والأجهزة الحساسة الأخرى وخلافه .

كانت أولى عمليات النادي في الكونجو . فحينما هدد الجنرال بومبا بالاستيلاء على كاتنكا ، انزعجت شركات التعدين هناك إلى حد كبير وكذلك الرئيس موبوتو وناشدوا النادي أن يرسل بالعون . ولم يذهب طلبهم سدى . فأرسلت قوات مصرية ومغربية لتقوم بعملية الإنقاذ ، ويدين الرئيس موبوتو لنادي السفاري ، باستمرار وجوده .

* * *

لكن عملية الكونجو كانت صغيرة نسبياً في أبعادها وأهميتها ، وسرعان ما

وضعت مشكلة الصومال نفسها أمامهم باعتبارها هدفاً أكبر بكثير «فالرئيس سياد بري» الذي أصبح رئيساً لجمهورية الصومال في اكتوبر ١٩٦٩ ، لم يخف طموحه في أن يوحد الأقاليم الخمسة المتفرقة التي يشكل الصوماليون فيها غالبية السكان . وكانت هذه المناطق تشمل أجزاء كبيرة من كينيا ـ ومقاطعة أوجادن في أثيوبيا بالإضافة إلى ما كان يسمى بالصومال الانجليزي والإيطالي والفرنسي ، وتصور «سياد بري» أن الروس على استعداد لمساعدته في تحقيق طموحاته ، رغم أنه لم يعط الروس أي مزيد من الامتيازات عما كان أعطاهم من قبل ، فإن الوجود الروسي في الصومال أزعج الأمريكيين إزعاجاً كبيراً . كان كلما مرَّ كيسنجر بالقاهرة يقدم دائماً صورة لميناء بربر ، التقطها القمر الصناعي ، يظهر فيها ما كان يزعم أنه قاعدة غواصات روسية (ولم يكن هناك في الأصل أية قواعد ، على الرغم من أن الروس قد حصلوا على تسهيلات بحرية معينة) وانزعج كل أعضاء النادي ، وكلما طلب منهم سياد بري المساعدة كان يقابل دائماً بالاتهام بأنه ليس سوى ألعوبة في يد السوفيت .

لكن عندما اندلعت الثورة في أثيوبيا في صيف ١٩٧٤ تغيرت الصورة كلية . فأثيوبيا من وجهة نظر التحكم في القرن الأفريقي تعد أكثر أهمية من الصومال ، كما أن «منجستو هيلا ميريام» بدا أكثر قوة من «سياد بري» . واندفع السوفيت في تقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية إلى نظام منجستو ، في نفس الوقت الذي كانت فيه قوات «سياد بري» على وشك الانتهاء من تحرير أوجادن ، فوجد «سياد بري» نفسه مهجوراً من حلفائه السوفيت . وكان «نادي السفاري» على استعداد لانتهاز فرصة هذه الفجوة التي ظهرت . وأخبر أعضاء النادي «سياد بري» أنه لو تخلص من الروس ، فإنهم سيزودونه بالأسلحة التي يحتاجها . وكان الشاه بالذات متحمساً : وكانت خطاباته لسياد بري مليئة بالتشجيع . وباعت مصر الأسلحة السوفيتية التي لم تعد في حاجة إليها للصومال بما يعادل ٧٥ مليون دولار ، دفعت بواسطة السعودية . وقام سياد بري في حينه بطرد الروس وتخلى عن الشعارات الماركسية التي كانت تكتسي بها حكومته واستمر في مساعدته للمتمردين في أوجادن .

لكن كلاً من «نادي السفاري» و «سياد بري» وجدا أنهما يعملان في أرضية

مختلفة وانهما أصبحا جزءاً من المنافسة بين القوتين الأعظم في المحيط الهندي ، التي كان من أحد أهدافها الرئيسية التحكم في القرن الأفريقي . زادت روسيا من نقل الأسلحة جواً إلى أثيوبيا ، وظهر المستشار الروسي السابق للقوات الصومالية في أديس أبابا ليعمل مستشاراً للقوات الأثيوبية . وكان «سياد بري» ، يأمل في إمكانية توقع المساعدة من أمريكا خاصة بعد فضه للتحالف مع الروس . ولقد تحدث الرئيس كارتر خلال حملته الانتخابية عن مواجهة التحدي الروسي في الصومال ، وبعد أن تولى الرئاسة صرح بأن أمريكا ستزود الصومال بالسلاح . لكن التدخل السوفيتي الكوبي كان أكثر فعالية من كل شيء يتم على الجانب الآخر . وأصبحت أوجادن بمثابة كمين لسياد بري . فقواته كانت في حاجة ماسة إلى السلاح ، خاصة المدافع المضادة للدبابات . فاستدعى السفير المصري وقال له : «إن عنقي في خطر» . ولم يكن هناك الكثير لدى مصر حتى تقوم به . وقالت السعودية انه ليس في إمكانها تدبير المساعدة . واستمر الشاه وحده في الإحساس بالتفاؤل . فبعث برسالة مكتوبة إلى سياد بري ، يؤكد له أنه يعلم بأن الأمريكيين يهرعون لنجدته . وفي أحد اجتماعات السنتو في مايو ١٩٧٧ ، ضغط الشاه على «سايروس فانس» ، وزير الخارجية الأمريكية ليزود الصومال بالأسلحة التي تحتاجها لينقذ سياد بري من الكارثة . وقد قام الشاه من ناحيته بصنع ما في وسعه فأرسل بعض مدافع المورتار الالمانية ، حصل عليها من تركيا ، كذلك بعض الأسلحة المضادة للدبابات ، التي اتضح عند وصولها أنها مصنوعة في إسرائيل ، فرفضت القوات الصومالية استخدامها .

بعد ذلك تغير موقف الشاه . إذ استدعى السفير الصومالي ثلاث مرات خلال شهر واحد وأخبره أنه ينبغي على سياد بري أن ينسحب من أوجادن . وقال : «لقد وصلتني ثلاث رسائل من الرئيس كارتر ، فأنتم معشر الصوماليين تهددون بقلب موازين القوى في العالم . إذا انسحبتم من أوجادن فإننا سنتخذ كل الإجراءات لتزويدكم بكل العون الذي ترغبونه ، لكنه سيكون اقتصادياً وليس عسكرياً . فلتنسوا كل شيء عن أوجادن» ، وليس من الغريب أن «سياد بري» اكتشف انه كان ضحية المفاوضات والمساومات بين القوتين الأعظم التي تقضي بأن يكف

الروس عن التدخل في المشكلة الروديسية شريطة أن يكف الأمريكيون عن التدخل في الأوجادن .

* * *

وبغض النظر عن كل شيء ، فإن ما حدث في الصومال قد أثبت لأعضاء النادي الحدود التي يمكنهم التحرك داخل نطاقها . فالشرطي الذي يقوم بواجبه له سلطة معينة داخل المنطقة التي يعمل فيها ، لكن تحت إشراف مفتشي ومديري البوليس الذين يتمتعون بسلطات أكبر ، وباستطاعتهم إصدار الأوامر إليه ، وما عليه إلا أن يطيع .

ومن الجوانب المدهشة لهذا النادي أن كل أعضائه كانوا يتظاهرون بإخفاء نشاطهم عن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، إلا أنهم كلهم في واقع الأمر كانوا يقدمون تقارير موجزة لها عما يحدث . والأدهى من ذلك أن الجنرال ناصري اعترف فيما بعد أنه لم يكن يخبر الأمريكيين فحسب ، بل كان يخبر الإسرائيليين أيضاً .

ليس ذلك فقط بل أن الجنرال ناصري كان مسؤولاً ذات مرة عن توزيع تقارير عن نشاطات النادي على نطاق أوسع ؛ فعقب أحد اجتماعات النادي في الدار البيضاء سافر للقاء زوجته في مدينة كان ، لكنه نسي حقيبته التي تحوي كل الوثائق السرية في مطار الدار البيضاء . ولم تظهر الحقيبة على الإطلاق ومن الممكن افتراض أنها وقعت في أيدي من يهتمون بمثل هذه الوثائق (يمكن القول باطمئنان أنها وقعت في النهاية في يد السوفيت) . وقد اكتشف فيما بعد أن أحد مساعدي «الكونت دي مارنش» كان عميلاً سوفيتياً ، يقوم بتزويد روسيا بالمعلومات وقد تمت تصفيته ، لكن كانت المصيبة قد وقعت . وحقيقة كان هناك ثمة لمسة مسرحية أوبرالية تتسم بها نشاطات النادي .

وعلى أية حال ، فإن النادي مع هذا يمكنه أن يدعي لنفسه نصيباً في مسؤولية قيام الرئيس السادات بالمبادرة التي بدأها بزيارة القدس عام ١٩٧٧ . وكانت أول رسالة باقتراح عقد اجتماع بين الطرفين أرسلها رابين عندما كان رئيساً لوزراء إسرائيل وحملها إلى الرئيس السادات ، أحمد الدليمي مندوب المغرب في النادي .

لذا فحينما ادعى إسحق رابين فيما بعد أن التغير الكامل في العلاقات بين مصر وإسرائيل قد بدأ قبل وصول بيغن إلى الحكم ، فإنه لم يقل سوى الصدق .

وفيما بعد ظهر أن الملك الحسن ملك المغرب كان هو الذي رتَّب في قصره أول لقاء مصري إسرائيلي مباشر .... كان النادي يريد أن يفرغ من الصراع العربي الإسرائيلي حتى يتحول بكل جهوده إلى أفريقيا ومكافحة الشيوعية فيها .

الفصل العاشر

الثورة تعود الى طهران

كانت مدينة « قم » هي مركز المعارضة لنظام الشاه لمدة عشر سنوات في الفترة من ١٩٥٣ الى ١٩٦٣ ، لكن بعد القبض على الخميني وترحيله قام الجيش والسافاك بعملية تطهير فعالة في المدينة . بعد أسبوع من القبض على الخميني صرح الشاه لأحد الصحفيين الأجانب بأنه يشعر ان موقفه الآن « أقوى مما كان عليه في أي وقت من قبل » ، طالما ، « ان الشعب يعرف الآن اين تكمن قوى الرجعية ، كما ان الجيش يؤيد ثورتي النابعة من العرش تأييداً كاملاً» . وإذا كان رجال الدين (والرجعية) قد تم فضحهما ، والجيش وفي ، له ، فمن كان يخاف الشاه إذن ؟

ربما كانت ثقة الشاه في محلها ، لو سمح لإيران أن تظل في حالة سكون لكن سياسته ذاتها اكدت غير ذلك . بل على العكس ، كان مقدراً لإيران في الأعوام التالية ، أن تكون مسرحاً لهزات عنيفة خطط لها عن عمد وعلى نطاق واسع جداً حيث كان ينبغي على الشاه أن يكون أكثر حذراً وأكثر تواضعاً في استيعاب التاريخ ، حتى يدرك ان مكونات الانفجار كانت آخذة في التراكم بسبب هذه الهزات .

كما أنه بدا أن حفلة التتويج واحتفالات برسوبوليس بمناسبة مرور ألفين وخمسمائة عام على الملكية في إيران ، قد ادارت رأس الشاه ، وان تغييراً طرأ عليه وعلى طبيعة النظام بشكل عام . في بداية حكمه كان هناك اتجاه للتعامل مع الشاه على انه شخص منغمس في الملذات ، ويمكن اشباع طموحاته ، بتزويده بالسيارات السريعة والنساء الجميلات . وأذكر أن اريك جونسون ، رئيس غرفة اتحاد شركات السينما السابق في الولايات المتحدة ، والذي كان لفترة ، المبعوث الخاص

للرئيس الأمريكي ايزنهاور – في الشرق الأوسط ، قد ذكر انه عندما زار الشاه أمريكا عام ١٩٥٤ ، قرر أباطرة صناعة السينما أن أنسب طريقة لتكريم وفادة الشاه والامبراطورة ثريا (وقتها) هو اقامة مأدبة عشاء في اضخم الفنادق بلوس انجلوس ، حيث يتناول عشاءه في قاعة بمفرده محاطاً بأجمل نجمات هوليود ، على حين تكون الامبراطورة في الحجرة المجاورة بمفردها مع مجموعة من كبار نجوم السينما . وقد اقيمت المأدبة بالفعل . لكن مع بداية السبعينات كان الشاه المنغمس في ملذاته ، قد اصبح شخصية – أكثر جدية – وأكثر خطورة .

فقد تركزت كل السلطات في يد الحاكم أو الشاه المطلق . وحتى في أيام حكم اسرة كاجار ذاع صيت ايران على انها بلد تتفشى فيها البيروقراطية بشكل متضخم وعدم الكفاءة الادارية والفساد ، ورغم محاولات الاصلاح من خلال التحديث والقضاء على الفساد لم يتغير شيء في الواقع ، وازدادت الأمور سوءاً في الحقيقة فأمراء اسرة كاجار لم تكن عندهم لا الارادة ولا الوسائل ليحكموا حكماً ديكتاتورياً ، أما الشاه فلم يكن ينقصه أيٌ منهما . فكل شيء كان يحول الى طهران ، كل قرار على شيء من الأهمية كان يجد طريقه على مكتب الرجل الأوحد الذي يستطيع أن يمنح القرار . ولم يشاركه أحد في الحكم سوى أعضاء أسرته ، تلك المجموعة القليلة من المحظوظين الذين يحيطون بالبلاط الأمبراطوري . وأكثر من هذا ، كان كل عضو في الأسرة المالكة له بلاطه الخاص به أو بها ، وله كذلك صنائعه في الوزارات والسافاك والبنك المركزي والقوات المسلحة . ولم يكن الحب مفتقداً بينهم في تزاحمهم على السلطة والنفوذ . ورغم تمتع اخوة الشاه الصغار وعائلتهم تمتعاً كاملاً بكل مميزات مكانتهم ، الا أنهم شعروا أن القدر كان يقف في طريقهم عندما ولد ولي العهد عام ١٩٦١ ، وتحطمت الآمال التي كانت تراودهم بأن يخلفوا الشاه يوماً ما .

كان الصراع في القمة يدور حول المال والسلطة بنفس الدرجة . فمع ازدياد الثروة في البلاد زاد الفساد وحب المظاهر . ولقد كان ذلك هو الوقت الذي تنشر فيه الصحف الغربية كل يوم تقريباً تقريراً عن شراء الشاه أو أحد أقاربه أو « أحد الشخصيات الإيرانية المرموقة » لعقارات جديدة – أو فيلات في وادي سان

فرناندو أو لوس انجلوس أو شققاً في باريس أو نيويورك أو قصوراً في لندن أو الريفييرا . ولقد اشترى الايرانيون خلال هذه الفترة ما يزيد على ثلاثة آلاف شقة في جنيف وحدها – على أن الشاه هو الذي حدد ايقاع حركة الشراء ، بشرائه ضيعة في « ساري » بإنجلترا وفيلا « سوفريتا » في سانت موريتز التي دفع فيها ١٠ مليون دولار ورغم أنه لا يقضي سوى بضعة أسابيع في قصوره بالخارج إلا أنها لا بد أن تكون جاهزة دائماً لاستقباله . وكانت تشرف على فيلا سوفريتا أميرة من الكاجار تساندها هيئة من الموظفين والعمال يعملون طول الوقت .

ولم يفعل الشاه شيئاً ليوقف هذه العربدة في النهب التي انغمس فيها اقاربه والمقربون إليه ، بل انه في الواقع كان يقوم بتنسيقها . فقد كان مكتبه يقوم بتوزيع التوكيلات المربحة للشركات الغربية واليابانية . ولقد كان هو الذي تقاضى من شركة البترول الايرانية الوطنية مبلغ بليون دولار ، بدعوى « زيادة أمن ومكانة وعظمة ايران » . كذلك كان مكتبه يقوم بتنظيم توزيع النفوذ في الخارج . وعلى سبيل المثال رأيت بنفسي في طهران ، ثلاثة أوامر ملكية كل منها يأمر بدفع مبلغ ٢٠٠ ألف دولار إلى الأسقف «أبل موزوريوا» رئيس وزراء زيمبابوي الأسبق ، وكذلك كانت هناك مجموعة أوامر دفع مشابهة لزعيم المعارضة « انكومو » * . وكان نفس المكتب يقوم بتقديم الهدايا الثمينة للضيوف الأجانب ، ودفع مبالغ مالية للصحفيين الأجانب المتعاونين .

---

* من سوء الحظ أن هذه الأوامر المتعلقة بالدفع لـ «موزوريوا» ولـ «انكومو» هي الوحيدة التي يمكن حتى هذه اللحظة الإشارة إليها صراحة بأسماء أصحابها . ولكن أوامر الدفع التي رأيتها في طهران كانت تحوي عجباً ، فلقد كانت حافلة بأسماء عديد من الشخصيات في الشرق الأوسط وفي العالم – ساسة ، وزراء ، وأصحاب صحف وصحفيين . بل لقد كان هناك رؤساء دول على قوائم الدفع التي تصرف بإذن الشاه . ولقد أمكن نشر اسمي «موزوريوا» و «أنكومو» بالتحديد لأني عندما نشرت أول مقال عن هذه الوثائق في «الصنداي تيمس» طلب مني «هاري إيفانز» رئيس التحرير أن أعطيه عينة من الأسماء ، فربما استطاع محرروه أن يحصلوا من أصحابها على اعترافات تدفع جريمة القذف عند النشر . وبالفعل فإن محرري «الصنداي تايمس» استطاعوا في حالة «موزوريوا» و «أنكومو» أن يحصلوا على اعترافات بررها الاثنان معاً بأسباب السعي من أجل الاستقلال .

لقد انتهت كل أشكال الاعتدال . وأصبح التباهي بالبذخ هو المظهر السائد ، كما كان الحال في برسوبوليس . وليس من الغريب ان قصص الثروات التي يمكن تحقيقها أغرت العديد من كل انحاء البلاد بالذهاب الى طهران ، لكنهم عندما اكتشفوا ان شوارع طهران ليست في الواقع مرصوفة بالذهب ، لم يكن أمامهم إلا أن يحتلوا بيوتاً مؤقتة على أطراف طهران ويقوموا بالأعمال غير المنتظمة التي يجدونها ، وقد شكل هذا النوع من التجمع احتياطياً طبيعيًّا لرسالة الخميني الثورية فور وصولها . وأصيبت العاصمة بتضخم سرطاني .

كان سكان طهران قبل الحرب حوالى نصف مليون زاد الى ستة أضعاف بحلول عام ١٩٧٠ ، وكانت لا تزال تتضخم بمعدل ٦./ في العام اذ يوجد فيها ستون في المائة من كل الطلبة الإيرانيين وخمسون في المائة من كل الأطباء . وكان نصف تراخيص المباني تختص بطهران وسرعان ما فاق حجم المدينة كل الخدمات المتاحة فيها والتي لم تكن كافية قط في يوم من الأيام . واختنقت الشوارع بالسيارات إلى درجة تبعث على اليأس . أما المجاري فقد كانت تعتمد دائماً على قنوات المياه المكشوفة على جانبي الطريق ، والتي كانت هي نفسها المصدر الوحيد للشرب والغسيل للغالبية . أما الشركات الأجنبية التي لها مصالح تجارية كبيرة في إيران ، فكانت تشيد ناطحات سحاب لمكاتبها ، لإحساسها ان المسألة تتعلق بمكانتها . وفي جنوب المدينة توجد معامل تكرير البترول ومصانع البتروكيماويات التي امتصت عدداً كبيراً من العاطلين القادمين من الريف .

والغريب ان المكانين اللذين كانا يجذبان نظر كل الزوار لم يكن لهما أي علاقة باحتياجات المدينة . الأول هو الخزانة التي تضم جواهر التاج والأسرة المالكة . هذه الكنوز المذهلة من فارس أيام الصفويين ، ومن الهند ، حيث توجد جوهرة تخت الطاووس أو عرش الطاووس المصنوعة من الذهب الخالص المرصع بالماس والأحجار الكريمة الأخرى الثمينة وقد ركبت أكثر الأجهزة الالكترونية الحديثة تعقيداً لحمايتها . فبمجرد لمس الزجاج الذي يحيط بها تضرب الأجراس ، وإذا استمرت الأجراس أكثر من عده ثوان ، تغلق أبواب المبنى آلياً ، وتبدأ مدافع رشاشة مخبأة في إطلاق النيران على أي شخص يقترب ناحية المدخل .

أما الثاني فهو نصب الشاهيار الذي تم تصميمه وتشييده بناء على مبادرة من الأمبراطورة لتخليد ذكرى تتويج الشاه ، وقد بلغت تكاليفه ٢٠٠ مليون دولار . ومما لا شك فيه إن الفكرة من اقامته فكرة يمكن الدفاع عنها كما ان النصب جرى تنفيذه بشكل جميل ، في داخل النصب تقل المصاعد الزوار إلى المطاعم والمتاحف ، حيث توجد شاشة بانورامية متحركة تعرض تاريخ إيران من عهد قورش العظيم إلى اسرة بهلوي – وتم تجاهل المراحل الأولى من العصر الإسلامي ، أو أي شيء يربط بين إيران والعالم العربي بشكل واضح .

ومن الأشياء الأخرى التي استحوذت على اهتمام الأمبراطورة فرح ، استعادة الأعمال الفنية الإيرانية التي خرجت من إيران ، وهو اهتمام ولا شك جدير بالاحترام ، إلا أنه هو الآخر لا علاقة له باحتياجات الشعب في طهران . وفي بحثها عن هذه الكنوز لاستردادها لم يكن للمال أي اعتبار ، وقد اشترت على سبيل المثال مجموعة لوحات زيتية تعود إلى أيام الكاجار من أسرة «جوليان امري» بانجلترا مقابل مبلغ كبير . كما اشترت مجموعة من اللوحات الفنية التأثرية (من المذهب الفني التأثيري) للأمة الإيرانية ولم تكن هذه اللوحات تعني الشعب في شيء ولا كانت أغلبيته تفهم شيئاً منها .

وبالرغم من أن هذه المشروعات لم ينفق عليها إلا جزء صغير من الأموال التي انفقت ، إلا انها كانت واضحة للعيان ، يمكن للجميع رؤيتها وانتقادها ، وكان الشاه مقتنعاً بأنه يمكن القضاء على كل اشكال النقد كلما انتشر الرخاء . وحسب مشروع الخطة الخمسية الخامس الذي كان من المفروض أن يبدأ من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٧٨ ، كان مقرراً أن يتضاعف الانفاق في أغسطس ١٩٧٦ ، من ٣٦ بليون دولار إلى ٦٩ بليون دولار ، هذه الزيادة غير العادية كان يمكن تحقيقها بسبب الارتفاع الكبير في عائدات البترول خاصة بعد القفزة الفجائية في سعر البترول عام ١٩٧٣ . هذا الاسراف في الإنفاق لم يدفع بإيران إلى مصاف الدول الصناعية بقدر ما تسبب في التسخين الزائد للاقتصاد مما أضر ضرراً بليغاً بالأوضاع كلها .

فقد زاد التضخم عن ٢٠ ٪ عام ١٩٧٥ ، باعتراف الشاه نفسه ، وان كان

الرقم الحقيقي يقترب من ضعف ذلك . ولم تكن الموانى كافية لسيل الواردات ، وكانت المصانع ينقصها الفنيون والمواد الخام ، فقد كانت إيران تعتمد على الأيدي العاملة المستعارة وعلى التكنولوجيا المستوردة . وهؤلاء الذين يتولون السلطة بعيونهم المتطلعة إلى مستقبل خادع كانوا قد فقدوا الصلة بالتاريخ ومع كل حقائق الموقف .

وكان الشاه ، كما بيّنّا من قبل ، مستغرقاً في دوره كشرطي لمنطقة الخليج ، وكشريك وند للأمريكيين في الكفاح ضد الشيوعية الدولية ـ وكان ينفق أربعة بلايين دولار في العام على السلاح ، ويتباهى باحتمال تضاعف هذا الرقم . أما قواته المسلحة فكانت مدلّلة إذ أن ـ كل ضابط من رتبة كولونيل فصاعداً كان يمنح هو وزوجته رحلة مجانية كل عام إلى أوروبا ، وسيارة إلى جانب امتيازات ومنح أخرى .

* * *

كان يعمل تحت الشاه رئيس وزارة هو أمير عباس هوفيدا ولم يكن رجلاً فاسداً ، لكنه كان منفصلاً مثل سيده الملكي عن العالم الحقيقي المحيط به . كان يجلس هناك في حجرة مكتبه الضخمة مهذباً دمث الخلق ، ودائماً يحتفظ بقرنفلة في عروة سترته * .

كان جذاباً كشخص ، ويعول عليه كأداة لتنفيذ رغبة الشاه .

وكان هناك الجنرال نعمة الله ناصري ، رئيس السافاك من عام ١٩٦٥ حتى يونيو ١٩٧٨ ، حينما نحي من منصبه وعين سفيراً في باكستان ، كواحدة من إحدى اللفتات المتأخرة لتهدئة الموقف .

كانت سجون ناصري ممتلئة . وقد قدّرت منظمة العفو الدولية عام ١٩٧٦ ، عدد المسجونين السياسيين في إيران بحوالى ٧,٥٠٠ ، وإن كانت بعض التقديرات الأخرى زادت الرقم الى ١٠٠,٠٠٠ سجين ولم يعترف الشاه نفسه بأكثر من ثلاثة

---

* كان يحلو لهوفيدا أن يظهر ، كيف يحتفظ بقرنفلته نضرة . فقد كان يضع خلف ياقة سترته أنبوبة ذهبية صغيرة مليئة بالماء ، ينغمس فيها ساق الزهرة .

آلاف . وفي عام ١٩٧٥ ، بلغ عدد أعضاء عصابات المدن من الذكور والإناث الذين قتلوا رمياً بالرصاص بعد محاكمات سرية ١٧٤ حسب التقديرات الرسمية لوزارة الداخلية . وكان من المعروف ان فعالية السافاك تستند على القتل والتعذيب الى حد كبير جداً . (وقد أصبح سجلها في هذه المجالات ، موضوع معرض دائم في طهران يؤخذ إليه الزوار الأجانب بما في ذلك لجان الأمم المتحدة) .

وسيطرت السافاك أيضاً على شركة كانت تحتكر صناعة الأقفال والمفاتيح . وعندما قام مهدي بازرجان باعتباره أول رئيس وزراء بعد الثورة ، بزيارة استطلاع إلى مقر السافاك اطلعوه على مجموعة من المفاتيح تصلح لفتح أبواب كل السفارات الأجنبية في طهران ، والخزائن الموجودة بها كذلك . ودهش بازرجان لكمية الأجهزة الألكترونية المتنوعة المخزونة هناك . لقد كان المشهد ، كما قال كأنه مشهد من قصة أليس في مدينة العجائب – مسدسات صامتة ومسدسات لإطلاق الغاز وأجهزة تجسس ، وآخر الأجهزة التكنولوجية التي اخترعت لتعذيب الإنسان .

ومن الأفلام التي اعدتها السافاك عن الطريق التي تتبعها فيلم يوجد الآن في وزارة الخارجية وقد شاهدته عندما كنت في طهران . يبين الفيلم طريقة استجواب فتاة شابة من الثوار . في البداية جردت الفتاة من ملابسها إلى ما تحت الصدر ثم بدأ أحد الضباط في حرق حلمة ثدييها بسيجارة مشتعلة حتى صرخت وانهارت وبدأت تعطيهم المعلومات التي يريدونها . وقد دهشت عندما رأيت الفيلم وسألت السؤال البدهي : ما الذي دعاهم إلى تسجيله بالتصوير على شريط سينمائي وكان الرد ان الشخص الذي قام بالاستجواب كان مشهوراً بأنه من أبرع الناس في القيام بمهام وظيفته ، لذا التقط له هذا الفيلم اثناء قيامه بالعمل للمساعدة في تدريب ضباط السافاك الآخرين . وقد أرسلت نسخة من الفيلم لوكالة المخابرات المركزية التي طبعت منه عدة نسخ وزعتها على بلاد صديقة مثل الصين الوطنية والفلبين واندونيسيا – كجزء من المساعدة الفنية (فن استجواب الثوار) التي تقدمها أمريكا لأصدقائها .

كان التعاون بين السافاك ومخابرات البلدان الأخرى بما في ذلك المخابرات الفرنسية والإسرائيلية والأمريكية كذلك يكلف الشاه مبالغ طائلة ، لكن العائد

كان مرتفعاً . ومن بين الأشياء التي وجدت بعد الثورة في مقر قيادة السافاك وفي القصر وفي بعض السفارات بالخارج ، نسخة من تقرير سري عن حالة الجيش العراقي مقدم للرئيس أحمد حسن البكر ، اعده رئيس أركانه وذلك قبل سقوط الشاه بثلاثة أشهر كذلك تسجيل لمناقشة تمت بين العقيد معمر القذافي والدكتور جورج حبش عن خطط الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وقد تم النقاش في خيمة في الصحراء ، ومن المؤكد أن اختيار هذا المكان ليتم فيه اللقاء تمَّ حتى يمكن التأكد بشكل مطلق انه مكان آمن . وقد عثر كذلك على قوائم عملاء سريين في العالم العربي ينتمون لكل وكالات المخابرات تقريباً . إذ يبدو أنه كان من عادة عملاء السافاك أن يقوموا بتسجيل كل لقاءاتهم مع زملائهم الذين يعملون في وكالات أخرى ، لذا كانت كنوز المعلومات والقيل والقال والفضائح المتوفرة لدى الشاه تكاد تكون لا نهائية .

* * *

لكن الشيء الملحوظ للغاية خلال السبعينات والتي تم فيها الازدهار ، هو غياب أي محاولة لإشراك الشعب بأي طريقة وبأي شكل من أشكال التمثيل السياسي . كان الشاه يصدر الأوامر ، وكان الوزراء والسافاك يقومون بتنفيذها كما كان في مقدور أعضاء الأسرة المالكة الآخرين أن يصدروا أوامرهم أيضاً ، وبالاتصال التليفوني مع الوزراء مباشرة وغالباً ما كانت تتعارض طلباتهم ، حتى إن مجلس الوزراء أرسل رجاء إلى أعضاء الأسرة المالكة بمحاولة التنسيق بين مطالبهم على الأقل . وكانت قراءة أي جريدة يومية ، توحي على الفور أنه كان هناك ثمة رجل واحد في البلد كله ومن المفروض على القراء أن يهتموا به إلى أقصى حد ــ ألا وهو الشاه ، الذي كانت صورته هو وزوجته وأطفاله تحييهم يوماً بعد يوم .

* * *

في منتصف الخمسينات حاول الشاه أن يقتفي أثر كمال أتاتورك ، بأن يشكل «معارضة رسمية» في المجلس . لكن نظام الحزبين المصطنع لم يفلح أبداً في القيام

بواجبه بشكل مناسب ، لذلك قرر الشاه في مارس ١٩٧٥ ، أنه سيسمح لحزب سياسي واحد أطلق عليه اسم الرستاخيز (النهضة) بممارسة النشاط السياسي ــ وإن كان من المفروض من الناحية النظرية أن ينقسم إلى قسمين : جناح يحكم وجناح يعارض . وحيث أن كل النواب ، بغض النظر عن الجناح الذي ينتمون إليه ، كانوا صنائع الشاه تماماً مثل رئيس الوزراء ، وكذلك فكرة الحزب ذاتها ــ لذا لم تتم أية مناظرات حقيقية أبداً في المجلس ، أو في البلد كله .

واضطرت الحيلة السياسية الحقيقية إلى الالتجاء إلى السرية . أما الجمعيتان الفدائيتان . مجاهدين خلق وفدائيين خلق فقد استمرتا في وجودهما المحفوف بالمخاطر . كما كان الحزب الشيوعي نشطا خاصة بين الطلاب وفي المراكز الصناعية الكبيرة – مثل عبدان ، واضطلعت السافاك بمسؤولية معالجة الأمور المتعلقة بالقلاقل العمالية ، التي كانت تصفها بأنها «نشاط سياسي» وتقرر ما إذا كانت نشاطاً سياسياً أم لا ، وينتج عن المركزية المتزايدة اضطرابات بين الأقليات في كردستان واذربيجان وبلوخستان ، حتى القوات المسلحة المدللة لم تكن محصنة ضد عدم الاستقرار ، فقد دبت الغيرة بينها وبين البحرية ذات المكانة الخاصة ، بسبب المبالغ الطائلة التي تصرف على تسليحها ولما بدا من اهتمام أغلب ضباطها بجمع الثروات ، أكثر من اهتمامهم بالإبحار في عرض البحر .

وواجه منتقدو النظام اختياراً بين أمرين ، اما الاختباء أو النفي الذي فرضوه على أنفسهم ، كما أنهم كانوا معرضين لخطر الاغتيال على يد السافاك . فالدكتور علي شريعتي المفكر الاسلامي المرموق ، الذي يعد زعيم الثورة العلماني ، مات في لندن في ظروف غامضة والسائد في إيران ان السافاك قد رتبت اغتياله ، وأصبح آلاف من الطلبة الإيرانيين في الخارج أكثر صراحة في معارضتهم لأنهم كانوا يتمتعون بقسط أكبر من الحرية في التعبير عن أنفسهم ، رغم أنهم هم وعائلاتهم ما زالوا معرضين لانتقام السافاك . وقد شكل الطلبة في باريس «لجنة الطلبة» التي تعارض الحكومة بشكل قوي . كما قامت المظاهرات في نيويورك وباريس .

وهكذا كان يوجد في منتصف السبعينات مدينتان باسم طهران – طهران الرسمية التي تعرف للعالم الخارجي – بالحركة الدائمة والتقدم المستمر والتكنولوجيا –

يقودها حاكم اتوقراطي يدّعي الصلاح وبعد النظر . وطهران غير الرسمية التي تمور بالثورة . ولعل اعتراف الامبراطورة فرح ، وهي في المنفى ، بأنها لم تسمع باسم عدوهم الأكبر الخميني إلا في مايو ١٩٧٨ أكبر دليل على أن حقائق الموقف كانت تخفى حتى عن هؤلاء الذين كان يهمهم معرفتها . وبعد أن ظهر اسمه فجأة تساءلت : « بحق الله ، من يكون ذلك الخميني ؟ » – وكان تساؤلها الحائر في ذلك الوقت يبدو وكأنه رجع صدى متأخر لصوت الامبراطورة ماري انطوانيت في زمن الثورة الفرنسية .

وإذا اكتفى المرء بالنظر إلى سطح الأشياء فحسب ، فان الثورة السابقة المقهورة بدت وكأنها لم تترك سوى الرماد ، لكن من آونة لأخرى وحينما يثار الرماد ، كان يمكن للمرء أن يرى أن ثمة شيء ما ما زال مشتعلاً . وكان يمكن لأي شخص عنده من الاهتمام شيء أن يجس ثنايا السطح حتى يشعر بما كان يحدث ، لكن معظم الناس ، بمن في ذلك الصحفيون والدبلوماسيون الغربيون ، آثروا قبول الرؤية المتفائلة التي كانت تقدم إليهم . فالضغوط عليهم كانت قوية لإخفاء الحقيقة . لم يكن بوسعهم إنكار أن هذا المجتمع مجتمع فاسد ، – قمعت فيه الحرية السياسية والشخصية ، لكنهم تقبلوا الرأي القائل بأن هذا هو الثمن الواجب دفعه نتيجة للتقدم . وعلى أية حال ، فإن الحرية على النمط الغربي كانت غريبة على النهج الإيراني في إنجاز الأشياء .

ولقد كان لينين هو الذي قال إنه ليس هناك رجل ثوري ولكن هناك حالة ثورية هي التي تخلق الثوار . والآن كانت هناك حالة ثورية في إيران .

كان النسيج الاجتماعي للبلد كله ممزقاً تماماً . وجرّت الثروة معها الحقد إلى النفوس بدلاً من تحقيق التوازن . فكل قطاع في المجتمع كان يعتقد أن القطاع الذي يعلوه يغترف من منجم الذهب أكثر منه . كما كان الإيرانيون من جميع الطبقات يعتقدون وهم على حق ، ان الأجانب هم أكبر المستفيدين . فقد كان يوجد آنذاك في إيران ما بين ٥٠ و ٦٠ ألف خبير ورجل أعمال أمريكي يتحصلون على أجور مرتفعة ويقطنون منازل فاخرة ويتمتعون بطعام فاخر . كما كان يوجد آلاف من الألمان والبريطانيين واليابانيين يحظون كذلك بنفس المزايا . وعندما قتل اثنين

من الفنيين الأمريكيين الملحقين بقوات الطيران ـ عام ١٩٧٥ في طهران ، كان ينبغي لهؤلاء الذين كانوا في السلطة أن يحسوا بنذير الخطر في الأفق ، لكنهم لم يفعلوا ، وهناك بعيداً في مدينة قم بدأ الناس يدركون ان هناك بعض الأشياء تحدث مرة أخرى في العاصمة . وأن الثورة قد انتقلت في الواقع الى طهران ، وينبغي عليهم أن يركزوا نشاطاتهم هناك .

الفصل الحادي عشر

انبعاث الإسلام

أسفرت الصدمة التي تلقاها العرب في حرب يونيو ١٩٦٧ عن موجة من الإحباطات تخطت حدود البلاد المشتركة في القتال بالفعل . فكيف حدث ذلك ؟ لعل العرب في أعماق أعماقهم كانوا لا يتوقعون كسب الحرب - لأنهم ، وشأنهم في ذلك شأن العالم الخارجي ، كانوا على استعداد لتقبل فكرة تفوق اسرائيل العسكري عن غير وعي . لكن أحداً لم يكن يتوقع قط صدمة تقترب في الواقع من مستوى الكارثة . وبدأ كل واحد يلقي باللوم على الآخر . ولم يعد للأفكار التي كان يتقبلها الجميع آنذاك ما كان لها من نفوذ . تأثرت أحلام الوحدة العربية ، وعدم الانحياز ، ومساندة حركات التحرر الوطني ، ومجموعة الأفكار التقدمية التي كان العرب يعتقدون انهم سيحملون لواءها ويحررون بقية العالم . وفشل النظامان الثوريان في مصر وسوريا القيام بالواجب الأساسي لأي حكم - ألا وهو حماية حدود الدولة .

وتمكن عبد الناصر من البقاء في الحكم ، دون أن تتناقص شعبيته كثيراً ، وظل الناس يستمعون إلى كلماته باهتمام واحترام بسبب أنه نجح في رعاية مصر في فترة نقاهتها ، في إعادة بناء قواتها المسلحة وفي الإقدام على خوض غمار حرب الاستنزاف ضد إسرائيل تمهيداً لتحقيق هدف إزالة آثار العدوان الذي أعلنه وراح يباشر تنفيذه بجلد وتفان منقطع النظير . لكن جمال عبد الناصر عاد إلى رحاب ربه في سبتمبر ١٩٧٠ ، بينما كانت مصر والعالم العربي في مرحلة حاسمة من تاريخها . وخلفه الرئيس السادات الذي اكتسب كثيراً من الشعبية بسبب سياسته التي كان فيها قسط كبير من الليبرالية في الداخل وفوق كل هذا اعداده الناجح لحرب أكتوبر عام ١٩٧٣ . لكن الجيل الذي نشأ مع المثل العليا للاشتراكية

العربية والوحدة العربية راقب التطورات الأخيرة في مصر بقلق متزايد ، الى أن اصابتهم في نهاية الأمر رحلة الرئيس السادات الى القدس في نوفمبر ١٩٧٧ ، بالإحباط الكامل .

وحل مفهوم الثروة محل المثل العليا القديمة وفي البداية كان هناك تصوُّر بأن العرب ربما فقدوا المعركة العسكرية عام ١٩٦٧ لكن في مقدورهم الآن أن يكسبوا الحرب سياسياً بقوة المال . فسوف تتولى ايرادات البترول حل كل المشاكل وسيصبح العرب القوة السادسة في العالم . فايران كانت تتمتع بنفس الثروة . وكانت تراودها نفس الآمال . وبدا انه ليس هناك شيء لا يمكن للمال شراؤه — وهناك من الوفرة ما يكفي الجميع — فحتى الحركات الثورية مثل حركة المقاومة الفلسطينية ، يمكنها أن تحصل على كل الموارد التي تحتاجها .

* * *

لكن سرعان ما اتضح أن الأمور لن تسير على هذا النحو — ما لبث ان اتضح ان الثروة ليست هي الإجابة العميقة على التحدي . فمعظم الأموال العربية ظلت حبيسة في البنوك الأجنبية . وكان في مقدورهم شراء الأسلحة التي تكلفهم كثيراً من امريكا وأوروبا لكن من الذي يضمن ان هذه الأسلحة ستزودهم بالحماية ضد العدو الحقيقي الوحيد ، الذي ما زال اسرائيل ؟ . ولما كان افراد الشعب العربي قد بدأوا يتفكرون ملياً في تلك النخبة الجديدة من بينهم المكونة من سماسرة السلاح والمقاولين وتجار الصادرات والواردات . ما لبثوا ان أدركوا ان الصورة الجديدة للعربي التي انتشرت في بقية انحاء العالم — صورة الإنسان المسرف السوقي ، المقامر والباحث عن الملذات — ليست صورة ملفقة تماماً ولذا فقد انصرف أفراد الشعب عن فكرة الثروة وكلهم ازدراء يغامره احساس بالمذلة .

كذلك بدأوا ينصرفون ايضاً عن الأوثان الأجنبية . فقد كانت كل الشواهد في ذلك الوقت تدل على أن الرأسمالية الغربية في حالة تفسخ . إذ كان الناس يقرأون كل يوم عن ازدياد ادمان المخدرات والهيبز والانحلال الجنسي وانهيار الأسرة ، ذلك العنصر الذي لا يزال العرب يعتبرونه الوحدة الأساسية لبناء المجتمع .

ويقرأون كذلك عن ووترجيت ونشاط وكالة المخابرات المركزية ، وعن

حوادث الاختطاف والاضطرابات . ولم يعد ارتداء الجينز أو إقامة محل «ويمبي» في القاهرة أو شرب الكاكولا من علامات التحرر . كذلك لم تعد موسكو أو الشيوعية أكثر جاذبية من الغرب . فالكشف عما تم أثناء حكم ستالين قد حطم مصداقية الشيوعية كنظام سياسي ، وغزو تشيكوسلوفاكيا قد حطم مصداقية روسيا كبلد طيب يقوم بحماية الشعوب الصغيرة .

* * *

وخلال الاضطراب الذي أعقب حرب ١٩٦٧ ، بدأت كل شعوب الشرق الأوسط في اعادة النظر في الكثير من المفاهيم الأساسية فقبل ذلك كانت معالم الأشياء واضحة ومحددة – والاختبارات سهلة للغاية . فقد كان هناك الصدام بين الأمبريالية والقومية – وكل يعرف موقعه من هذا الصدام . كذلك كان هناك الصراع بين القوتين الأعظم ، امريكا وروسيا من أجل المواقع والنفوذ في الشرق الأوسط – وكل يعرف كيف يحافظ على مصلحته بين القوتين . وكانت هناك تلك المعركة المستمرة بين العرب واسرائيل ، ولا أحد تخامره الشكوك في ذلك . وكان هناك أيضاً ذلك التناقض الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء واتفق الجميع على ضرورة اصلاح هذا الوضع .

لكنه مع تطور الموقف بدأت الخطوط تتداخل ، وأصبحت الاختيارات أكثر صعوبة . من هم التقدميون الآن في العالم العربي ومن هم الرجعيون ؟ . فمصر التي كانت من أهم الدول العربية التقدمية ، أخذ ارتباطها يتزايد مع الولايات المتحدة التي كان الكثير لا زالوا يعتبرونها من أعتى قوى الاستعمار الجديد . وبعد استبعاد الروس من منطقة الشرق الأوسط كله تقريباً ، كيف يمكن الاحتفاظ بالتوازن بين القوتين الأعظم ؟ وكيف يتسنى لأحد أن يتحدث عن السلام أو عن الحرب بعد أن وصل الصراع العربي الأسرائيلي الى الحد الذي وصل اليه ؟ وبدت كل المثل العليا التي تعلق بها الجميع مجرد أوهام وأن كل الأمور اليقينية التي استتبت في الأذهان ما هي الا سراب فكيف لا يفقد المرء صوابه في مثل هذا العالم ؟ وهل بقي شيء يمكن للمرء أن يؤمن به ؟

* * *

كانت الإجابة بالنسبة للعديدين تكمن في الدين . فالجدل الدائر بين الدين والعلمانية ، وبين التقاليد والتحديث ، وبين الاتجاه القومي والاتجاه الإسلامي – ذلك الجدل الذي بدأ في هز شعوب الامبراطورية العثمانية والفارسية وشمال افريقيا بعنف منذ مائة عام لم يكن بعيد العهد على أي حال . وكما يحدث في التاريخ دائماً حيثما تصبح الحركة للأمام مستحيلة نجد أن الشعوب تنظر إلى الماضي ؛ فقد عاد المصريون إلى الدين يبحثون فيه عن القوة بعد هزيمتهم العسكرية . وعندما اقتحمت القوات المصرية خط بارليف في بداية حرب أكتوبر كان الجنود الذين قاموا بهذه العملية يهتفون « الله أكبر » . على حين قامت ادارة الشؤون المعنوية بالجيش بتوزيع منشورات عليهم تؤكد لهم ان «أحد الصالحين» رأى في حلمه الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يشير ناحية الشرق آخذاً شيخ الأزهر بيده قائلاً له «تعالَ معي إلى سيناء» وقد تأثر أقباط مصر بنفس هذا الجو العام . ففي ابريل عام ١٩٦٨ اجتذبت كنيسة العذراء بالزيتون احدى ضواحي القاهرة جماهير غفيرة من المسلمين والمسيحيين حيث قيل أن طيف العذراء قد ظهر هناك .

إن قوة الإسلام العظيمة تكمن في انه يزود المؤمن بقانون ، قواعد للحياة تخاطب القلب مخاطبتها للعقل . وهو قانون يحكم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وبزوجته وأسرته وبالعالم أجمع . وهو لا يتطلب فهماً مركباً ، لأنه عقيدة متوارثة عبر الأجيال . نزل بلغة وصيغ ، تشكل جزءاً من طبيعة المسلم العربي كالهواء الذي يتنفسه . وحتى المفكرون الليبراليون غالباً ما عادوا في النهاية إلى عقيدة روحانية . وهكذا نجد طه حسين الكاتب والتربوي المرموق الذي أثار كتابه عن الشعر الجاهلي عاصفة من الاحتجاج من جانب المتدينين المتزمتين يتجه الى الكتابة عن الرسول والأيام الأولى للإسلام . كما أن بعض الشخصيات الأدبية المصرية الأخرى مثل محمد حسين هيكل وعباس العقاد الذين تأثروا بشكل كبير ببرجسون وبرنارد شو وهـ . ج . ويلز ، زاد اهتمامهم بالموضوعات الإسلامية ، وحتى كتاب الرواية من الشيوعيين بدأوا يعالجون الموضوعات الإسلامية بتعاطف واضح .

وينبغي ألا يكون كل هذا مثاراً للدهشة . فبينما ظهر للعرب والإيرانيين

أن الإنجازات الغربية تمثلت في اسلحة الفتك الجماعي وآلات التعذيب ، قدم الإسلام الخير الأكيد . لقد اتى الغرب بأدوات القمع بينما أكد الإسلام أهمية الفرد وكرامة الإنسان . لأن الإسلام هو دين الإنسان الفرد ومضمونه الاجتماعي جزء لا يتجزأ من رسالته . ومن الأمور ذات الدلالة انه حينما يصل المسلم الى مرحلة الرجولة والاستقلال فإنه يحاول أن يزود نفسه بشيئين – بيت وقبر – البيت بمثابة الملجأ لجسده في الحياة والقبر ليتلقى جسده عند الموت .

وقد استغلّت الحكومات الدين بطبيعة الحال لتحقيق أهدافها السياسية . والدين كان دائماً تحت سيطرة الحكومة خاصة في البلاد السنية ، ففي بلاد مثل العربية السعودية كانت الحكومة تلجأ للتقاليد الدينية المتزمتة لتجعلها مرشداً لحياة الفرد اليومية «أو كرأس حربة» لمقاومة الشيوعية ، بل وأي أفكار تقدمية . وقد أفتت السلطات الدينية في مصر في بداية الأمر بأن الحرب ضد إسرائيل هي حرب مقدسة . ثم طلب منها بعد ذلك أن تعلن ان السعي لتحقيق السلام مع إسرائيل هو واجب مقدس وفعلت . كان هذا بينما دعا الخميني إلى السخرية من انتهازية «فقهاء السلطان» . وفي البداية كانت هناك ازدواجية في المعايير ، فنفس المجتمعات التي كانت توافق على قطع يد من يسرق بما يعادل عشرة جنيهات استرليني لم تبد أي احتجاج عندما قام شخص ، المفروض فيه انه يقوم بشراء السلاح للدفاع عن الدولة بوضع بضع مئات من ملايين الدولارات في جيبه .

لكن عندما بعث الاهتمام بالدين بطريقة أو بأخرى في سائر البلدان الإسلامية وبين كافة الطبقات كان له تأثيره السياسي . فزاد عدد الإخوان المسلمين وزاد نفوذهم وحملوا السلاح ضد بعض الأنظمة وظهرت منظمات إسلامية جديدة تسمى (الجماعات الإسلامية) والتي أصبحت من أهم وأقوى العناصر في الجامعات بالقاهرة والاسكندرية ، وأمكنها أن تحتشد حوالي ٣٠٠,٠٠٠ شاب لصلاة عيد الأضحى عام ١٩٧٩ في ميدان عابدين ، وبدأ مفكرون إسلاميون مثل أبو الأعلى المودودي في باكستان ، يجدون آذاناً صاغية لأفكارهم المطالبة بالعودة إلى حكم الله . فلا يوجد في الإسلام حاكم إلا ـ الله ـ وقانون الإسلام هو القانون المرسل من الله (الحاكمية لله) . ووظيفة الحاكم الدنيوي الوحيدة هي إطاعة قانون

الله وليس من حقه أن يغير أو يطور من هذا القانون .

لهذا وجد كثيرون ممن كانوا يبحثون عن حل لمشاكلهم الشخصية والقومية انه لا يمكنهم الاستغناء عن الدين . ومما يدل على ذلك انه في مصر التي تعد المركز الرئيسي للنشر في العالم العربي – كانت نصف الكتب المنشورة من الكتب الدينية . وبدأ الناس يعودون الى كتابات الجيل القديم وعلى سبيل المثال أعيد طبع كتب محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥) عدة مرات في كل من القاهرة وبيروت ، وكذلك كتابات بعض الكتاب الذين أتوا من بعدهم مثل عباس العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل الذين بدأ اهتمامهم الفائق بالأيام الأولى للإسلام يحل محل اهتمامهم بالحضارة الغربية كما أشرنا من قبل .

* * *

إلا أن أكثر المفكرين تأثيراً بالنسبة للإيرانيين هو الدكتور علي شريعتي الذي أصبح فيلسوف الثورة . وقد لاحظت اثناء نقاشي مع الطلبة في السفارة الأمريكية في طهران ، أن أي واحد منهم خلال عدة دقائق يشير بالاقتباسات من كتب الخميني خمس مرات ومن كتب شريعتي ثلاث مرات على الأقل . كان شريعتي كاتباً خصباً كتب أكثر من مائة كتاب . وجزء من تعاليمه التي تركت اثراً عميقاً على الشباب الإيراني تقول « يعيش الإنسان في سجون أربعة » فأولاً هو حبيس السجن الذي فرضه عليه التاريخ والجغرافيا – ويستطيع أن يحرر نفسه من هذا السجن بالعلم والتكنولوجيا . ثانياً : هو حبيس سجن الحتمية التاريخية ويستطيع أن يحرر نفسه بتفهم الكيفية التي تعمل بها القوى التاريخية . ثالثاً : هو حبيس سجن البناء الاجتماعي والحضاري . ولا بد للتحرر منه من التزود بأيديولجية ثورية . أما السجن الرابع فهو النفس . فكل فرد يتركب من العناصر الالهية والشيطانية وعناصر الخير والشر ، وعليه أن يختار بينها . وقد اعترف شريعتي بأن أفكاره هي خليط من الإسلام والماركسية ووجودية سارتر وصوفية الحلاج * مع لمسة من نزعة باسكال الإنسانية (الهيومانيزم) .

* الحلاج متصوف إسلامي إيراني . أعدمته السلطات العباسية بلا رحمة في بغداد عام ٩٢٢ م ، ويعتبره الكثير من الإيرانيين شهيداً .

لكن الإسلام بحر زاخر وأي النجوم على المسلم أن يختارها لكي يهتدي بها ؟ ومن سيكون الملاح ؟ وقد شعر بعض فقهاء القانون المصريين البارزين في القرن الحالي مثل الدكتور عبد الرزاق السنهوري ، بالحاجة الى أن ينظروا خارج نطاق المذهبين الحنفي والشافعي ، السائدين في القانون واللذين قفل أمامهما باب الطريق الى الاجتهاد منذ العصر العثماني . لذا اتجه هؤلاء المفكرون باهتمام بالغ الى المذهب الشيعي الذي كان باب الاجتهاد فيه ما زال مفتوحاً للفقهاء في غيبة الإمام صاحب السلطة .

وقد لاحظ هؤلاء المفكرون ان الشيعة نظراً للقمع الذي تعرضت له منذ بدايتها احتفظت بتقاليد المعارضة للسلطات الدنيوية لذا كانت أكثر استجابة للأفكار الثورية من السنة التي عادة ما تحالفت مع الدولة أو خضعت لها . ولذلك فقد كان أناس مثل السنهوري على استعداد لأخذ بعض الأفكار من الشيعة ، — مدافعين عن موقفهم بأن الشيعة في نهاية الأمر تمثل جزءاً هاماً من تراث الإسلام . وقد قام شيخ الأزهر أيام حكم عبد الناصر ، الشيخ محمود شلتوت الذي كان يؤمن ببعض الأفكار التقدمية بتشكيل لجنة في الأزهر أوكل إليها مهمة تقليل الخلافات بين المذاهب الإسلامية المختلفة . لذا كان الخميني يعتبره آخر شيوخ الأزهر العظام .

* * *

كانت الأزمة التي تواجه العالم الإسلامي ذات طابع أخلاقي وآخر يتصل بالتنظيم . فكل من الأفراد والحكومات كانوا يبذلون قصارى جهدهم للعثور على سلطة تمكنهم من ترسم طريق له هدف .

فبالنسبة للأفراد كان الأمر يعني وكما رأينا من قبل ، الاكتشاف المتزايد للدين وبالنسبة للحكومات كان يعني البحث الدائم عن الشرعية . فإذا كانت الدول تبغي البقاء فإنها تحتاج الى نواة يستطيع أن يتجمع المواطنون حولها ويتوجهوا إليها بولائهم . ومن الممكن أن تكون هذه النواة فرداً أو عائلة أو قبيلة أو طائفة أو ارثاً تاريخياً . وفي العالم العربي غالباً ما تكون هذه النوى ذات إيماءات دينية فالأسرة المالكة في السعودية تستمد شرعيتها من وضعها كحامية للأماكن المقدسة

والهاشميون في الأردن والعراق والسنوسيون في ليبيا والبيت المالك في المغرب كانت لهم سلطتهم الدينية والسياسية كما أن البيوت الحاكمة في الخليج تتمتع بطابع ديني قوي . وعادة ما تكون النواة في معظم البلاد العربية رجلاً واحداً ، تستند شرعيته إلى مدى ما يحققه من نجاح . فشرعية عبد الناصر كقائد تستند إلى انجازاته العظيمة في الداخل والخارج التي وصلت الى ذروتها في تأميم قناة السويس مع أنه بعد صدمة ١٩٦٧ تهددت الأخطار شيئاً من شرعيته . وشرعية السادات تستند الى حرب اكتوبر والأسد الى مشاركته في نفس الحرب وصدام حسين إلى حقبة طويلة من الاستقرار والتنمية يتمتع بها الشعب العراقي في عهده إلى جانب توجهاته القومية . أما القذافي في ليبيا وبومدين في الجزائر ، فهما مثالان على الشرعية التي تستند الى انجازات الرجل الواحد . نفس الشيء ينطبق على ايران . على الرغم من قيام الثورة وعزل الشاه . وحتى الآن لم يتغير بناء الدولة في الشرق الأوسط ليصل الى المرحلة الدستورية القانونية التي يتمتع بها عديد من دول الغرب .

إن معظم هؤلاء الحكام لا يساندهم أي تنظيم سياسي فعال . وكل ما لديهم هو أدوات القوة ووسائل التأثير والسيطرة على الجيش والشرطة والإذاعة والتليفزيون . وكان الرئيس السادات يشير إلى الصحافة على أنها «سلطة رابعة» في حين أنه لا يوجد سلطة ثانية أو ثالثة ــ والسلطة الأولى في يد رجل واحد ، رجل واحد فقط .

* * *

والتكنولوجيا الحديثة تضع الآن امكانيات مرعبة للسيطرة في يد الرجل الواحد مهما كانت قاعدته التي يستند عليها واهية . لكن في البلدان الإسلامية ثمة مؤسسة لا يمكن لسلطاته أن تصل إليها ألا وهي المسجد وهذه المؤسسة لا يمكن التلاعب بها لأن هذا يعني إهانة لعقائد الناس الراسخة والعزيزة على قلوبهم . فالمسجد يزود الناس بمكان يجتمعون فيه . وهو بقعة خارجة عن نطاق وفعالية أدوات السلطة . فالناس على استعداد للدفاع عن مساجدهم حتى الموت . فالدين يحيط حياة الناس العاديين بسياج من الطمأنينة ، والمسجد والقرآن

هما رمزا هذه الحياة .

أما الدين بالنسبة للسلطات الحكومية فهو سلاح ذو حدين . يمكن استخدامه كما حدث في بعض البلدان في الحملة ضد الشيوعية أو الناصرية . ويمكن للدولة أن تلعب دورها التقليدي في البلاد السنية فتبني المساجد وتغمر أجهزة الإذاعة والتليفزيون بفيض من القراءات القرآنية والمواعظ التي يلقيها أكثر رجال الدين تزمتاً لكن القوى التي تلقى مثل هذا التشجيع يكون من الصعب الاعتماد عليها . إن عقائد وعادات المسلمين لم تتغير كثيراً عبر القرون . وفي السنين الأخيرة عندما تزايد تفكير الناس في الدين ، بدأت تظهر طوائف دينية جديدة غالباً ما تكون بدائية التفكير وتبزغ مجتمعات بالضرورة لها مريدوها المتعصبون لها . وهكذا وجدت الدولة نفسها في تلك البلدان مرغمة على مواجهة العنف والإرهاب من قبل الرافضين الدينيين .

وفي ايران ، حيث أفلت الدين دائماً من سيطرة الدولة ، كانت معظم القوى التي أدت لانبعاث الاسلام في الدول العربية تقوم بدور مماثل هناك . وحتى فقهاء السلطان الموالون للدولة كانوا قد بدأوا يحسون بالسخط لأسباب عديدة بينها أيضاً السبب الاقتصادي . فعلماء الدين ، كما بينا من قبل ، لا يتقاضون مرتبات من الدولة ، كما هو الحال في البلاد السنية ، لكنهم يعتمدون في بقائهم على التبرعات الخاصة . لكن جشع أعضاء الأسرة المالكة وبعض الشركات الأجنبية متعددة الجنسية كان سبباً في إرهاق السوق الذي كانت تأتي منه هذه التبرعات . هذا بالاضافة الى الغيرة التي كانت تحس بها البرجوازية الصغيرة تجاه البرجوازية الكبيرة والاحباط الذي يشعر به الطلبة والعمال ، والتذمر بين الأقليات والقوات المسلحة . من كل هذا يمكن للمرء أن يرى موقفاً ثورياً آخذاً في التصاعد . ويمكن لحادثة واحدة أن تكون بمثابة تقييم للموقف بأكمله . فقد قام اضراب في بعض معامل تكرير البترول خارج طهران . وكما هي العادة في مثل هذه الظروف فقد تولى أحد رجال الدين الشيعة ، من مرتبة حجة الإسلام مسؤولية جمع التبرعات اللازمة وتوزيعها على المضربين وأسرهم للاستمرار في حياتهم . وكان من أكبر المتبرعين لهذا الاضراب مقاول كبير في طهران .

وعندما سُئِلَ عما دفعه الى فعل ذلك أجاب بكل بساطة « لقد سئمت . وأود أن أكون حراً » وقد تبرع فيما بعد بملايين الريالات الى الثورة والخميني .

* * *

ولقد ترك انبعاث الإسلام أثره حتى على الدول التي لا تحكمها حكومات إسلامية . ففي الاتحاد السوفيتي المجاور لشمال إيران يبلغ عدد الروس المسلمين ٤٠ مليوناً أو ١٥ ٪ من المجموع الكلي للسكان . وقد بدأ سادة الكرملين يشعرون بالقلق إزاء النتائج الديموجرافية لهذه الحقيقة إذ أن احصاء عام ١٩٧٩ يبين أنه بينما زاد عدد السكان في بقية الاتحاد السوفيتي بنسبة ٦ ٪ في التسع السنين الماضية كانت نسبة الزيادة في الجمهوريات الإسلامية ٣١ ٪ . كان ذلك الى حد ما نتيجة لسياسة تشجيع نسبة المواليد للتعويض عن خسائر الحرب الفادحة . لكن هذه السياسة عدلت عندما اكتشف المسؤولون ان الذين يحصلون على الجوائز المخصصة للأسر الكبيرة هم من المناطق الإسلامية . واعترف برجنيف بهذه الزيادة السريعة للسكان المسلمين بل ورحب بها بشكل رسمي وقال إن هذه الزيادة تعكس الخطوات الواسعة العظيمة في مجال التنمية الاقتصادية في هذه المناطق التي كانت تعد متخلفة بشكل دائم أيام حكم القياصرة .

لكن الثورة في إيران أثارت مشاكل أكثر خطورة فقد بدأ سكان الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتي والمشتركة في الحدود مع إيران وتربطهم بالإيرانيين روابط عرقيّة يصبحون بالتدريج مسلمين بالفعل لا بالاسم فقد أخذوا يذهبون الى المساجد أكثر من ذي قبل ، وبدأت جماعات صوفية معينة في الانتشار مرة أخرى خاصة النقشبندية والشاذلية والقادرية . لدرجة ان الحكومة السوفيتية طلبت من الحكومات الإسلامية الصديقة أن تزودها بمعلومات عن هذه الطرق الصوفية .

أصابت الثورة الإيرانية الاتحاد السوفيتي بقلق عميق من نواحٍ أخرى عديدة . كان الاتحاد السوفيتي قد تعلم كيف يتعايش مع الشاه ، يبيع له السلاح ، ويشتري منه الغاز وهكذا . والآن عليهم أن يبدأوا من جديد .

كان من الواضح حقيقة أن معركة النظام الجديد تدور أساساً مع القوة العظمى

الأخرى ، مع أمريكا ، لكن هذا الوضع يمكن ألا يدوم بالضرورة . اذ أن المصالح المشتركة قد تجمع بين إيران وأمريكا سوياً مرة ثانية تماماً مثلما قد تبقي الخلافات القديمة ، إيران وروسيا في حالة عدم وفاق . ومما سبب القلق أيضاً في نفس الوقت ان شعوب الجمهوريات الآسيوية الذين كان يشار إليهم دائماً على انهم مثال واضح لنجاح الشيوعية في حل مشكلة الاقليات ، بدأت تكتشف على ما ما يبدو ان هويتها ترتبط أكثر باخوانهم المسلمين في الجنوب ، منها مع مواطنيهم الشيوعيين في الشمال .

الفصل الثاني عشر

الخميني يقود

كان المسرح معداً في إيران لظهور الرجل الذي سيشعل عود الثقاب في كل هذه المواد الملتهبة ليحدث الانفجار . كان لا بد أن يكون من رجال الدين ، وليس شخصاً مجهولاً يظهر من الصحراء . مثل هذا الرجل كان متواجداً في شخص « آية الله روح الله موسوي الخميني » .

ولد « الخميني » (روح الله الموسوي) في ٢٠ جمادى (عام ١٩٠٢ م) ، يوم ميلاد فاطمة بنت الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، زوجة « علي » وأم « الحسن » و « الحسين » . ولد في قرية « خمين » ، التي تبعد ٨٠ ميلاً جنوب غربي مدينة « قم » ، حيث كان أبوه « مصطفى موسوي » رجلاً من رجال الدين . (كان آيات الله يكنون دائماً بأسماء المدن أو القرى التي أتوا منها) . بعد مولد « روح الله » بشهور قليلة ، أطلق بعض عملاء أحد كبار الملاك الرصاص على رأس والده فأردوه قتيلاً ، لأنه دافع عن حقوق بعض مستأجريهم من الفلاحين * .

وماتت أم الفتى موسوي عام ١٩١٨ ، لذا فقد ذهب ليعيش عند أخيه الأكبر « باسنديداه موسوي » ، الذي كان رجلاً من رجال الدين ، وما زال حياً يرزق حتى اليوم . انضم « روح الله » لحوزة « آية الله عبد الكريم الحائري » ، أحد رجال الدين المعروفين في مدينة « آراك » ، التي تبعد ثلاثين ميلاً شمال « خمين » .. وفي عام ١٩٢٢ ، قرر الحائري أن ينقل حوزته الى مدينة « قم » ،

* ادعى البعض أن الشاه « رضا » ، الذي كان يعمل حينئذ نفراً في فرق القوقار ، كان على صلة بمقتل « مصطفى موسوي » . وإذا كان الأمر كذلك فإن نسق الأحداث يكون مرتباً ترتيباً دقيقاً - الأب يقتل والد « الخميني » ، والابن يقتل ابن « الخميني » . (فقد كانت السافاك مسؤولة عن مقتل مصطفى الخميني عام ١٩٧٧) . وقد سألت الخميني عن حقيقة الأمر فقال انه لا يوجد أساس من الصحة لهذا الادعاء .

وذهب معه كل مريديه بمن في ذلك الشاب « روح الله موسوي » . وكانت هذه أول مرة تقع فيها عينا هذا الشاب على تلك المدينة ، التي ارتبط مصيره بها ارتباطاً وثيقاً ، وكان مقدراً له أن يصبح فيها واحداً من « آيات الله العظمى » .

لم يكن هناك مكان يعيش فيه هذا الطالب الشاب الفقير ، فجعل مقامه في المسجد الذي تعقد فيه الحوزة ، يفترش « الدوشك » (ملاءة أو بطانية تفرش على الأرض) الخاص به على الأرض . (وقد استمر طيلة حياته ينام على الدوشك ولا يستعمل السرير) . وقد أتم المرحلة الأولى من دراسته في وقت مناسب . وحصل على الدرجة التي تسمى « محلة السطوح العالية » ، وبدأ في مساعدة استاذه . متخصصاً في الفلسفة الإسلامية والمنطق . وبدأ كذلك في تدريس مقرر عن الأخلاق ، لكن شرطة الشاه « رضا » منعوه من ذلك بحجة أن الأمور السياسية كثيراً ما كانت ترد في دروسه .

* * *

وكان « لروح الله موسوي » صديق في حوزة « الحائري » يدعى « محمد الثقيفي » ، شيعي من الطائف بالحجاز . وكان رجلاً عجوزاً متزوجاً ، له ابنة تسمى «خديجة» ، اسم اولى زوجات الرسول . فطلب «روح الله» الذي كان يبلغ الخامسة والعشرين ، يد ابنة صديقه التي كانت تبلغ أربعة عشر عاماً . ولم يكونا قد تقابلا قط ، لكنها كانت قد لمحته ذات مرة اثناء زيارته لمنزلهم . وعندما سمعت عن عرض الزواج أبدت اعتراضها فلم يكن لديها الرغبة في الزواج من أحد رجال الدين ، اذ كانت تطمع في الرواج من موظف حكومي تذهب معه لتعيش في طهران . لكن ، وكما تقول هي نفسها ، انه في الليلة التي رفضت فيها عرضه ، رأت حلماً ، شاهدت فيه بوضوح شديد الرسول عليه الصلاة والسلام وعليا وفاطمة . ومعهم امرأة عجوز أيضاً ، اشارت الى الثلاثة وقالت « ليس فيهم من يحبك » . فسألت عن السبب ، فقيل لها «لأنك رفضت ابنهم روح الله» وفي الصباح التالي أخبرت أباها بموافقتها على الزواج .

وهكذا تزوجا وأنجبا ثلاثة أطفال . ولد يسمى علي وبنتان تدعيان لطيفة وكريمة وقد مات ثلاثتهم . ثم انجبا ولدين وثلاث بنات — أحدهم مصطفى

الذي اغتيل عام ١٩٧٧ ، على يد السافاك ، أما الابن الثاني أحمد خميني ، فهو مساعد ابيه الأول . وقد ترك مصطفى ابنا هو « حسين » ، وهو مقرب جداً الى قلب جده ويعمل كأحد معاونيه ، وابنة تدعى مريم . وقد تزوجت بنات الخميني الثلاث رجال دين انضموا بشكل أو بآخر ضمن هيئة العاملين معه . فتزوجت فريدة من آية الله ارادي ، وصادقة من حجة الإسلام اشراقي ، الذي كان مع الخميني في فرنسا أما فاطمة فتزوجت من آية الله برجرودي ، ابن آية الله العظمى . الذي أراد الشاه أن يحل محله أحد زعماء رجال الدين في النجف . وللخميني ثلاثة عشر حفيداً ثمانية أولاد وخمس بنات .

* * *

والسيدة خديجة ، زوجة الخميني ذات شخصية قوية تتمتع بحيوية وجاذبية ، وحينما تم ترحيله من مدينة قم عام ١٩٦٣ وألقي به على الحدود التركية أخبرها الخميني ألا تحاول اللحاق به لكنها تجاهلت تعليماته وشقت طريقها الى النجف ثم صحبته من النجف إلى فرنسا . ورغم أنه توجه مباشرة إلى منزله في ضاحية نوفل لو شاتو ولم تطأ قدماه باريس – فإنها قامت بعدة زيارات للعاصمة ورأت كل معالمها وأظهرت اهتماماً بكل ما رأت .

ولا تزال السيدة خديجة هي التي تطهو الطعام لآية الله . وحياته اليومية منتظمة ويأكل أبسط الطعام . يستيقظ في الخامسة صباحاً لصلاة الفجر ثم ينام مرة أخرى . يتكون افطاره من الخبز وطبق صغير من العسل ، تضعه السيدة خديجة بجوار الدوشك الذي ينام عليه . وفي الحادية عشرة يشرب قليلاً من عصير الفاكهة – وعادة ما يكون عصير البرتقال . وفي الظهيرة يتناول قليلاً من الأرز واللحم المسلوق الذي يأكله بالملعقة وهي الأداة الوحيدة التي يستخدمها . وهو يحب البطيخ الإيراني الأصفر بشكل خاص . وبعد تناول طعام الظهيرة ينام لفترة قصيرة يستيقظ بعدها لصلاة العصر ويستمر في عمله ومقابلة الناس حتى منتصف الليل . والخميني لا يدخن ولا يستخدم التليفون قط ، وإن كان قد كسر هذه القاعدة مرة حينما كان في فرنسا وسمع ان أخاه باسنديداه كان مريضاً جداً وأراد أن يسمع صوته ، ويشغل هذا الأخ الأكبر منزلاً صغيراً يقع في شارع جانبي

صغير ، كان يعيش فيه آية الله حتى وصوله الى السلطة . أما الآن فقد انتقل الخميني الى مقر جديد ، يتكون من أربعة منازل ، كلها من طابق واحد ، تقع على جانبي الشارع ، يضم منزلان منها مكاتب السكرتارية . وعلى الجانب الآخر من الشارع يضم المنزل الثالث مجموعة من الحرس الثوري . أما الرابع فيضم مقر آية الله . توجد داخل المنزل حجرة استقبال طولها ٢٤ قدماً وعرضها ١٦ قدماً . فرشت أرضيتها بسجادة زرقاء عادية ، أما السقف فيزدحم بعدة مصابيح قوية (كشافات) . فتبدو وكأنها ستوديو تليفزيوني متنقل . وتؤدي حجرة الاستقبال إلى ثلاث حجرات صغيرة خاصة ومطبخ صغير للغاية ، احدى هذه الحجرات لزوجة الخميني والثانية لمن يرغب في استخدامها من أفراد أسرته والأخيرة حجرة نوم الخميني . ومن ملاحظاتي وجدت أن كل ممتلكاته الدنيوية تنحصر في الدوشك وصندوق يحتوي على ملابسه ؛ هذا بالطبع إلى جانب كتبه .

* * *

وباعتبار الخميني فقيهاً فقد كانت له اسهاماته الخاصة في علم الفقه . فقد قام بتأليف عدة كتب من أهمها «تحرير الوسيلة» و «الحكومة الإسلامية» . والخميني صاحب عقلية جيدة كما ان أفكاره تتسم بالبساطة . فهو يرى الإسلام ككل وكوحدة . وغالباً ما يتحدث عنه كما لو انه قوة دولية . ويهاجم أي حكومة في العالم الإسلامي تحيد عن تعاليم القرآن ويصفها بالشرك ويعتبر حاكمها «طاغوتيًّا» .

ويرى الخميني ان الصلوات والمناسك تمثل ثمن الإسلام أما السبعة اثمان فهي مسألة مبادىء وتنظيم الغرض منها أن تهدي الناس لفهم العدالة . ويعتقد أن عودة المسلم للإسلام لا بد وأن تتضمن مرحلتين : أولاً ، « التخلية » ، وتعني التخلص من الأفكار والممارسات البالية . ثانياً «التحلية» ، وهي عملية يبدو من اسمها إضافة المذاق الحلو – أو الأشياء الجديدة . ومن بين الأفكار التي كان من الواجب طرحها جانباً في عملية التحلية ، كانت فكرة التقية (عملية التخفي والمخادعة التي كانت اسلوباً ضرورياً يدافع به الشيعة عن أنفسهم إزاء الاضطهاد أيام حكم الأمويين لكنها أصبحت عادة سيئة لم يعد لها مبرر كما يصر الخميني) .

ويتحدث الخميني لمريديه عن المرحلة الثانية التحلية من أنها ستكون اشق من المرحلة الأولى لأنها تتضمن التغيير والتجديد . لكن هذه الأشياء المستحدثة والإجابة على المواقف الجديدة لا يمكن التوصل اليها الا عن طريق الاجتهاد وهو ما يأتي به الفقهاء .

ويعتقد الخميني أن الأئمة يخلقون من نور الله ولهم مكانة لا يستطيع الحكام الدنيويون ولا حتى الملائكة الوصول إليها . والفقهاء هم ممثلو الأئمة وطالما انهم يعرفون عن الشريعة أكثر من أي شخص آخر فهم وحدهم القادرون على أن ينوبوا عن الإمام في غيبته ويمكنهم أن يقوموا بتفسير الشريعة وتنفيذها : « ان مداد اقلام الفقهاء مقدس كدماء الشهداء » .

على أن المشاكل التي تواجه الحاكم في ايامنا هذه متشعبة بدرجة كبيرة بحيث تتخطى المشاكل التي كان يواجهها الحاكم منذ ألف وثلاثمائة عام مضت بحيث يبدو من السذاجة بمكان أن يترك كل شيء للفقهاء . وعندما قابلت الخميني في باريس سألته كيف يمكن لفقيه أن يتعامل ، ولنقل مع مشكلة تتعلق بالاقتصاد أو الفضاء . وكانت إجابته لاذعة تماماً قال «وماذا يعرف الملوك والرؤساء عن الفضاء ؟ وماذا يعرف هؤلاء العسكريون الذين استولوا على السلطة عن الاقتصاد ؟ فالفقيه على الأقل يفهم شريعة الله أما هؤلاء فلا يفهمون شريعة الإنسان ولا شريعة الله » .

* * *

ويرفض الخميني رأي النقاد الذي يقول بان رجال الدين ينبغي أن يبقوا بعيداً عن السياسة ثم يقول : « هل ابتعد الرسول عليه الصلاة والسلام عن السياسة ؟ ولو كان هو مجرد رسول من الله فقط لسلم القرآن للناس واختفى بعد ذلك . لكن الله أمره بالجهاد في سبيله . فقام بتنظيم المجتمع ، وكان بمثابة الحاكم للجماعة . فقاد الجيوش في المعارك ، وأرسل السفراء ووقع المعاهدات . إن القول بإمكانية فصل الدين عن شؤون الدولة هو محض هراء . وهذا هو ما يريده الامبرياليون على حد قول الخميني . يريدون اقناعنا بان الدين مسألة لاهوت لا أكثر . ويدعي الخميني أن البريطانيين عندما دخلوا العراق خلال الحرب العالمية الأولى وضعوا حظراً

على المظاهرات . وذات يوم قدم إلى القائد العام تقرير يقول بان الناس يصيحون من فوق احدى المآذن . فقال القائد « إذا كان ذلك كل ما يفعلونه فليستمروا فيه حتى نهاية العالم وليمكثوا في مساجدهم وليصيحوا من المآذن » .

ويدعي الخميني أيضاً . كما قال لي في احدى مناقشاتي معه ، انه بعد القبض عليه عام ١٩٦٣ ، جاءه شخص من القصر وسأله لماذا يشغل نفسه بالسياسة وقال : « إن السياسة كلها غدر وأكاذيب ونفاق – ومن الأفضل أن تتركها لنا » وكانت اجابة الخميني بان هذا الوصف قد يكون صادقاً بالنسبة للسياسة التي يمارسونها ، لكنه لا ينطبق على السياسة الإسلامية . وبعد هذه المقابلة قال الخميني إن مبعوث القصر أرسل بياناً للصحف يدعي فيه موافقة الخميني على الفصل بين الدين والسياسة وأن تترك السياسة للسياسيين . وعندما وصل الى النجف استنكر الخميني هذا البيان ووصفه بأنه اكذوبة « ان الرجل الذي أذاع هذا البيان كان أحق مني بالنفي » .

* * *

وخطب الخميني وكتاباته لها وقع غريب على الآذان الأجنبية لأن جزءاً من مقدرته يتمثل في استخدامه العبارات من القرآن . وهي عبارات يتعرف المسلمون على معناها ماشرة لكنها تتطلب الكثير مس الشرح لغير المسلمين . وقد ذكرت من قبل استخدامه لكلمتي « طاغوتي » و« مستضعفين » . وقد استخدم كلمات قرآنية أخرى ليبين التناقض بين « المستكبرين » و« المحرومين » . وعندما بدأت محاكمة كبار المسؤولين في نظام الشاه ووجه لهم الاتهام بأنهم « جنود الشياطين » ، وجد بعض الصحفيين الغربيين أن هذا التعبير يثير شيئاً من السخرية لكنه كان تعبيراً مألوفاً لدى المسلمين .

ولكي أضرب مثلاً على عمق أثر كلمات الخميني ، أذكر مقابلة تمت في طهران مع إحدى أميرات الكاجار متزوجة من سفير سابق . ولاحظت أنها قد فقدت صوتها تماماً وحينما سألتها عن السبب قالت إنها قضت ربع ساعة في الليلة السابقة على سطوح بيتها تصيح بالتكبير على مجلس الأمن ، «لأن الإمام طلب منا ذلك » . ودافعت عن فعلتها بقولها أنا لست « طاغوتية » بل أنا « مستضعفة »

كانت هذه هي كلمات الأميرة التي رأت الثورة وهي تصادر كل اراضيها وقصرها خارج طهران .

والخميني ينتمي إلى التقاليد الشيعية الراسخة . وكثيراً ما كان يكرر ويردد وصية علي لابنيه الحسن والحسين « فلتكونوا دائماً حماة الضعفاء وأعداء الظالمين » . وقال الخميني إن هذه لم تكن وصية علي لابنيه وحسب ، وانما لكل الأئمة والفقهاء الذين يمثلونهم . وهي تعليمات يمكن للفقهاء أن ينفذوها لأنهم ليسوا مسؤولين أمام أحد ، ويتمتعون باستقلال اقتصادي ، وليس لديهم دوافع خفية . أو أي من مشاغل الملوك . الخاصة بادارة الدولة وسد احتياجات البلاد . والاحتفاظ بالعرش لوارثيهم .

وتعد أفكار الخميني تقدمية للغاية من جوانب عدة . في كتابه « الحكومة الإسلامية » يناقش موضوعات مثل الامبريالية والاستغلال ونفوذ أمريكا بالطرق المعاصرة كما قدم كتابه بآية مناسبة من القرآن « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلّة » . وهو يؤكد في كتابه هذا ، كما يفعل في سائر كتبه الأخرى موضوعين أساسيين – العداء للولايات المتحدة ، التي يعتبرها عدو إيران اللدود ، وكراهية الصهيونية واسرائيل . وقد جاء في احدى فتاويه انه يحق اعطاء الفلسطينيين بعض الأموال المخصصة للإمام وهذا مما لا شك فيه أسعد العرب .

ومن إحدى سمات الخميني البارزة التي كانت سبباً في ذيوع صيته أن اهتماماته كانت تتخطى دائماً حدود إيران ولم يكن ضيق الأفق على الإطلاق . فلم يخاطب الناس باعتباره احد آيات الله الشيعة أو باعتباره إيرانياً ، انما باعتباره قائداً إسلامياً وحجة في الدين يتحدث الى المسلمين كافة . فالإسلام حسب قوله ، يجعل المرء حراً في كل أفعاله ـ في شخصه وفي سمعته وفي عمله ومسكنه ومأكله ـ شريطة ألا يفعل ما يناقض الشريعة .

* * *

كانت هذه هي المبادئ التي حملها معه الخميني إلى النجف عندما طرد من مدينة قم . وعلى الرغم من انه اضطر للتخلي عن حوزته ، الا أنه كان لا يزال يعتبر نفسه جزءاً منها ، ويرسل لمريديه من النجف الدرس الأسبوعي مسجلاً على

كاسيت . وكان المريدون يتحلقون لسماع صوته ، ثم بدأ آخرون من خارج الحوزة يحضرون — بالتدريج لسماعه أيضاً . وسرعان ما تحولت الرسائل المسجلة على الكاسيت من علوم الدين لتصبح رسائل سياسية بشكل متزايد . وطبعت الشرائط وتم تداول الرسائل خارج مدينة قم ، في طهران ثم في سائر انحاء البلاد . وعرفت هذه الرسائل «بالإعلامية» . وكما قال أحدهم ، إن ما يحدث ما هو إلا ثورة من أجل الديمقراطية وضد الأوتوقراطية تقودها الثيوقراطية مستخدمة الأدوات التكنولوجية . أو كما يقول أحد السفراء الشيوعيين بطهران « لقد ظهر الرجل المناسب في اللحظة التاريخية المناسبة . ليقول الأشياء المناسبة » .

وأصبح الخميني بالتدرج في منفاه بالنجف مركز اهتمام كل المعارضين لنظام الشاه خارج البلاد وداخلها . وقد تخلى بعض هؤلاء الذين شغلوا مناصب حكومية بعد الثورة مثل ابراهيم يزدي وصادق قطب زاده ، عن دراستهم في أمريكا وذهبوا الى النجف ليقدموا خدماتهم الى آية الله ، كما اتصل به رجال السياسة الساخطون في طهران مثل مهدي بازرجان .

وفي عام ١٩٧٤ ، وبينما كان الخميني لا يزال في النجف ، وفي الوقت الذي كانت العلاقات فيه متوترة بين العراق وإيران بشكل خاص أرسل الرئيس العراقي أحمد حسن البكر زوج ابنته ليقابل الخميني طالباً منه تأييده في حملة العراق ضد الشاه لكن الخميني رفض . اذ أنه كان يشعر بأن الوقت لم يحن بعد للقيام بحملة صريحة ضد الشاه واستشهد بالقول المأثور لكل شيء أوان . فاتهمه العراقيون بالجبن ، لكن هذا لم يكن دقيقاً . فقد كان يعرف أن الوقت للهجوم على الشاه سيحين حينه وآثر أن يختار بنفسه الوقت وألا يتعاون مع أحد .

وفي عام ١٩٧٧ تمت تسوية النزاع بين طهران وبغداد . ولما كانت نشاطات الخميني تسبب كثيراً من القلق للشاه والسافاك ، فقد فاتحت طهران بغداد في الأمر . وأشار الشاه أنه طبقاً للاتفاقية المبرمة بينهما في مارس ١٩٧٥ تعهدت كل من العراق وإيران بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلد الآخر ومن الواضح أن نشاطات الخميني تتعارض مع هذا التعهد . وكان ذلك كله متّسقاً مع روح الاتفاقية بين العراق وإيران . وهكذا ذهب السيد سعدون شاكر

مدير المخابرات (الذي أصبح فيما بعد وزيراً للداخلية) إلى الخميني وأخبره أن الشاه قد طلب تنفيذ اتفاقية ١٩٧٥ ، لذا فعليه أن يختار : إمّا أن يتوقف عن دعوته للثورة أو أن يرحل عن البلاد . وبعد مناقشة قصيرة فضل الخميني أن يرحل . وعندما علم الشاه بقرار الخميني غير رأيه اذ انه كان يدرك أن خطر الخميني قد يكون أكبر خارج العراق عنه في الداخل . لذا طلب من العراقيين ألا يسمحوا للخميني بالخروج وفي نفس الوقت يمنعوه من الاستمرار في حملته . وكان رد الرئيس صدام حسين ان هذا يعني إلقاء القبض عليه وهذا أمر لا يمكن القيام به .

* * *

وقبل تنفيذ خروج الخميني وقعت له مأساة شخصية . فقد كان ابنه الأكبر مصطفى يضطلع بالدور الأساسي في حمل رسائله الى مؤيديه داخل ايران . وفي سبتمبر ١٩٧٧ ، سقط في كمين اعده له السافاك وقتل (كان من الواضح أن السافاك هي التي قامت بقتله ، فقد اعقبت الحادث موجة من الاعتقالات للأشخاص الذين توصلت السافاك لأسمائهم من خلال الخطابات التي كان يحملها مصطفى) وقد حاول البعض أن يعتبروا الثورة الإيرانية بصفة عامة ، أو على الأقل دور الخميني فيها ، وكأنها عملية انتقام شخصية لاغتيال مصطفى وهذا غير صحيح . على أن قوى الثورة كانت قد وصلت الى حد لا يمكن مقاومته تقريباً عندما قتل مصطفى .

وتحول الحزن على مصطفى الى مناسبة يظهر فيها الناس ولاءهم للخميني وعداءهم للشاه . وقد حاولت الألوف الذهاب الى النجف لينضموا الى مجلس العزاء وليشاركوا أباه الأحزان ولكن الشرطة ردتهم . فردوا على ذلك بإقامة مجالس للعزاء في «طهران» و «قم» و «تبريز» و «اصفهان» وأقيمت كل خميس كذلك مجالس «التراحيم» بنفس الطريقة وبنفس المشاعر . لكن في بداية نوفمبر وبمناسبة الاحتفال بمجلس الأربعين وهو آخر أيام العزاء قال الخميني لأنصاره «لقد سكبنا ما فيه الكفاية من الدموع . ولقد تذكرنا وفاة ابني عدة مرات . وقد قدمتم العزاء لنا وللإمام عدة مرات . ومن الآن فصاعداً لن اتقبل أية تعزيات . فما نحتاج اليه الآن هو العمل» . وأصدر الخميني أربعة تعليمات

لمؤيديه في إعلاميته الأخيرة من النجف وهي : أن يقاطعوا المؤسسات الحكومية ، طالما أن الحكومة لا تستطيع أن تزعم انها حكومة إسلامية وبأن يسحبوا كل أشكال التعاون مع الحكومة ، وألا يسهموا في أي نشاط قد يفيد الحكومة ، وأن يقيموا مؤسسات إسلامية جديدة في كل المجالات - الاقتصادية والمالية والقضائية والثقافية وهكذا . ان فتوى العلماء مقدسة كدماء الشهداء . وهكذا كان الفصل الثاني من الثورة قد بدأ .

الفصل الثالث عشر

مواجهة الجيش

في اليوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٧ ، طار الخميني الى فرنسا ، وتوجه مباشرة إلى بيت صغير بضاحية « نوفل لو شاتو » ، التي تبعد ٢٠ ميلاً غربي باريس والذي أصبح مقر قيادته حتى عاد عودته النهائية الى ايران . وقد التقيت به لأول مره في هذا المكان في ديسمبر من نفس العام .

كان يوجد خارج الفيلا التي يقيم فيها مكان لوقوف السيارات ، اقيم فيه سرادقان . واحد مخصص لعقد المجلس اليومي للمريدين ، حيث كان يخطب فيهم آية الله بعد صلاة العشاء ، والسرادق الثاني كان يقدم فيه الطعام للمحيطين به . وقد وجدت يوم وصولي الى هناك أناساً جاءوا من مختلف بلاد العالم – طلبة من السوربون ، خريجون من هارفارد وييل وبركلي وجامعات أمريكية أخرى ، وآخرون كثيرون من عائلات شهيرة في المجتمع الإيراني والحياة العامة . كما كان يتواجد بصفة دائمة أعضاء لجنة الطلبة الإيرانيين في باريس ، وعلى رأسهم أبو الحسن بني صدر . وقد قامت اللجنة بترتيب رحلة الخميني واستئجار الفيلا بالنيابة عنه . واضطلع بعض هؤلاء الأتباع بدور الحراس خشية أن تحاول السافاك أو وكالة المخابرات المركزية بتجربة بعض أدويتها اليائسة للتخلص من هذا الشيخ المتمرد . وحصلوا على تصريح من البوليس الفرنسي بحمل عدد محدود من الأسلحة . بما في ذلك مدفعين رشاشين ، لكن أصدقاءهم الفلسطينيين أرسلوا لهم المزيد من السلاح .

قابلني على الباب آية الله حسين منتظري ، أهم رجل دين بعد الخميني ، والمفترض أن يحل محل الخميني ان حدث للأخير أي شيء . وأخذني لأقابل الخميني في الفيلا التي يسكن فيها وسألني الخميني بعد أن تحدثنا بعض الوقت ،

عما إذا كنت أود أن أصلي العشاء . وعندما عبرت عن رغبتي في ذلك أخبر حفيده حسين أن يصحبني الى السرادق . وبعد الصلاة بدأ الخميني في مخاطبة مؤيديه .

بدأ الحديث بنبرة خفيضة لكني لم أسمع قط صوتاً هادئاً ومؤثراً إلى هذا الحد . كان الصوت يبدو وكأنه يداعب آذان سامعيه بموجات رقيقة . ويجعلهم في حالة أقرب الى النشوة . في البداية قام حسين بترجمة الرسالة الى العربية من أجلي ، لكن بعض الجالسين بالقرب منا رجونا التزام الهدوء . وعلى أي حال فقد فضلت أن أراقب أثر كلماته على سامعيه أكثر من التعرف على معانيها على وجه الدقة . وكان المشهد غريباً للغاية . فها هو ذا الإمام بلحيته الطويلة الرمادية وعمامته الشيعية السوداء الموحية بالحزن وكأنه شخص بعث لتوه من القرن السابع ومع هذا ، كان كل هؤلاء الناس ، ممثلو النخبة الفكرية والاجتماعية في إيران ، ينصتون اليه في صمت مطلق ، مستغرقين في اهتمام شديد لكل كلمة تتفوه بها شفتاه .

ولعل من أكثر الأشياء التي لفتت نظري عندما سنحت لي الفرصة لكي اتحدث مع الخميني على انفراد ، هي مقدرته على أن يلم بأساسيات أي موقف حينما رأيته كان قد أصبح متيقناً لما يقرب من عام أن الساحة كانت معدة للثورة في إيران ، لكنه كان يعلم انه لم تكن هناك لا القوى السياسية ولا القيادات القادرة داخل إيران على توجيه الثورة – كما ان بقايا الأحزاب السياسية القديمة والتجمعات الجديدة مثل مجاهدين خلق وفدائيين خلق كانت تعيش في حالة حصار مستمر إلى درجة لا تسمح بوضوح الرؤية ، كما أن بعضهم توصل إلى حلول وسط مع النظام . وكان الأمر كذلك مع الزعماء الدينيين ، لكن الخميني لديه يقين راسخ بأن الدين سيكون القوة الدافعة وراء الثورة ، وهذا يعني أنه كان الرجل المقدر له قيادتها .

كان الخميني يدرك جيداً أثر «الإعلاميات» التي يصدرها ويتداولها الإيرانيون . كانت استجابتهم واضحة ، وكان يمكنه التأكد من تأييد الشعب . ولم تكن المشكلة هي كيفية تغيير الرأي العام وانما كيفية التغلب على قوة القمع التي يتحكم فيها الشاه . لم تكن السافاك تثير قلقه فقد يكون لديها خمسون ألف

عميل ، لكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا أمام خمسة وثلاثين مليوناً ؟ قبل أن يغادر الخميني النجف بوقت طويل كان قد توصل الى نتيجة مؤداها أن المشكلة الحقيقية تكمن في الجيش .

* * *

كان جيش الشاه يبلغ ٧٠٠,٠٠٠ جندي وضابط ، وبأي حال من الأحوال ، كان لا بـد من تحييده . كـانت الجماعـات السريـة مثل مجاهديـن خلق ، وفدائيين خلق ، وكذلك بعض أعضاء الهيئة التي تعمل مع الخميني ، يتحدثون عن المقاومة المسلحة . وقد وصف لي إبراهيم يزدي ، فيما بعد ، الجو السائد في نوفل لو شاتو في تلك الأيام . شرح لي كيف أنه وآخرون مثله ممن تلقوا تعليمهم في الغرب كانوا يتبعون الطريقة التي تعلموها في اداء عملهم ، فيقومون باعداد أوراق عمل يقدمونها لآية الله في مجلسه اليومي للموافقة عليها . وقد تناول كثير من هذه البحوث ضرورة المقاومة المسلحة ، وكثيراً ما كان واضعو هذه البحوث يحاولون تدعيم وجهة نظرهم المكتوبة بالمناشدة الكلامية . وعادة ما كان الخميني يتركهم يتكلمون . ثم يتدخل بعد ذلك : « لا ، لا يمكنكم مواجهة الجيش . ولا يمكن محاربة سلاحه بأي سلاح تحصلون عليه . الطريقة الوحيدة لمحاربة الجيش هي نزع سلاحه » . وقال إن السلاسل التي تربط أعضاء القوات المسلحة بالشاه وهي يمين الولاء وإطاعة الأوامر ، لا بد أن تتحطم بشكل أو بآخر . وفي البداية بدت استراتيجية « نزع سلاح الجيش » غير مفهومة بالنسبة لهؤلاء المحيطين بالخميني في منفاه بباريس .

ان التحدث عن مثل هذه الأمور ايسر من ممارستها . فقد كون الشاه صفوة كبيرة من بين الضباط تتقاضى مرتبات مرتفعة للغاية ، ويتمتعون بمميزات عذيدة ويدينون له بكل شيء . أما أفراد القوات المسلحة من الرتب الأخرى ، فكانوا يخدمون في وحدات بعيدة عن أقاليمهم – فالأذربيجانيون يخدمون في طهران ، والطهرانيون يخدمون في اذربيجان وهكذا . وهذا يعني انه لم تكن هناك عناصر مشتركة كثيرة بين القوات المسلحة وأفراد الشعب ، الذين قد يكونون مختلفين عنهم في الانتماء العرقي وأحياناً اللغوي . والأقسام الحساسة في الجيش كان أفرادها

من الأقليات ، ولم يكن من المحتمل أن يستجيبوا لنداء آية الله . (شبكة الاتصالات مثلاً ، كان يديرها البهائيون) .

ومع بداية عام ١٩٧٧ ، وجه الخميني عدداً متزايداً من اعلامياته إلى القوات المسلحة . كانت الرسالة بسيطة : ينبغي عليهم الا يخدموا الشاه . فالشاه هو الشيطان ، الطاغوتي المتجسد . وهم جنود الله ، « المستضعفين » . وينبغي عليهم ألا يطلقوا النار على اخوانهم من المسلمين . لأن كل رصاصة تصيب قلب مسلم هي أيضاً رصاصة تصيب قلب القرآن . يجب أن يعودوا الى قراهم ولأسرهم وأراضيهم ، يجب أن يرجعوا الى المسجد ، الى الله .

في منتصف عام ١٩٧٧ ، بدأت التقارير تسجل حالات هرب من الخدمة العسكرية . ومن الغريب ، وبناء على الوثائق التي عثر عليها بعد الثورة ، أن البعثة الإسرائيلية في طهران كانت أول من لاحظ ما يحدث بشكل جدي . وتمَّ توصيل هذه التحذيرات للشاه ، الذي شكك في صحتها ، قائلاً إن ما دفع البعثة الإسرائيلية لتقديم هذه التحذيرات هو حنق اسرائيل بسبب تعاون ايران مع الحكومات العربية داخل منظمة الأوبك وتحسن العلاقات بين الشاه والعربية السعودية ومصر .

وبحلول خريف عام ١٩٧٧ ، ضاعف الخميني من هجماته الدعائية الموجهة للجيش . وإذا كان قد طلب من الجنود من قبل الهرب من الخدمة العسكرية ، فإنه قد أخذ الآن يحثهم على أخذ أسلحتهم معهم « فلتتركوا الجيش بأعداد صغيرة ، اما فرادى أوكل اثنين أو ثلاثة معاً . فأنتم جند الله . خذوا أسلحتكم معكم ، فهي أسلحة الله » .

* * *

وأخذ الهجوم المضاد لقوى الشاه أشكالاً عدة . ويجب أن نذكر هنا حادثة مؤسفة تبين استخدام السافاك بما اسميته الرقابة من خلال الحذف والإضافة . ففي نوفمبر عام ١٩٧٧ تسلم فاردهاد مسعودي ، رئيس تحرير جريدة اطلاعات اليومية الإيرانية مقالاً عدوانياً يتضمن هجوماً شخصياً على الخميني ويتهمه بالفساد والشذوذ الجنسي وما الى ذلك . وكان مسعودي يعرف انه من عادة السلطة أن ترسل مقالات جاهزة للنشر ، تتفق مع أسلوب الصحيفة وكتابها ،

لكنه صدم للغاية عندما قرأ هذه المقالة بالذات ، حتى انه اتصل بوزير الإعلام وقدم شكوى من ذلك . وقال « لو نشرنا هذا المقال فستهاجم مكاتبنا » واعترف وزير الإعلام بأنه لم يقرأ المقال الذي أثار ملاحظة مسعودي فقد تسلم مظروفاً مغلقاً من القصر ، مؤشر عليه بتحويله لجريدة اطلاعات . ووعد الوزير بالاتصال بالقصر . وقد فعل ذلك لكنهم أخبروه بضرورة نشر المقال – وحين احتج مسعودي مشيراً الى أن هذا الاستفزاز سيؤدي حتماً الى رد فعل عنيف قال له وزير الإعلام : « لا تقلق سوف أخبر وزير الداخلية ليرسل لك بالحماية اللازمة » . وقد وقع الهجوم المتوقع . وقامت الجماهير الغاضبة بتحطيم كل نوافذ واجهة جريدة اطلاعات وقد علم مسعودي فيما بعد ان قسم الإعلام بالسافاك هو الذي تولى اعداد المقالة .

* * *

وقد قام الشاه بزيارة الولايات المتحدة في نوفمبر من نفس العام . حيث استقبل بكل مظاهر الاحترام في البيت الأبيض ، ولم يعكر صفو هذه الزيارة سوى المظاهرات المعادية التي قام بها الطلبة الإيرانيون . وقد قام الرئيس كارتر برد الزيارة في ليلة رأس السنة الجديدة . وقد كانت هذه هي المناسبة التي أخبر فيها كارتر مضيفه : « إن إيران هي واحة الاستقرار في بحر هائج ، وأنا موقن ان قيادة جلالتكم العادلة العظيمة الملهمة هي السبب وراء كل هذا » .

وفي أول يناير ١٩٧٨ ، قامت كتيبة كاملة مضادة للطائرات مكونة من خمسمائة جندي وتعسكر في منطقة مشهد ، بالفرار من الخدمة بأسلحتها ، وانتشرت الاضطرابات في جميع أرجاء البلاد . اذ أدت تكتيكات الخميني الى زيادة عدد الاضرابات والمظاهرات . وقد أدى ذلك إلى الحد من طاقة الشرطة والسافاك ، مما جعل تدخل الجيش ضرورياً . وعلى الرغم من أن الجيش لم يكن مشتركاً بشكل مباشر الا أن اعلاميات الخميني كانت تعد الناس لليوم الذي تقوم فيه الثورة لا محالة . وطالب الخميني أتباعه بألا يصطدموا بالقوات المسلحة تحت أي ظرف ، رغم أن الجيش قد يبدو موالياً للشاه . « إذا يجب ألا ينسوا ان رجاله ما هم إلا اخوة لهم . فالمظهر الخارجي خداع – فرغم انهم يرتدون

الزيّ العسكري ، فإن الجنود جزء من الشعب – ويشعرون بنفس المشاعر مثل بقية الشعب – إن كل ما نحتاجه هو ضربة واحدة تطيح بالحلقة التي تربطهم بالشاه » وجاء في رسالته : « لا تهاجموا الجيش في صدره ، وإنما هاجموا قلبه . يجب أن تناشدوا قلوب الجنود ، حتى وهم يطلقون النار عليكم ويقتلونكم . فلندعهم يقتلون خمسة آلاف – عشرة آلاف ، عشرين ألفاً – انهم اخوتنا وسنقابلهم بالترحاب . وسنبرهن على أن الدم أكثر قوة من السيف » .

* * *

وفي احدى اعلامياته التي تداولها الناس في ذلك الوقت تحدث الخميني عن الشهداء الذين يشكلون عنصراً هاماً في التقاليد الشيعية : « يقال أحياناً إن البطل هو جوهر التاريخ ، لكن من قال ذلك فهو مخطئ . إن التشهيد هو جوهر التاريخ ، الروح الدافعة وراءه . فلتعروا صدوركم للجيش ، لأن الشاه سوف يستخدم الجيش والجيش سينفذ أوامره . نحن نعرف ان الأمور مختلطة على الجنود لا يعرفون كيف يتصرفون لكنهم سيجدون أنفسهم مضطرين لإطاعة الأوامر ، كيف يتسنى لهم عصيان الأوامر وهم ملزمون بنظام الجيش ، لكنهم سيحررون أنفسهم يوماً ما من نظام الشيطان ويرجعون الى نظام الله . إذا صدرت إليهم الأوامر بإطلاق النار عليكم فلتعروا صدوركم . فدماؤكم والحب الذي ستظهرونه لهم وأنتم تسلمون الروح لبارئها ، سوف يقنعهم ، فدماء كل شهيد هي ناقوس يوقظ ألفاً من الأحياء» .

واستخدم الخميني كلمة تتكرر في التراث الصوفي « وجدان » وهي تعني الوعي الداخلي أو الضمير الكامن في قلب الإنسان . قال الخميني « يجب أن تتوجهوا الى وجدان الجيش » . فعلى الرغم من حجم الجيش والرعاية البالغة التي أحيط بها ، إلا أنه كان يدرك نقاط الضعف فيه . فهو مثقل بآخر الاختراعات التكنولوجية الأمريكية ، ومهما كانت فائدة هذه الاختراعات ، إلا أنها قليلة الجدوى في مجابهة أمة عقدت العزم . ولذا تمكن الخميني من الفصل بين الجنود والضباط فتحول الجيش إلى مجرد شبح . وتمكن بالتالي من نزع سلاح جيش الشاه بالفعل . قبل وقوع المعركة النهائية مع الشاه .

الفصل الرابع عشر

سقوط الشاه

انقضى وقت طويل قبل أن يدرك الشاه ومن حوله التغيير الذي طرأ على الجو العام ، والذي أضحى واضحاً لكل الآخرين تقريباً . ولم يشعر الشاه بضرورة الاهتمام بما يحدث إلاَّ نهاية عام ١٩٧٧ ، عندما عين رئيساً جديداً للوزراء (جامشيد أموزيجار) ، رئيس أحد أجنحة الحزب السياسي الواحد ، راستاخيز وقد شغل أمير عباس هوفيدا ، سلف جامشيد ، منصبه لمدة اثني عشر عاماً ، وهي مدة طويلة لم يسبق لها نظير . كان جامشيد يعطي لمحدثيه الانطباع بأنه رجل لطيف جداً ، مهذب في سلوكه ، أنيق في ملبسه نموذج للتكنوقراطية الجديدة في العصر الحديث . وكلما تحدث أموزيجار عن « الخطة » يبدو أن الحقائق والأرقام كانت جاهزة وفي متناول يده . ولقد كان من الواضح تماماً أنه ليس سياسياً . بدليل أنه لم يكن يعرف إلا القليل عما تعني كلمة « الخطة » بالنسبة للناس ، ولا يدري شيئاً عما كان يحدث في البلاد ، إذ لا يمكن تحويل رجل بيروقراطي رقيق ، إلى رجل سياسة بمجرد وضعه هكذا ببساطة في السلطة . فأموزيجار كان مهندساً بحكم تعليمه وتدريبه . وقد شغل منصب وزير الداخلية ، وهي وظيفة جعلته مضطلعاً بمسؤولية شؤون البترول ، وعندما أصبح للبترول وزارة مستقلة أصبح هو مسؤولاً عنها .

كان يعطي الانطباع بأنه ذو عقلية مرتبة ، حريص على إدخال شيء من النظام على شؤون البلاد . ولكنه لم يختلف كثيراً عن سلفه رغم أنه ، أيضاً ، لم يكن رجل سياسة .

ولم تؤد التغيرات التي جرت على مستوى القمة الى أي تحسين في الموقف . فالمظاهرات مستمرة ، وهناك الفرار من الجيش ، واعلاميات الخميني متداولة

في كل مكان . والذي دعا في ذلك الوقت الى تكوين اللجان الثورية « فليكن كل مسجد لجنة ثورية » (لأن الشرطة والسافاك – لا يمكنها التغلغل الى المسجد) . وعلى هذا كان من الصعب إخضاع التغيير للتحليل – فلقد كان هناك إحساس بالخطر ، لكنه خطر من الصعب تحديده ، ومن الأصعب مقاومته .

في فبراير بدأ الحديث عن اعترام الشاه للقيام برحلة للتزحلق على الجليد في سان موريتز ، وبدأ إعداد فيلا سوفريتا لاستقباله ، لكن تم إلغاء الرحلة . ثم أعيد التفكير في الرحلة مرة أخرى . وحقيقة يمكن تبرير احتياج الشاه الى مثل هذه الرحلة ، خاصة وأن موظفي القصر كانوا يعانون من الإرهاق بعد عمل استمر عدة شهور وبدا الإعياء واضحاً عليهم ، فإذا أخذ الشاه إجازة قصيرة ، أخذوا هم راحة أيضاً . وكان الجنرال افشار أميني هو الرجل الأول في القصر في واقع الأمر ، فقد كان يعمل مديراً لمكتب الشاه الخاص ، ورئيساً لهيئة مكتبه السياسي ، رجل يعمل بلا كلل ، وكان حلقة الاتصال بين الشاه والسافاك والقوات المسلحة ، وموزع المنح والأفضال ، – المنظم الأساسي لكل عناصر الحكم الديكتاتوري الجديد ، ولذا فقد كان من وجهة نظر الخميني طاغوتياً مذنباً مثل الشاه نفسه تقريباً . وربما في نهاية مايو وأوائل يونيه تقريباً بدأ الجنرال أفشار أميني ينضم إلى هؤلاء الذين يفكرون ، بأنه قد يكون من المفيد كثيراً أن يذهب الشاه للخارج . فقد كان يتوقع أن تهدأ الأمور ، خاصة وأن أعضاء الأسرة المالكة بالخارج والجامعات والمدارس مغلقة بسبب الإجازات ، إذ ربما ، تتاح الفرصة للجميع للتفكير فيما ينبغي فعله فيما بعد .

وبدلاً من أن تهدأ الأمور ، شهد منتصف الصيف زيادة في حدة النضال . فقامت في ١٧ يونيه مظاهرات ضخمة معادية للحكومة ، وبخاصة المظاهرات التي قامت في مدينة قم . ورغم ان الخميني في النجف كان يطالب بخلع الشاه ، كان المتظاهرون يطالبون بإجراء انتخابات جديدة فقط ، وتطبيق دستور عام ١٩٠٦ . كان موعد إجراء الانتخابات يحل في عام ١٩٧٩ ، لكن إزاء توتر الموقف بدأت الحكومة تلمح بأنها ستحاول من جانبها تقديم موعدها . وتدل الوثائق التي اكتشفت بعد الثورة ، أن النية كانت متجهة لإحلال حكومة جديدة

محل حكومة أموزيجار ، يترأسها سياسي محنك ، يتولى حماية القلعة لمدة ستة شهور أو سنة ريثما يتم الإعداد لإجراء انتخابات جديدة .

* * *

وفي الواقع يبدو أن كل واحد تقريباً كان عند رأيه أو رأيها ، لما ينبغي فعله . كان يوجد في القصر ثلاث شخصيات رئيسية – الشاه والأمبراطورة والجنرال أفشار . أما خارجه فكان يوجد شخصيات ذات نفوذ مثل الأميرة أشرف ، واردشير زاهدي ، سفير إيران في واشنطن ، وعديد من الساسة ورجال الأعمال الذين ازدهروا في ظل نظام الشاه .

كانت الأمبراطورة فرح في موقف جيد لتكون رأيها الخاص بها . فقد كانت تلتقي مع أعضاء أسرتها بشكل منتظم ، كما كان لديها دائرة أصدقاء خاصة .

وكان الكثير من الناس ، بمن في ذلك موظفو البلاط وجنرالات السافاك والجيش ، يشعرون أن لديهم فرصة أفضل للتعبير عن وجهة نظرهم للامبراطورة مما لو تحدثوا للشاه مباشرة .

أصبح الشاه ذاته في ذلك الوقت تقريباً ، غير قادر على الاستجابة للواقع المحيط به كلية . فقد كانت تنتاب ذلك الرجل المعقد متقلب الأطوار نوبات صمت مختلفة المعاني : صمت الأوتوقراطي الذي لا يسبر له غور ، الذي ينصت ولا يتحدث إلا ليصدر الأوامر ــ صمت أب كئيب من أجل شعبه ، يتأمل العالم وحماقاته بعين لا تغشاها الأوهام ــ والآن صمت الإحباط ، لرجل وقع في الكمين وتنتابه الحيرة . كان الشاه يقضي الساعات الطوال محملقاً من خلال نافذة مكتبه ، ويجيب على من يتحدثون إليه بغمغمات أكثر من كلمات ، وكان من المستحيل معرفة ما إذا كان الشاه يعطي انتباهاً لما يقال له أم لا ، أو معرفة ما كان يدور بخلده * .

---

* أكدت الامبراطورة خلال وجودها في المنفى بالقاهرة ، أنها لم تدرك الأمر إلا مؤخراً والأسباب التي كانت وراء التقلب الذي كان يطرأ على مزاج الشاه في ذلك الوقت - فقد كان يعرف مدى خطورة مرضه ولكن هذه المعركة تركته حائراً لا يعرف ما هي أفضل الطرق لمواجهتها . في يوم يقرر أنه الأفضل أن يتنازل عن العرش لولي العهد ثم يغير رأيه في اليوم التالي خشية أنْ يفسر تنازله - دون أن يكشف عن مرضه - انه من علامات الضعف . وتكون النتيجة الوحيدة ان العاصفة التي تجمعت ستهب على ابنه بدلاً من أن تهب عليه لذا كان يناقش الأمر من جميع نواحيه مع نفسه .

وأصبحت الامبراطورة ، من ناحية أخرى ، أكثر انشغالاً من الشاه نفسه ، بضرورة الإبقاء على العرش لابنها ولي العهد ، وهي امرأة ذكية معتدة بنفسها . أحياناً ، كانت خيانات زوجها تثير غضبها الى حد أنها عزمت على تركه . كما حدث لمرة أخرى ولأسباب أخرى خلال فترة المنفى في المكسيك كانت تعلم تماماً أن زواجها لم يكن قط بدافع من الحب ، وكما أخبرت جعفر شريف إمامي في لحظة احساس بالمرارة «كانت قيمتي بالنسبة لهم – تكمن في انني أصبحت حاملاً . لقد كنت بقرة ولادة» لكن كبرياءها جعلها تحتفظ بولائها .

* * *

كان هناك طرفان خارجيان يهمهما للغاية كل ما يدور داخل إيران وهما الأمريكيون والاسرائيليون . وفي ذلك الوقت كانت وكالة المخابرات المركزية قد زاد حجمها الى حد أن مجمع السفارة لم يعد يتسع لموظفيها ، الذين نقلوا على عدة مبانٍ ملحقة ، ليزاولوا فيها عملهم كانت من المفروض أن تخصص لشؤون المساعدات والاتصالات وهكذا ، وقد تم إحضار عديد من الموظفين من وكالة المخابرات المركزية الى البلاد خلال السنوات الأخيرة ليعملوا تحت ستار وظائف متعددة كدبلوماسيين ومستشارين ورجال أعمال – لكن عندما ازدادت حدة الأزمة راحوا ينفقون وقتاً أقل في وظائفهم الظاهرية ووقتاً أكثر في مهامهم الحقيقية – لقد بدأ تجنيد وكالة المخابرات الأمريكية .

ولقد كان الاسرائيليون في الحقيقة ، هم أول من قرع ناقوس الخطر ، فخسارتهم من جراء سقوط الشاه أفدح من خسارة أي طرف آخر . فقد كان حليفاً قديماً له مصالح مشتركة ، وشريكاً لا يقدر بثمن في تبادل المعلومات والتجارة التي كانت تصل إلى ٤٠٠ مليون دولار سنوياً . كما كانت إيران أيام حكم الشاه عميلاً جيداً في سوق الأسلحة الإسرائيلية ، وحتى عندما كان الشاه مشغولاً للغاية بتنسيق سياسة البترول مع شركائه في منظمة الأوبك ، اتسع وقته لأن يطلب من اسرائيل أن تبيعه أسلحة صغيرة تساوي ٦٠٠ مليون دولار – أما الخميني من الناحية الأخرى ، فقد أنشأ علاقات وثيقة مع الفلسطينيين الذين كان يقوم بعضهم بحراسته ، على حين كان يقوم بعضهم الآخر بتهريب الأسلحة

إلى إيران ليستخدمها مجاهدين خلق وفدائيين خلق أيضاً . كما كان الإسرائيليون يعلمون أيضاً أن الطائفة الشيعية الكبيرة التي تقطن جنوب لبنان كانت تعارض الاحتلال الإسرائيلي هناك بنفس قوة معارضة الفلسطينيين .

كان يرأس البعثة الإسرائيلية في طهران «يوري لوبراني» المسؤول السابق بالموساد ولم تكن تسمى سفارة ، بل كان يطلق عليها « مكتب الاتصال » ، لكنها كانت بمثابة قلعة أكثر منها أي شيء آخر . فقد كانت محاطة بمتاريس ومزودة بأبواب صلبة ، كما كان يوجد طريق للهرب في حالة الطوارئ ، عبارة عن سلم حديدي يؤدي الى سطح المبنى ومنه إلى مبنى مجاور يمكن النزول عن طريقه إلى شارع آخر . ولقد قدم الإسرائيليون تقريراً عن المخاوف التي تساورهم بشأن الأحداث الجارية لكن حينما وصل التقرير الى الشاه عن طريق الجنرال أفشار ، بعث الشاه برسالة للإسرائيليين عن طريق السافاك ، يخبرهم فيها بألا ينشروا الشائعات التي تثير الذعر .

* * *

كان من المعروف آنذاك أن هناك أربعة سبل أساسية ، يفكر فيها المسؤولون ويختارون من بينها :

أولاً : أن يبذل الشاه جهداً خارقاً لإدخال قسط من الحرية على النظام .

ثانياً : أن يضرب الشاه بيد من حديد وأن يسحق الثورة الناشئة عن طريق القوة . لكن من الواضح بشكل عام ، أن الوقت كان متأخراً جداً لاتخاذ أي إجراء نحو إدخال أي قسط من التحرر ، لأنه لن يتمتع بالثقة أو النجاح ، كما ان الثقة في الجيش كانت متزعزعة للغاية ، لذا فإن سبيل العنف سيكون شيئاً محفوفاً بالمخاطر في أفضل الأحوال .

أما السبيل الثالث الذي كان يؤيده كثيرون هو أن يأخذ الشاه إجازة طويلة ، ويوكل الأمر إلى مجلس وصاية تترأسه الأمبراطورة فرح . وإذا تحسنت الأمور ، يكون في مقدور الشاه أن يعود في الوقت المناسب ، وإذا لم يحدث فيمكن ، للامبراطورة أن تستمر في الحكم الى أن يصل ولي العهد الى سن الرشد .

ويبدو أن الحل الثالث كان هو المفضل لدى الإسرائيليين والأمبراطورة ،

التي كانت تعتقد بأن أعضاء أسرة الشاه (أمه وأخواته وأخوته) التي لم تكن على وفاق معهم أبداً ، يقدمون له النصيحة الخاطئة التي تكاد تودي به .

كما كان هذا الحل يتناسب مع اهتمامها الأكبر ، وهو الحفاظ على العرش لابنها كما رحب بهذا الحل جعفر شريف إمامي ، نائب رئيس مؤسسة بهلوي ذات النفوذ الواسع ، ربما لأنه كان يعتقد بناء على حساباته ، أنه قد يصبح رئيساً للوزراء اذا ما تشكل نظام الوصاية ، الأمر الذي سيمكنه من القيام بدور مركز القوة الخفية خلف العرش .

أما الحل الرابع الذي كان يفضله بعض عناصر وكالة المخابرات المركزية فكان الانقلاب العسكري ، على نفس نمط انقلاب أيوب خان في باكستان المجاورة .

فإذا كان الناس يريدون حكماً جمهورياً ، كما يقول أصحاب هذا الرأي ، فليكن لهم ما يريدون « يذهب الشاه الى أي منفى ، ونأتي بجنرال مسلم طيب ليكون رئيساً للجمهورية وبذلك نسحب البساط من تحت أقدام الثوار» .

* * *

كانت وكالة المخابرات المركزية تصنع سياستها الخاصة بها ، والتي كانت كثيراً ما تختلف عن سياسة وزارة الخارجية – وقد اشترك البنتاجون ايضاً في هذه العملية ، ذلك أن المؤسسة العسكرية الأمريكية كانت تنظر الى ايران باعتبارها أحد مواقع الدفاع الأساسية ، كما أنها بالطبع عميل سخي للأسلحة الأمريكية ، وهكذا أصبحت البعثة العسكرية الأمريكية في أهمية السفارة والوكالة المركزية للمخابرات . ومن الطريف في هذا الصدد أن نلاحظ أن اللجنة التي شكلها الكونجرس للإشراف على نشاطات المخابرات قد قامت بشر تقرير بعد ذهاب الشاه الى المنفى قدمته البعثة بتاريخ ٢٨ سبتمبر ١٩٧٨ ، يرى « بأن الشاه لا يواجه أي مخاطر حقيقية لمدة عشر سنوات على الأقل ، لأنه ليس هناك من يتحدى الجيش وهو أساس شرعيته » .

وهكذا كان الأمريكيون يتكلمون بأصوات متعددة . ولم تكن الأمبراطورة متأكدة من اتجاه الأمريكيين ، لكنها أحست أنهم ليسوا حريصين على مشروعها

بخصوص الوصاية . وفي أوائل أغسطس اقنعها « إمامي » أن الموقف خطير للغاية حتى أنه أصبح من واجبها أن تحاول تنبيه الشاه الى حقيقة الموقف . خلال هذه الأيام لم تكن الامبراطورة والشاه يلتقيان ، اذ كان يمكث في جناحه الخاص في القصر ، لكنها ذهبت لزيارته ، وهي مشحونة بالمعلومات التي زودها بها أسرتها وأصدقاؤها عن المظاهرات . لكنه لم يعر توسلاتها أي اهتمام وأكد لها أن له مصادره الخاصة التي تزوده بالمعلومات ، وأن أقاربها قد خدعوا ، لكنها أصرت وتوسلت إليه أن يراجع المعلومات . قبل الشاه ، على مضض ، ولكنه حين نظر من حوله لم يجد من يثق فيه كلية سوى خادمه الخاص العجوز . فأرسل هذا الرجل إلى المدينة ليرى ماذا يحدث . قام باستطلاع الأمور وعاد بتقريره « نعم ، يوجد يا صاحب الجلالة بعض الناس يصيحون في الشوارع ، لكنه من الواضح أنهم شيوعيون مأجورون ليتظاهروا » ، وذهب الشاه الى فرح وأخبرها أن لديه الآن تقريراً مباشراً يظهر أن مخاوفها كان مبالغاً فيها للغاية فانفجرت باكية وتركت الحجرة .

ومع هذا ، يبدو أن الشاه قد ساورته بعض الهواجس لأنه استدعى طياره الخاص في اليوم التالي وذهبا بمفردهما في جولة بالهليكوبتر فوق العاصمة ، وكانت الشوارع مكتظة بالمتظاهرين فسأل الشاه طياره باندهاش « هل كل هؤلاء الناس يتظاهرون ضدي ؟ » فآثر الطيار الصمت ولكن صمته كان كافياً وعاد الشاه إلى القصر محطماً تماماً وبدأ يعتقد أنه لم يعد هناك أحد أهلاً لثقته .

كانت لهذه الجولة بقية غريبة في نفس الليلة . فقد ذهب الشاه الى جناحه الخاص واستدعى ضابطين من الحرس الملكي ، كانا يتواجدان للحراسة بشكل منتظم ، وأصدر لهما أوامره مشددة بألا يسمح بالدخول لأي شخص الا بعد تفتيشه ، وفيما بعد وصف أحد الضابطين ما حدث لمهدي بازرجان أول رئيس وزراء بعد الثورة وكان شغوفاً بمعرفة كل ما يمكن معرفته عن أيام الشاه الأخيرة . وحسب ما قرره هذا الضابط فإن الشاه كرر أوامره بشكل له دلالته (أتفهم ، لا أحد يسمح له بالدخول إلا بعد تفتيشه) .

واتجه تفكير الضابط على الفور الى الشخص المتوقع حضوره وسأل « لا أحد ؟ »

فأجاب الشاه : « نعم .. لا أحد .. ولا حتى الأمبراطورة ؟ .. »

وقد خمَّنت الأمبراطورة ما كان يحس به الشاه بعد جولته بالهليكوبتر ، فقررت حوالى الساعة الثامنة أن تذهب لتراه وتسري عنه ان أمكن . وكانت ترتدي عباءة فوق ملابسها الليلية ، وكم كانت دهشتها حينما وجدت الأبواب المؤدية الى جناح الشاه مغلقة ويقف أمامها ضباط لحراستها . وشرح لها الضابط والدموع في مآقيه ان الشاه قد أصدر أوامره بألا يسمح لأحد بالدخول إلا بعد تفتيشه . ورفضت بغضب أن تخضع للتفتيش ، ورجعت الى جناحها .

لكنها بعد قليل غيرت رأيها وعادت وقالت للضابط وهي تبكي « حسناً ، فلتفتشني » لكن الضابط لم يستطع أن يلمسها لأنه كان متأثراً بنفس الدرجة وقال وهو يفتح الباب « أرجوك أن تتفضلي » فدخلت ولا نعرف ماذا حدث بعد ذلك .

* * *

وخلال تلك الأيام الأولى من أغسطس كان القصر مسرحاً لاجتماعات شبه مستمرة لمناقشة الموقف . كان يشترك فيها الجنرال أفشار وهوفيدا الذي أصبح وزيراً للبلاط بصفة دائمة وكذلك إمامي نائب رئيس مؤسسة بهلوي . وكانت الأمبراطورة تواظب على الحضور رغم إن الشاه لم يكن يحضر إلا لماما . وقد أثارت فرح قضية الوصاية في بعض هذه الاجتماعات ولكن بشكل متردد ، ولم تكن تستطيع أن تذكر ذلك الموضوع في حضور الشاه ، إذ كانت تعلم تماماً أنه لم تراوده فكرة رحيله . وذكرت ذلك الموضوع للسفير الأمريكي وليام سوليفان لكنه لم يرحب بالفكرة .

وفي ١٣ أغسطس انفجرت قنبلة في أحد مطاعم طهران التي كثيراً ما يرتادها الأمريكيـون . وقتل شخص واحد وجرح أربعون ، بمن في ذلك عشرة من الأمريكيين .

ثم وقعت حادثة شنيعة بعد أسبوع ، كان لها أثر عميق على البلاد كلها . فقد شب حريق في سينما مزدحمة بعبدان مدينة البترول ومات ٤٣٠ حرقاً وثـارت الشكـوك في الحـال بـأن الحريق متعمد ، إذ قيل إن أبـواب السينما قد أغلقت لمنع أي شخص من الهروب ، وأن فرق الإطفاء استغرقت وقتاً طويلاً

بشكل غير عادي للوصول الى مكان الحادث . وألقى رئيس بوليس المدينة مسؤولية الحادث على عاتق ما سماه « بالعناصر الإسلامية الماركسية » ولكن الرأي الشائع ان السافاك هي التي دبرت الحادث . فقد استقر الرأي على أن السافاك أرادت أن تدخل الرعب في قلوب الطبقة المتوسطة واختارت هذا الأسلوب لتنفيذ فعلتها ، فحتى ذلك الوقت كانت الطبقة المتوسطة هي الحصن الواقي لنظام الشاه ، لكن حينما بدأت اقتصاديات البلاد تخرج من أيديهم لتصبح في أيدي الشركات الدولية متعددة الجنسية ومع ازدياد القمع والتضخم ، بدأ ولاؤهم في الاهتزاز ، وبغض النظر عما حدث بالفعل ، فلقد شهدت عبدان ، خلال أيام الحداد التي تلت الحريق مباشرة ، اضطرابات عنيفة معادية للحكومة ، هوجمت خلالها المباني العامة وتعالت هتافات المتظاهرين « الموت للشاه » وتحركت القوات داخل المدينة وأُطلق الرصاص فوق رؤوس المتظاهرين .

* * *

في هذه الفترة ، وصل الحال داخل القصر الى نهايته – فقد تقرر عدم الأخذ بنظام الوصاية ، وبقاء الشاه ، على أن تتم محاولة لإدخال قسط من التحرر على النظام . وتقرر أن يترك جامشيد أموزيجار الوزارة ويتولاها جعفر شريف إمامي . وقد أيد الشاه والأمبراطورة هذه الخطوة * .

كان إمامي سياسياً من المدرسة القديمة ، لكن لا يمكن مقارنته بقوام السلطنة أو مصدق أو سيد ضياء الدين طباطبائي ، لكنه كان واحداً من آخر رجال السياسة المتوسطي الوزن ، ذكي ومراوغ وطموح وكان عمله في مؤسسة بهلوي قد جعله ملتزماً تجاه نظام بشكل عميق مثل الآخرين . وكان قد خدم لفترة وجيزة كرئيس للوزراء عام ١٩٦٠ ، كما كان رئيساً لمجلس الشيوخ .

---

* لم يكن الأمريكيون مسرورين لهذه المناورة ولدي شهادة مسجلة للسفير سوليفان حيث يقول « وهكذا عيَّن الشاه شريف إمامي رئيساً للوزراء ولو كان أسلم الوزارة لبختيار في ذلك الوقت لأمكن تحويل مسار الثورة ولكنه لم يفعل وتكمن المشكلة في أن شريف إمامي لم يكن شريفاً . وقد اختاره الشاه لأنه كان من المفروض أنه على علاقة طيبة مع رجال الدين ولكن علاقته لم تكن وثيقة بالدرجة التي تحدث بها عنها .

كان إمامي حتى قبل أن يشكل وزارته الجديدة لمواجهة الأزمة ، قد بدأ يتحدث عن خطته في ادخال قسط من الحرية على النظام ، وكانت هذه غلطة ، فقد ذهب ثلاثة جنرالات على الفور إلى القصر وهم – بدري ورحيمي وعويس – وطلبوا مقابلة الشاه وأصروا على أن عملية التحرر هذه ستكون بمثابة دعوة للكارثة ، لأنه إذا أضعفت حلقة واحدة من حلقات الدفاع عن النظام ، فان ذلك سيمنح العدو فرصة للتسلل والتطويق ويؤدي إلى انهيار الجبهة كلها . لذا يجب أن يتوقف كل هذا الهراء عن ذلك التحرر .

بدأ الشاه في التذبذب ، لكن الوقت كان متأخراً للتراجع ، وفي ٢٧ أغسطس أعلن عن تغيير رئيس الوزراء .

وعلى أي الأحوال ، فان الاشارات المتضاربة التي كانت تصدر من القصر ظهرت في الظروف المحيطة بزيارة الرئيس الصيني هواكو فينج – فقد كان الرئيس الصيني الجديد قد رتب منذ وقت سابق – أن يتوقف في طهران وهو في طريق عودته من زيارته ليوغسلافيا . ووصل في ٢٩ أغسطس ولا يمكن بأي حال تخيل لحظة أكثر إحراجاً مما حدث في المطار . فقد أخذ الرئيس الصيني يهاجم بعنف التوسع الذي تقوم به القوى العظمى وعدوانها وسيطرتها . وما إنْ وصل إلى قصر جولستان ، حيث كان مقرراً أن يقيم ، حتى قابله وزير البلاط وتوسل إليه ألا يستمر في مهاجمة الاتحاد السوفيتي . وكان الرئيس الصيني يعتقد عن حق ، أنه كان على وشك الوصول الى بلد معاد للاتحاد السوفيتي عداء لا هوادة فيه ، وأن ملاحظات مثل تلك التي أبداها في المطار كان ولا بد أن تحظى بالترحاب – وما لم يدركه الرئيس الصيني هو أن سياسة التقارب مع الصين ، وبالتالي دعوته لزيارة طهران ، كانت من بنات أفكار الأميرة اشرف أخت الشاه التوأم . والتي لم تكن أهم امرأة في إيران وحسب ، بل كانت شخصية لها ثقل ملحوظ على الصعيد الدولي . وكانت رئيسة وفد إيران الدائم بهيئة الأمم ، كما كانت رئيس لجنة هيئة الأمم لحقوق الإنسان لمدة عامين ، كما كان هناك تلميح إلى أنها ستكون الرئيس المقبل للجمعية العامة لهيئة الأمم .

وكانت علاقاتها قد ساءت مع الحكومتين الروسية والهندية ، لذا كانت

حريصة على إصلاح العلاقة مع الصين ، على حين كان الشاه في ذلك الوقت ووزراؤه لا يبغون أي شيء من شأنه أن يزيد الأمور تعقيداً ، ولذا اضطر «هوا» أن يخفف من حدة خطبه ، وألغى المؤتمر الصحفي الذي كان يزمع عقده . ولم يصدر أي بيان عقب مغادرته طهران في أول سبتمبر إلى بكين .

ومن علامات الاضطراب السائد الأخرى واحدة تتعلق بوزير الخارجية عباس علي خلعتبري . فبينما كان في طريقه إلى المطار لتحية الرئيس هوا سمع من راديو سيارته نبأ تعيين أمين خسرو أفشار محله في الوزارة الجديدة فأمر قائد سيارته بالعودة مباشرة إلى منزله .

* * *

نشر «إمامي» برنامج وزارته في حينه ويتكون من ست نقاط «ويهدف إلى خلق جو من الوئام بين كل طبقات الشعب» . الإفراج عن المسجونين السياسيين - زيادة المرتّبات الحكومية بنسبة ٤٠ ٪ - السماح للأحزاب السياسية الشرعية بممارسة نشاطها - وإجراء انتخابات جديدة - احترام حقوق الإنسان - وقيام حملة تطهير للحرب ضد الفساد . وفي محاولة لاسترضاء الرأي العام الديني ، جرى إلغاء وزارة شؤون المرأة ، التي أقامها الشاه ، وألغى التقويم الأمبراطوري المرتبط بالتقويم الأخميني ، الذي كان قد بدأ العمل به منذ وقت قريب ، ليعمل بالتقويم الهجري .

وبعد أسبوع من تسلم «إمامي» لمهام منصبه في ٧ سبتمبر شهدت طهران أكبر مظاهرة في تاريخها على الاطلاق . إذ سار ما يزيد عن مائة ألف متظاهر خلال الشوارع يطالبون بخلع الشاه ، وقيام الجمهورية الإسلامية ، وعودة الخميني من المنفى . وأعلنت الأحكام العرفية ، وشهد اليوم التالي مظاهرات أكثر ضخامة ، في طهران والمدن الأخرى الكبيرة ، احتجاجاً على الأحكام العرفية . وفتحت القوات نيرانها ، واعترفت المصادر الحكومية أن عدد القتلى وصل إلى مائة ، لكن المتحدث باسم المعارضة أعلن أن الرقم كان أعلى من ذلك بكثير وقد يصل إلى الآلاف .

واستمرت اعلاميات الخميني في التدفق على البلاد ، محذِّراً انصاره من

تحدي الجيش بالقوة « تحدثوا الى الجنود ، لتدخلوا معهم في حوار فلتعروا صدوركم ، ولا تطلقوا عليهم النار ، ولا تلقوا حتى بمجرد حجر على الجنود » . كما كان يطالب بطرد كل أسرة بهلوي من إيران . كان هذا بمثابة ضربة للامبراطورة ، قضت على كل آمالها في التوصل الى تسوية يمكن لابنها بمقتضاها أن يرث العرش بموافقة الخميني .

وفي ١٠ سبتمبر عرض إمامي وزارته على المجلس للحصول على موافقته ، أما برنامجه لإدخال قسط من التحرر فطغت عليه الاضطرابات المستمرة وفرض الأحكام العرفية . وعلى الرغم من أن المجلس لم يظهر أي نوع من أنواع الاستقلال في الماضي ، إلاّ أنه في الوقت الحاضر بدأ يعبر عن الجو العام السائد في البلاد ، وتغيب عديد من النواب لتحاشي عملية التصويت . لكن الآخرين صرخوا في إمامي «لا يمكننا أن نقبلك ، فيداك ملوثتان بالدماء» . ولعله من سوء الحظ أنه في ذلك اليوم كان الرئيس جيمي كارتر ترك أعماله في كامب ديفيد مع الرئيس المصري أنور السادات ورئيس الوزراء الاسرائيلي ، ليتصل بالشاه تليفونياً ليؤكد من جديد العلاقات الوثيقة والحميمة بين بلديهما وأهمية استمرار تحالف إيران مع الغرب . وقال كارتر إن السماح بمزيد من الحرية رأى صائب !

وأخيراً وفي ١٦ سبتمبر تمت الموافقة على الحكومة الجديدة بأغلبية ١٧٦ صوتاً ضد ١٦ صوتاً ، بعد أن وعد إمامي بأن الأحكام العرفية لن تستمر أكثر من ستة أشهر . ومارس عملاء السافاك ضغطاً على النواب للتصويت ، ومع ذلك تغيب ثلث الأعضاء وكانت هناك حالة من الفوضى الكاملة وتساؤلات مستمرة عمّن أدلى بصوته ومن لم يدل به ، ولصالح من .

وأعلن إمامي ان لديه قرائن أن الاضطرابات التي وقعت ، كانت نتيجة لمؤامرة دبرت في دولة شرق أوروبيه معينة .

وكان صحيحاً أنه قد عقد اجتماع في براغ لمكتب حزب تودة ، لكن الغرض منه لم يكن له صلة بما ادعاه رئيس الوزراء . فقد باغتت قوة وفعالية الحركة الاسلامية في إيران قيادة حزب تودة القديمة ، التي استمرت في تحليلاتها الماركسية العتيقة للموقف ، وهي تحليلات تتناقض علاقتها بالواقع يوماً بعد يوم ،

لذا كان الهدف من اجتماع براغ هو التخلص من الزعماء القدامى وتقديم زعماء جدد يمكنهم بدء حوار مع الثورة الإسلامية .

وحيما دعي الجيش لتدعيم البوليس في طهران وعدد من المدن الأخرى بعد اعلان الأحكام العرفية كما حدث في عبدان بعد حريق السينما ، وجد الجيش نفسه في مقدمة الصراع . وهذا ما كان قواد الجيش يرغبون في تحاشيه دائماً ، لذا فقد ذهب الجنرال أزهري رئيس الأركان إلى الشاه ليقدم شكواه ، وكان في مقدوره هو وزملاؤه من الجنرالات وهم على شيء من الحق أن يثبتوا صواب تحذيراتهم بشأن سياسة التحرر ، وفي نفس الوقت كان الجيش هو الهدف المستمر والرئيسي لإعلاميات الخميني التي جاء في أحدها بعد اضطرابات ٧ ، ٨ سبتمبر بوقت قصير «لقد أطلقتم النيران – حسن جداً ، فلتطلقوا النيران مرة أخرى ، إنهم إخوانكم الذين سيتلقون هذه الرصاصات لكنهم سيصلون لله طالبين لكم المغفرة» .

* * *

كان من الواضح أنه لا بد من عمل شيء مع الخميني ، ولكن ماذا ؟ لقد ذكرت من قبل محاولات الشاه في ذلك الوقت لإقناع السلطات العراقية بتكميم الخميني ، وفي نهاية سبتمبر قرر الخميني أن يذهب إلى الكويت ولكن الحكومة الكويتية تنبهت بأن شيئاً ما سيحدث بسبب تزايد النشاط داخل جماعات الشيعة هناك فأصدر وزير الداخلية أوامره بإغلاق الحدود وأرسل رسالة إلى الخميني يخبره فيها بأنهم يعرفون بما ينوي فعله .

وعاد الخميني إلى النجف ، وسمح له أن يستقل طائرة من بغداد – ذهبت به إلى دمشق في بادئ الأمر . كان السوريون على أتم استعداد للسماح له بالبقاء ، لكنه أحس أنه لن تكون له الحرية في مواصلة نشاطاته . وحاول إمامي أن يغريه بالعودة بإعلان العفو العام ، الذي تمت صياغته بحيث يضمن الخميني عدم القبض عليه بوجه خاص . (وهذا أمر كان يكفله له الدستور على أية حال باعتباره آية الله العظمى) ، لكنه ما كان ليسقط في الكمين بمثل هذه الطريقة وكان ما زال متردداً في اختيار المكان الذي يذهب إليه ، ولعله كان يفكر في

الجزائر عندما زاره بني صدر ، رئيس لجنة الطلبة الإيرانيين في باريس وهي لجنة نشطة للغاية .

تخرج بني صدر من السوربون ، لكنه كرس كل وقته للسياسة . وقد توصل إلى نفس النتيجة التي توصل اليها الخميني وهي أن الدين سيكون حتماً القوة الدافعة وراء الثورة ، لأن المسجد هو المكان الوحيد الذي لا يمكن أن تصله أدوات القمع التي يتحكم فيها الشاه . لذا اتصل بالخميني ، وأكد له أن لجنة الطلبة في باريس قد أحسن تنظيمها وستقوم باتخاذ كل الترتيبات اللازمة لاستقباله .

فقبل الخميني عرضهم ، ووصل إلى فرنسا في السادس من أكتوبر ولم تمنح السلطات الفرنسية الخميني سوى تصريح إقامة لمدة ستة شهور . وعندما كنت في باريس في ديسمبر ناقش بعض معاونيه ، بمن في ذلك «يزدي» و «اشراقي» ، مشكلة المكان الذي ينبغي أن يتوجه إليه الخميني حينما تنقضي فترة الستة الشهور ، فاتصلت بصديق لي في الجزائر لكي يطلب من مجلس قيادة الثورة منح حق اللجوء السياسي لآية الله ولا شك أن ذلك كان سيتم لو أن مجريات الأحداث جعلته لازماً .

وكان وصول الخميني إلى نوفل لو شاتو نقطة من نقاط التحول في الثورة . فقد تركز عليه الآن الاهتمام الكامل من قبل أجهزة الصحافة والإذاعة العالمية ، التي كانت تهتم اهتماماً بالغاً بكل ما يقوله أو يفعله ، وهذا مفهوم بطبيعة الحال . وقد أظهر الخميني تفهماً كاملاً للفائدة المرجوة من جراء هذا التركيز الإعلامي عليه ولذا كان توقيت تصريحاته وأحاديثه الصحفية ، بهدف احتلال العناوين الرئيسية في امريكا وأي مكان آخر ، يجعل الأثر المرجو منها فعالاً في تلك الأماكن . وخلال فترة الثلاثة أشهر التي قضاها في فرنسا أدلى الخميني بما يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة حديث صحفي ، بمتوسط قدره ثلاثة أو أربعة أحاديث في اليوم .

وكان يقضي أغلب وقته أمام عدسات التليفزيون . ولعله لا يوجد مرشح لانتخابات الرئاسة الأمريكية عنده من الوعي بوسائل الإعلام ما يعادل وعي الخميني بها .

وقد تسبب وجود الخميني في باريس ، في وضع محرري الصحف الإيرانية في موقف حرج . فقد كان من العسير أن تتجاهل صحف طهران خبراً يظهر بالعناوين الرئيسية في كل مكان في العالم . وفي يوم ١٠ اكتوبر نشرت أغلب الصحف نقلاً عن وكالات الأنباء خبر وصوله إلى فرنسا . وذهبت جريدة (اطلاعات) أبعد من هذا بأن نشرت صورة لآية الله ، وقد تم ذلك دون معرفة أو موافقة رئيس التحرير إذ قام بعض عمال المطبعة بالبحث عن صورة قديمة للخميني وبادروا بنشرها من تلقاء انفسهم . في اليوم التالي اقتحمت القوات مبنى جريدة (اطلاعات) — وأعلنت انه مستقبلاً ينبغي أن تمر كل الأخبار والمواد الصحفية على الرقيب العسكري قبل نشرها ، فأضرب الصحفيون وعمال الطباعة على الفور ، وفي يوم ١٣ اكتوبر أمكن الوصول إلى حل وسط تنسحب القوات العسكرية بمقتضاه من الصحيفة شريطة ألا يطبع أي نقد موجه للشاه أو للجيش .

* * *

في ذات الوقت سرعان ما أصبح من العسير التمييز بين الإجراءات التحررية ومجرد الاسترضاء . قبل ذلك في ٢٦ سبتمبر كان الشاه قد أصدر توجيهاً مباشراً إلى أعضاء اسرته بانهاء كل نشاطاتهم التجارية واشرافهم على المنظمات الخيرية والمؤسسات العامة . وفي ٢٢ اكتوبر أعلن إمامي إلغاء برنامج إيران للطاقة النووية ، الذي كانت تكاليفه ستبلغ ٧٠ بليون دولار . هذا البرنامج الذي كان يبدو للجميع دائماً على أنه تبذير مستهجن لموارد بلد من أكبر مصدري البترول والغاز في العالم ، لكن من المحتمل أنه كان مرتبطاً بطموحات الشاه ، بأن تمتلك إيران الأسلحة النووية .

في آخر الشهر طرد أربعة وثلاثون ضابطاً من السافاك أو أرغموا على التقاعد ، وذلك استمراراً لسياسة إلقاء الجثث إلى الذئاب ، وكان الجنرال ناصري قد أقيل من منصبه كرئيس للسافاك في يونيو وعين سفيراً لبلده في باكستان ، ثم استدعي إلى طهران آنذاك . ولتأكيد مدى ضعف سلطة السافاك ، رفع ما يزيد عن ألف سجين سياسي — كان قد أفرج عنهم في ١٥ أكتوبر كلفتة عطف بمناسبة عيد ميلاد الشاه — قضايا ضد الحكومة ، وتلقوا تأكيدات بأنه سيتم تعويضهم

« بشكل كامل » عما كابدوه من آلام .

وقد استمر الرئيس كارتر في إصدار تصريحات كانت تزيد الموقف سوءاً ، إما لأن المعلومات التي كانت تصله لم تكن دقيقة ، وإما لأنه كان يشعر أن التدخل الأمريكي يمكن أن يساعد في وقف التيار . وفي ١٠ أكتوبر صرح كارتر في مؤتمر صحفي بواشنطن انه يعتقد أن أغلب المعارضة للشاه ترجع إلى أنه « تحرك بشكل زائد لإرساء قواعد الديمقراطية في إيران » . وفي ٣١ اكتوبر تم تصوير كارتر مع ولي العهد الأمير رضا في حديقة الورد في البيت الأبيض ، وأعلن كارتر أن « صداقتنا وتحالفنا مع إيران لواحدة من أهم القواعد التي تستند اليها سياستنا الخارجية بأسرها » وأثنى كارتر على « تحرك الشاه نحو الديمقراطية » وقال « إنها تلقى المعارضة من البعض الذين لا يحبون الديمقراطية » وهذا تفسير غريب للاحداث . وأيهما أفضل ليستحق اصطلاح الديمقراطية .. المجلس الذي تم اختيار أعضائه عن طريق انتخابات زائفة والذي بدأ أعضاؤه الآن يتسللون إلى مخابئهم أم المشاركة الشعبية في العمل السياسي المباشر ؟

وفي نفس اليوم الذي قابل فيه كارتر ولي العهد ، شعر « امامي » أنه مضطر لاستنكار اضراب عمال البترول ووصفه بأنه نوع من الخيانة واعترف بانخفاض انتاج البترول من ٥,٣ مليون برميل في اليوم إلى ١,٥ مليون برميل ، كما تناقصت عمليات التكرير بشكل ملحوظ – وصدرت الأوامر للقوات العسكرية بالتحرك إلى منشآت البترول لمنع عمليات التخريب .

ومع استمرار المظاهرات حتى أول نوفمبر ، لم تتمكن حكومة كارتر ولا الشاه من تكوين فكرة واضحة عما ينبغي عمله . وقد قرر السفير سوليفان بأن أردشير زاهدي زوج بنت الشاه وسفير إيران في واشنطن ، عاد إلى طهران بناء على نصيحة من « زبنجيو بريجنسكي » ليدعم الشاه ويقوي من عزمه . وكان « زاهدي » قلقاً لتركه سفارته في مثل هذا الوقت الحرج ، لكن كارتر أخبره « سأكون بمثابة سفير إيران في واشنطن أثناء غيبتك » .

* * *

وعندما وصل « زاهدي » إلى طهران قام هو والشاه بالتحليق فوق طهران

في طائرة هليكوبتر وكان يوماً من أعنف أيام المظاهرات حيث هوجمت السفارة البريطانية وتركت عدة سيارات وأتوبيسات تحترق في الشوارع . وتلقى سوليفان رسالة عاجلة من الشاه بأن يحضر إلى القصر (*) . ونجح سائقه في شق طريقه وسط النيران المشتعلة في الشوارع ، ووصل القصر حوالى السادسة والنصف ولم يكن هناك على الاطلاق أحد بجوار البوابة .

فتجول في الداخل إلى أن وجد الأمبراطورة التي اصطحبته إلى الشاه وقال له الشاه إنه لا بديل الآن عن حكومة عسكرية - فما رأي واشنطن في ذلك ؟ وكان سوليفان قد بحث حتمية هذا الوضع وناقشه مع واشنطن ، وبالتالي كان في استطاعته أن يخبر الشاه أنه ليس هناك اعتراض . ووصل « الجنرال غلام رضا أزهري » رئيس أركان القوات المسلحة إلى القصر قبل أن يغادره سوليفان وفي اليوم التالي ٦ نوفمبر أعلن طرد إمامي ، وتولى الجنرال أزهري زمام الأمور .

وقد تقبل الجنرال أزهري القيام بهذه المهمة التي لا يرجى منها جزاء ولا شكور ، على مضض ، بعد أن أقنعه الجنرالان «رحيمي» و «ربيعي» وكانا من غلاة المتطرفين العسكريين أن من واجبه أن يفعل ذلك . كان أول شيء قام به بعد أن اضطلع بالمسؤولية أن أخبر سوليفان « أنه ينبغي عليه المساعدة للتوصل إلى حل سلمي للأزمة » . وقال إنه « قَبِلَ أن يكون رئيساً للوزراء فقط ، حتى يتيح الفرصة لالتقاط الأنفاس » وأنه « لا يمكن للحكومة العسكرية أن تدوم طويلاً ، وأن استخدام القوة لا يمكن أن يحرز النجاح إلا لفترة وجيزة : ثم ينبغي عليها أن تختفي . أرجو أن تحاولوا مساعدتنا » (**) .

كانت الأيام الأولى القليلة للحكومة الجديدة هادئة نوعاً ، وكان الشاه قد أخبر أزهري بألا تبدأ قوات الجيش بإطلاق نيران كثيفة على الجماهير من

* مقابلة مسجلة مع السفير (وليام سوليفان)

** مقابلة مسجلة مع السفير سوليفان

أول صدام ، وسرعان ما تعرفت الجماهير على ذلك ، واستغلته إلى أقصى حد .

وقبل الإعلان عن الحكومة الجديدة ، احتلت القوات كل النقاط الحساسة في طهران بما في ذلك التقاطعات الرئيسية ومحطة الإذاعة ودور الصحف وألقى الشاه كلمة من الإذاعة كان القصد منها أن تكون بادرة للتفاهم « لقد وصلتني رسالتكم الثورية وأعدكم أن أصلح من أخطاء الماضي وأن أحارب ضد الفساد والظلم وأن أشكل حكومة قومية تجري انتخابات حرة » وقال « إن الحكم العسكري سيكون مؤقتاً فقط وحينما ينتهي ستسود الحرية ، وسيطبق الدستور » .

* * *

لم يكن الدور الجديد مقنعاً للغاية لكن الشاه كان ما زال يتصور ان عصا الحكم العسكري يمكن أن تؤدي دورها خصوصاً اذا صاحبتها سياسة نشيطة ، ولكن ما الذي يمكن عمله ؟ . وبادر سوليفان من تلقاء نفسه بالاتصال بزعماء المعارضة . كما قام الجنرال مقدمي ، الذي أصبح رئيس السافاك الآن ، ومحل ثقة الأمبراطورة ، بنصح الشاه أن يفعل نفس الشيء . لذا اتصل بكريم سنجابي ، أحد أعضاء المدرسة السياسية القديمة الذين تلقوا تعليمهم في فرنسا والمؤمنين بالليبرالية الدستورية ، كما كان زميلاً لمصدق وسجن لفترة بعد الانقلاب المضاد . وخلال حكم كيندي – مرت إيران بفترة من التحرر . عندما عين أميني رئيساً للوزراء ، وسمح لسنجابي باعادة تشكيل الجبهة القومية . ورغم ان كل الأحزاب السياسية فيما عدا حزب راستاخيز الحاكم ، كانت غير شرعية ، إلا أن الجبهة استمرت في العمل كمجموعة . قابل الشاه سنجابي الذي طلب منه تشكيل حكومة قومية . فتشاور سنجابي مع زملائه في الجبهة القومية ، لكنهم اتفقوا جميعاً على أن ذلك لن يكون ممكناً في ظل الأحكام العرفية .

كان رد فعل الخميني لإعلان الحكومة العسكرية ، بياناً تحدث فيه بشكل ينذر بالسوء عن (حرب أهلية بين الجيش والشعب) وقال إن الحكم العسكري ليس شيئاً جديداً « فلقد كنا نعيش دائماً تحت الحكم العسكري ، والفرق الوحيد الآن انهم قد ظهروا بصراحة ، بينما كانوا يختبئون من قبل في جيوبهم » .

فكر سنجابي في ضرورة مقابلة الخميني واستأذن الشاه في أن يذهب إلى باريس (ويزعم الشاه انه قبل يده اثناء لقائهما ، ولكن سنجابي ينكر ذلك) وقضى سنجابي أسبوعين في باريس لعقد محادثات مع الخميني ، الذي أوضح أنه ليس على استعداد لتقديم أي تنازلات . وعاد سنجابي إلى طهران في ١٠ نوفمبر ، وكان على وشك أن يعقد مؤتمراً صحفيًّا يقدم فيه تقريراً عن محادثاته عندما ألقي القبض عليه .

* * *

في تلك الفترة تقريباً تلقى سوليفان (*) مكالمة تليفونية من أزهري يطلب منه الحضور لمقابلة عاجلة ، عندما وصل السفير إلى مكتب رئيس الوزراء دهش لأنه استقبل في حجرة ملحقة بالمكتب ومظلمة ، وحينما أضيئت الأنوار وجد أزهري مستلقياً على سرير مرتدياً بيجامة وفوق السرير خيمة أوكسجين ، وأخبر رئيس الوزراء سوليفان انه لا يعتقد أنه يستطيع الاستمرار أكثر من هذا بسبب تردد الشاه وقال « هذا البلد لن تتاح له الفرصة للبقاء . فنحن لا يسمح لنا باستخدام القوة كما نشاء » . وفي ١٢ نوفمبر أرسل سوليفان برقية إلى واشنطن مبدياً رأيه بأن « أيام الشاه أصبحت معدودة ويجب البحث عن حل بديل » ، لكنه لم يتلق أي رد على برقيته لا من البيت الأبيض ولا من وزارة الخارجية .

وفي نفس الوقت قدمت تنازلات أخرى كان الهدف منها تهدئة المتظاهرين . في ٧ نوفمبر ألقي القبض على الجنرال ناصري ، وفي اليوم التالي جاء الدور على أمير عباس هوفيدا . كما ألقي القبض على خمسة وأربعين موظفاً حكومياً مدنياً ورجل أعمال بتهمة الفساد وسوء استخدام السلطة ، وأعلن أنه سيجري التحقيق في الأعمال التجارية التي يزاولها اخوة الشاه واخواته وكذا في مؤسسة بهلوي . وبدأ المد يقترب بسرعة من العرش ، وسارع الخميني بالإشارة إلى ذلك قائلاً « إن الرجل الذي يجب أن يكون موضع التحقيق هو الشاه نفسه وليس اخوته واخواته أو مؤسسة بهلوي . فلتقدموه للمحاكمة » .

* * *

* مقابلة مسجلة مع السفير سوليفان .

وتأتي دورة أخرى من دورات عجلة القدر التي تميز الثورة (أو الدراما) الإيرانية (*) فلقد كان مهدي بازرجان أحد رجال السياسة المدنيين الذين يتمتعون بثقة الخميني وكان ينتمي إلى الجبهة القومية القديمة ، لكنه كون بعد ذلك حزباً اسلامياً ، وألقي القبض عليه عام ١٩٦١ ودافع عن نفسه بشجاعة في المحكمة وهاجم كلا من الشاه وأبيه . وعلى الرغم من أن دفاعه لم ينشر بطبيعة الحال إلا أنه أصبح ذائعاً بين الناس واستحق احترامهم .

وحينما تولى كارتر السلطة في بلده بدأ يركز على قضية حقوق الإنسان . وقرر بعض المهتمين بالسياسة خصوصاً من الجبهة القومية القديمة أن ينتهزوا الفرصة وأن تشارك إيران ببعض النشاط في هذا المجال . فأقيمت لجنة لحقوق الإنسان في إيران وعين مهدي بازرجان رئيساً لها . لكنه عندما أعلنت الأحكام العرفية كان مهدي بازرجان واحداً من الذين أُلقي القبض عليهم . وفي أحد الأيام من منتصف نوفمبر ، بينما كان لا يزال في سجن « قصر » أحد سجون السافاك قيل له إن الشاه بعث إليه برسول لمقابلته . وكانت هذه النوعية من الأخبار لا تسر مسامع المعتقلين في سجون السافاك لكن عندما فتح باب زنزانته ، كانت دهشته بالغة ، حين وجد ان زائره هو الجنرال « مقدمي » خليفة الجنرال ناصري في رئاسة السافاك وهو رجل لم تكن سمعته سيئة مثل سمعة سلفه ، لكنه مع هذا ليس الزائر الذي يستقبله المسجون السياسي ، بالهدوء والاطمئنان .

وسرعان ما اتضح ان الجنرال مقدمي لم يكن يزوره لأسباب سيئة . إذ قال « لقد أحضرت لك رسالة من الشاه . فجلالته على استعداد أن يملك ولا يحكم » وأضاف بشكل درامي « مثل ملكة انجلترا » إنه على استعداد لأن يقبل دور الملك الدستوري ، لأن رؤاه العظيمة بالنسبة لبلده لم يتحقق منها شيء ، وهو عازم على أن يدع الشعب الإيراني ينفذ مشيئته فإذا كانوا يريدون ملكية دستورية ، فليكن لهم ما يريدون . فلماذا لا تتعاون معه ؟ » .

---

* مقابلة مع مهدي بازرجان في مكتبه برئاسة الوزراء . وقد كان بازرجان كريماً فقد أخرج دفتر يومياته الذي يسجل فيه يومياً تفاصيل نشاطه وكان يتلو منه مذكرات أيام بأكملها ويسمح لي بأن أكتب مذكرات ما أسمعه منه .

كان بازرجان سياسياً ماهراً ، ولم يكن من السهل إرهابه : فقال : — أتخبرني بهذا وأنا ما زلت بعد في السجن ، حيث لا وسيلة لي للاتصال بأصدقائي ؟ هل من المفترض أن أناقش اقتراحات الشاه مع نفسي فحسب ؟ فقال « مقدمي » « ولو أفرج عنك ؟ هل ستقوم بدراسة الاقتراحات ؟ » فقال بازرجان « إنه سيفعل » فصدرت الأوامر بالإفراج عنه .

* * *

وفي منتصف نوفمبر حضرت إلى طهران شخصيتان قياديتان من واشنطن «مايكل بلومنتال» وزير الخزانة و «روبرت بيرد» زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ ، وممثل وست فيرجينيا . وتناول بلومنتال طعام الغداء مع الشاه يوم ٢١ نوفمبر ، لكنه عندما عاد إلى واشنطن كان رأيه الخاص « لقد أصبح الشاه كالميت الذي عادت إليه الحياة » أما السناتور بيرد فكانت له ابنة متزوجة من إيراني، لذا كان في مقدوره أن يرى سخف الرأي القائل بأنه «لو استطاع الشاه الصمود فإن الولايات المتحدة ستقوم بتأييده» وهو رأي ليست له علاقة كبيرة بالواقع . وقبل أن يرى الشاه ، حذره سوليفان بأن السؤال الذي سيطرحه الشاه عليه هو « هل الصمود يعني اطلاق النار على الناس ؟ » وهذا بالفعل هو السؤال الذي ألقى به الشاه ، وكانت اجابة السناتور مبهمة .

في نفس الوقت أعلنت اجراءات أخرى لتهدئة الموقف . فكرر الشاه وعده بأن الانتخابات ستعقد قبل نهاية يونيه سنة ١٩٧٩ وأن الأحكام العرفية ستلغى قبل ذلك التاريخ . وكدليل على حسن النية زاد الجنرال أزهري من عدد الوزراء المدنيين في وزارته من أحد عشر إلى تسعة عشر وألقى القبض على عشرة من أصحاب الملايين بتهمة الفساد ! !

* * *

وجاء أول تعليق روسي رسمي على الأزمة في ١٩ نوفمبر عندما نشرت برافدا تحذيراً من بريجنيف بأن أي تدخل من جانب الولايات المتحدة « خاصة التدخل العسكري» في شؤون إيران الداخلية سوف «ينظر إليه الاتحاد السوفيتي على أنه يؤثر على مصالحها الأمنية » وكان صمت موسكو السابق يعكس حيرة الزعماء

الروس المستمرة حيال التوصل الى اتخاذ مسلك سياسي تجاه جارهم في الجنوب يتفق مع الأيديولوجية الشيوعية ومع المتطلبات التقليدية للأمن الروسي في آسيا .

ولقد كان واضحاً ان السوفيت قد حققوا تقدماً كبيراً – مفاجئاً – في منتصف ونهايــة الخمسينات ، حينما عقدت صفقة الأسلحة مع مصر وقامت الثورة في العراق وانهار حلف بغداد . لقد تمكنوا من القفز على الحزام الشمالي من الدول المتحالفة مع الغرب مثل تركيا وإيران وباكستان . ولكن بهزيمة العرب عام ١٩٦٧ وبعد الموقف المعادي للسوفيت الذي اتخذه الرئيس السادات بـدأوا يهتمون مرة أخرى بدول الحزام الشمالي ، فتركيا وباكستان لم تعودا حصنين من حصون الاستقرار الموالي للغرب . واتجهت افغانستان نحو اليسار كما ظهرت مواقع جديدة مماثلة في الجنوب تتمثل في عدن وأثيوبيا . والآن بدأت علامات واعدة تظهر في إيران – ولكن علامات ماذا ؟ فلقد افترضت موسكو بداية ان معارضة الشاه تتبع الخط التقليدي للثورات البرجوازية – مجموعة من الليبراليين يطالبون بإنهاء الحكم الأوتوقراطي والرجوع إلى دستور ١٩٠٦ . ولكن في بداية عام ١٩٧٨ أصبح من الواضح أن هذا التفسير البسيط ليس كافياً . وأذكر أن أحد كبار المسؤولين السوفيت قال لي « في الشرق الأوسط دائماً ما تأتي الثورة من أماكن غير متوقعة أبداً . فالثورة المصرية عام ١٩٥٢ قام بها الجيش ، وعادة ما يكون الجيش هو القائم بحماية النظام القائم ، حيث لا تتوقع منه أن يقوم بالثورة . والثورة الإيرانية تنبعث من الدين ، والماركسيون يفترضون أن الدين رجعي بطبيعته – لذا اضطرت موسكو لأن تعتقد ان آجلاً أو عاجلاً ان الثورة الدينية سوف تخبو وستظهر قيادة علمانية مناسبة ولهذا استمرت في تأييدها التقليدي لحزب تودة .

* * *

ثم حدث شيء غريب للغاية في نهاية الصيف فقد تلقى فلاديمير فينوجرادوف السفير السوفيتي في طهران رسالة من الشاه يخبره فيها أنه يود مقابلته (*) – وقد

---

* مقابلة مع السفير فلاديمير فينوجرادوف في السفارة السوفيتية بطهران .

حاول الشاه أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع السوفيت فهو يمدهم بالغاز والبترول كما أعاد كل السوفيت الذين طلبوا حق اللجوء السياسي في إيران ليلقوا مصيرهم هناك وكانت علاقته الشخصية بفينوجرادوف دائماً ودية إذ كان يتمتع بفرصة الحديث معه بصفة غير رسمية من آونة لأخرى . وذلك حينما كان الشاه يود التصريح عن غيظه من الأمريكيين أو يعزي فينوجرادوف بخصوص ما يدعى بوصية بطرس الأكبر التي كانت ترى أن روسيا يجب أن تتسع إلى أن تصل إلى الخليج (وقد أخبره فينوجرادوف أن هذه الوثيقة مزيفة وضعها دبلوماسي فرنسي في القرن التاسع عشر مصاب بالشذوذ الجنسي هو الشيفاليه ديون) ولكنهما هذه المرة كانا سيناقشان أموراً أكثر جدية .

وقد طرح الشاه في الحال سؤلاً مباشراً على فينوجرادوف : «ما رأيك فيما يحدث ؟» وأخذ فينوجرادوف لبرهة لكنه أجاب «أنت أدرى بالأمور مني يا صاحب الجلالة» فقال الشاه «أنا أود أن اسمع تحليلك للموقف» فأجاب السفير «آسف يا سيدي ، لكن تحليلي سيكون تحليلاً ماركسياً لا محالة وقد لا يسرك هذا كثيراً» فقال الشاه «أود ان اسمع تحليلك الماركسي ولن يضرني سماعه» .

وهكذا بدأ فينوجرادوف بكل ما لديه من لباقة في التحدث عن الصراع الطبقي في إيران وعن الفقراء الذين أحبطت توقعاتهم في أن تتحسن الأمور ، والبرجوازية الصغيرة والبرجوازية الكبيرة الساخطة على الشركات المتعددة الجنسيات والمحرومة من المشاركة في الحكم . ولم يقل أي شيء عن الفساد أو عن الاتهامات الموجهة ضد الشاه من أنه عميل للولايات المتحدة .

وانصت الشاه باهتمام بعض الوقت ثم باغت فينوجرادوف بسؤال لم يكن يتوقعه «ماذا تفعل لو كنت مكاني ؟» وأحس فينوجرادوف انه مضطر للإجابة فقال «سيدي أنا لم أكن شاهاً قط في حياتي وأخشى أن أكون غير قادر على تقديم أي مساعدة لكم» لكنه أكّد للشاه أن الاتحاد السوفيتي ليس على خلاف معه وأنه يحاول مساعدة إيران قدر الإمكان . ثم أشار إلى العقود التي كانت قد أبرمت قائلاً إن السوفيت قد قنعوا بمخلفات الغرب – مثل مصانع الحديد والصلب

ومحطات القوى ، وكل تلك مشروعات تتطلب عملاً شاقاً وتدر ربحاً قليلاً . ثم اقتبس مثلاً روسياً معناه «إن الجار القوي هو خير ضمان ضد المتاعب لأنه سيكون قادراً على صد المتدخلين» . وان الاتحاد السوفيتي أراد دائماً إيران قوية لتكون جارة له .

كان فينوجرادوف يعتقد أن الأمريكيين يستخدمون الشاه ضد الاتحاد السوفيتي ؛ ومع أن الشاه كان يتمرد أحياناً على وصايتهم التي فرضوها عليه الا أنه كان يرضخ في النهاية ، كما أنه كان يعتقد أن الشاه كان يشعر في أعماقه بأن الأمريكيين يكنون له الاحتقار لأنه ما كان ليعود إلى العرش سنة ١٩٥٣ بغير تدبيرهم . لكنه كان يحاول أن يخلق نزاعاً معهم بخصوص قضايا فرعية حتى يفرج عن احباطاته وعقده .

* * *

ولكن على الرغم من مخاوف بريجنيف ، لم يكن التدخل العسكري هو ما يفكر فيه الأمريكيون . فقد أدركوا ان الموقف لا يمكن أن يستمر على ما هو عليه — فالجنرال أزهري كان يداوم الضغط عليهم ليفعلوا شيئاً ما .

وهكذا اتصلوا بمهدي بازرجان في نهاية نوفمبر . كان قد أطلق سراحه — وكان ما يزال رئيساً للجنة حقوق الإنسان في إيران ، وقيل له ان وفداً من لجنة حقوق الإنسان الأمريكية ، سيأتي إلى طهران ويأمل في مقابلته (*) . كان الوفد يتكون من ثلاثة أشخاص ، أوضحوا منذ البداية أنهم لا يريدون التحدث عن حقوق الإنسان وإنما عن السياسة . فشرح لهم بازرجان موقفه وموقف زملائه وقال لهم إن هناك ثلاثة أشياء مبدئية لا بد منها :

أولاً يجب أن يختفي الشاه .

وأن يقام مجلس وصاية .

وأن تشكل حكومة من الشخصيات القومية المعروفة لإجراء الانتخابات .

بعد هذا اللقاء الأول سأل الأمريكيون عما إذا كان من الممكن ترتيب اجتماع

---

* لقاء مع السيد مهدي بازرحان وكان أثناء اللقاء يعود إلى يومياته التي كتبها بخطه .

آخر ؛ وقد تم ذلك بالفعل في اليوم التالي إذ حضر الثلاثة يصحبهم شخص من السفارة الأمريكية كانوا يسمونه «جون» لكنهم لم يقوموا بتقديمه . وعقد اجتماع ثالث حضره رجل من السفارة الأمريكية يدعى لامبراكيس (*) .

في نفس الوقت أبقى بازرجان على صلته بالناس القريبين من الخميني بمن في ذلك آية الله منتظري ، وحجة الإسلام حسين رافسنجاني المسؤول عن اللجان التي كان يجري تشكيلها في المساجد في كل مكان والدكتور ناصر مناشي الذي أصبح وزيراً للإعلام فيما بعد . وبعد التشاور معهم تم الاتفاق على برنامج من خمس نقاط كان بازرجان سيقوم بتقديمه للأمريكيين .

١ – أن يغادر الشاه البلاد بحجة أنه ذاهب للعلاج ولقضاء إجازة .

٢ – أن يشكل مجلس وصاية من أناس يتمتعون بقبول وطني .

٣ – أن تشكل حكومة قومية أعضاؤها ليبراليون وترأسها شخصية مقبولة بشكل عام .

٤ – يجب حل المجلس .

٥ – يجب إجراء انتخابات جديدة .

قبل الأمريكيون كل الشروط ، لكن في الاجتماع الثاني ظهرت نقطة خلاف ؛ فقد اقترح بازرجان أنه ينبغي على المجلس الجديد أن يشكل لجنة لمراجعة دستور ١٩٠٦ ، حتى يمكن حذف كل ما يتصل بالشاه ، وتعلن الجمهورية . واعترض الأمريكيون على ذلك وأصبحت المناقشة حامية للغاية .

* * *

وعقد اجتماع آخر في بداية ديسمبر حضره السفير سوليفان نفسه وقاموا بفحص الخمس نقاط مرة أخرى ، وعلق سوليفان بأنه لا يعتقد بأن بازرجان ومؤيديه سوف يحصلون على أغلبية في انتخابات حرة . فأجاب بازرجان بأن

(*) حسبما جاء في الفصل الخاص بوكالة المخابرات المركزية في كتاب جون كيلي «الجاسوسية المضادة» كان جورج ب . لامبراكيس أحد أعضاء هيئة السفارة في طهران الذين كانوا يعملون أو يتعاملون مع وكالة المخابرات المركزية ولد عام ١٩٣١ وخدم في عدة بلدان ، بما في ذلك ألمانيا وإسرائيل ولبنان . ومن قائمة الأسماء التي أوردها المؤلف فمن الممكن أن يكون «جون» هو جون لامار ميلر مسؤول الشؤون الاقتصادية والتجارية أو مايكل جون مترمكو الذي كان يعمل في تبريز .

الأمر قد يكون كذلك لكنه على استعداد لتقبل فكرة تكوين معارضة قوية ، أما بخصوص النقطة موضع الخلاف وهي مراجعة الدستور فقد قال سوليفان إن فكرة لجنة تقوم بمراجعة الدستور فكرة صائبة لكنه لا يرى ضرورة لتقرير قضية الملكية والجمهورية مقدماً .

بعد عدة أيام عقد اجتماع ختامي حضره سوليفان أيضاً وكانت أعداد كبيرة من الأمريكيين أخذت في مغادرة البلاد آنذاك كما ان الموقف في صناعة البترول كان آخذاً في التدهور ولذا وافق الأمريكيون على كل ما اقترحه بازرجان لكن على شرطين :

أولاً : ألا تكون هناك أي محاولة للتدخل في الجيش إذا ما أعطى الأمريكيون ضماناً بأن الجيش سيتقبل النظام الجديد .

ثانياً : أن تتوقف الاضطرابات الحالية ويسود القانون والنظام مرة أخرى .

واثيرت نقطة أخرى في هذه المحادثات سببت الكثير من المتاعب فيما بعد ، وهي من سيكون المسؤول عن إصدار الأوامر لقواد الجيش في غيبة الشاه ؟ هل سيكون مجلس الوصاية أو مجلس الوزراء ؟ ومن الغريب أن الأمريكيين كانوا يتفاوضون نيابة عن الجيش ويشعرون أن بمقدورهم اعطاء ضمانات باسمه .

لقد كان هناك بعض الصحة في تعليق الشاه المشوب بالمرارة حينما قال مؤخراً إن الأمريكيين على استعداد لنبذه كما لو كان فأراً ميتاً .

وقد سر بازرجان لما أنجزه في محادثات مع الأمريكيين ، لكنه شعر أنه لا يمكنه أن يستمر أكثر من هذا دون استشارة الخميني لأنـه إذا كان من المفروض أن تتوقف الاضطرابات فإن الخميني وحده هو الذي يستطيع أن يفعل ذلك . لذا تقرر إرسال آية الله منتظري إلى باريس ليقدم تقريراً إلى الخميني عن كل هذه الاتصالات ، ثم ليسأله اقتراح أسماء لأعضاء لجنة الوصاية على العرش . (رشح الأمريكيون اسم « علي أميني » ، مما يدل على أنهم ما زالوا لا يتفهمون نوعية الناس الذين كانوا يتفاوضون معهم) ولكن الخميني رفض كل شيء وقال إن المفاوضات لم تكن سوى خديعة ، حل وسط ، يهدف إلى إجهاض التورة .

* * *

وبدأ شهر محرم — الشهر المقدس لدى الشيعة في ٢ ديسمبر . وتحسباً لمظاهرات الحزن المرتقبة فرض الجيش حظر التجول يومي ١ ، ٢ ديسمبر .

وجاءت الكلمة من الخميني « فلتتحدوا حظر التجول » وأطاعت الآلاف تعليماته وازدحمت بهم الشوارع . وأطلقت القوات النار وسقط عدد من القتلى — قالت الحكومة انهم اثنا عشر ، أما المعارضة فقد قالت إنهم سبعة وستون . واضطرب أزهري ، ولكنه بعد حوادث اليوم الأول أكد لسوليفان ان الشعب قد استوعب رسالة الحكومة وما تنوي عمله ، ان الحكومة تعني ما تقول ولن يتكرر مثل ما حدث خوفاً من العقاب .

ولكن حدث العكس في يوم ٢ ديسمبر خرج حوالى ٤٠٠,٠٠٠ (أربعمائة ألف) متظاهر كما قامت مظاهرات ضخمة في أصفهان مثلها مثل طهران . وألقى أزهري اللوم على حزب تودة ووصفهم بأنهم « ملحدون مخربون ، وليسوا مسلمين حقيقيين » وكانت رسالة الخميني إلى الجيش « أنتم تقومون بقتلنا ونحن نغفر لكم ، لكن يجب أن تنتبهوا إلى حقيقة ، وهي أنكم تصنعون كل يوم مزيداً من الشهداء » .

* * *

كانت السياسة الأمريكية في حالة فوضى شاملة . فكل يلقي اللوم على الآخر — بريجنسكي يلوم فانس ، وفانس يوجه اللوم إلى العسكريين ، والعسكريون يوجهون اللوم لوكالة المخابرات المركزية ، والوكالة تشكو من عدم اطلاق يديها . واشتكى الرئيس كارتر إلى الرئيس جيسكار ديستان من نشاطات الخميني في فرنسا . وعين جورج بول وكيل وزارة الخارجية السابق ليقوم بدراسة بعيدة المدى عن مشاكل الخليج ربما كان تقريره مسؤولاً عن قبول الأمريكيين للاقتراحات التي قدّمها بازرجان .

كان الجميع يتوقعون أن يكون يوم عاشوراء (اليوم العاشر من المحرم) يوم أزمة وهو اليوم الذي يتذكر الشيعة فيه استشهاد الحسين في كربلاء ويحزنون لموته . وقد تنبأ الخميني بأن سيلاً من الدماء قد يفيض في ذلك اليوم . لكن الحكومة وقد تلقنت درساً من فشل حظر التجول في الأسبوع السابق رفعت الحظر

على المظاهرات فتظاهر بشكل سلمي في طهران عدد هائل تقدره المعارضة بحوالى مليوني متظاهر . أما في أصفهان فقد هاجمت الجماهير مكاتب السافاك وأسقطت تمثال الشاه . وأطلق البوليس النيران وسقط عدد من القتلى يبلغ عددهم من أربعين إلى خمسين طبقاً لبيان الحكومة بينما ذكرت المعارضة كالعادة أن العدد أكبر من ذلك بكثير .

كان أردشير زاهدي ، المتواجد الآن في طهران ، يروح جيئة وذهاباً فيما بين القصر والأمريكيين . وظل على اتصال تليفوني ببريجنسكي ، وأكد له أن الموقف ما زال في يد الحكومة وهي تأكيدات كان بريجنسكي يفضل تصديقها على الرغم من أنها كانت على العكس من المعلومات التي تأتي من السفارة ومن وكالة المخابرات المركزية .

وقرر زاهدي أن يبادر بتنظيم مظاهرة مضادة . وفي ١٣ ديسمبر تحرك موكب يضم عسكريين سابقين ، وسيدات ثريات مرتديات الفراء ، في شوارع العاصمة . البعض يسير على قدميه والآخر يركب سيارته وأرغموا الواقفين على جانبي الطريق على إعادة تعليق صور الشاه وأن يعبروا بطريقة أخرى عن ولائهم للشاه . ولم تكن المظاهرة مثيرة للإعجاب أو الإجلال ، طبقاً لما قرره زاهدي نفسه ، عندما استدعاه الشاه إلى مكتبه في نفس الليلة وأخبره « لا يمكننا أن نعيد أيام ١٩٥٣ ؛ ولقد كنا فقراء آنذاك ، وكان من الممكن شراء أي شخص في الشارع مقابل « اثنين تومان » ، أما الآن فان أي تاجر مفلس في السوق يمتلك ثلاثة أو أربعة ملايين « تومان » . وكان من الواضح أن الشاه لم يكن قد فقد كل حنكته .

* * *

وبدأ قلق بازرجان يتزايد نظراً للطريقة التي تتوالى بها الأحداث . وبسبب تزايد العنف والخسائر الرهيبة في القتلى والجرحى ، لذا قرر أن يذهب بنفسه لمقابلة الخميني . وكما أخبرني فيما بعد « كنت أريد أن أشرح له الصورة كاملة كما أراها . كنت أشعر أننا قد أحرزنا النصر حتى الآن ، لكننا يجب أن نعترف بأن الجيش بأسره من الجنرالات إلى أقل الرتب ، مجند ضد الثورة وأننا نواجه احتمال الحرب الأهلية واحتمال وقوع مذبحة لم يسبق لها مثيل .

يروي بازرجان :

«وعبرت من مخاوفي للخميني ، ولكن اجابته كانت «يجب ألا نرضى بالحلول الوسط . إن الغليان قد وصل الآن إلى ذروته وهذا أكبر ضمان للنصر وإذا شرعت الآن في الكلام عن القانون والنظام فسوف تفقد كل شيء وستتلاشى حماسة الشعب ، وسوف يعود الناس إلى منازلهم ، وستفقد جيش المؤيدين الذي يعضدك» . فقلت له : «ولكن يا سيد يمكننا أن نجعل الشعب في حالة تأهب سياسي بالتركيز على الحملة الانتخابية القادمة فهز رأسه ، ولم يقل شيئاً » . فقلت له «إنني أريد أن أسأله سؤالاً واحداً حتى أريح ضميري : هل هو مقتنع تماماً بأننا يجب أن نستمر ؟ هل يستطيع ضمان نجاحنا ضد تدخل الجيش والأمريكيين وأوروبا ؟» فأجاب « كلي ثقة في الله » .... قلت : «حسناً ، لقد عملنا كلنا تحت قيادتك ، وسنستمر في اتباعك ، لكن لا بد أن أعترف بأن القلق بدأ يساورني . » فقال الخميني « أريد أن أطلب منك شيئاً واحداً . أود منك أن تعد لي قائمة بالرجال الذين يمكن أن يكونوا موضع الثقة بعد الثورة ، ويمكننا الاستفادة منهم.عندما يكتب لنا النصر» .

فجلست مع « يزدي » وأعددنا قائمة بالأشخاص المناسبين الذين يمكنهم أن يكونوا مستشارين ووزراء وحكام مقاطعات وهكذا . ضمت القائمة في الواقع أسماء أعضاء المجلس الثوري وأعضاء أول وزارة بعد الثورة .

وقبل أن أغادر باريس قام الخميني بتعييني ممثله السياسي في طهران – فلم يكن المجلس الثوري قد تكون بعد – إذ لم يكن هناك سوى المجموعة غير الرسمية المحيطة به في «نوفل لو شاتو» ، من أمثال بني صدر واشراقي ويزدي وآخرين .

كانت تعليماته الأخيرة لي أن أذهب إلى الجنوب كي انظم إضراباً من عمال البترول حيث كنت مديراً لشركة البترول بعد التأميم أيام مصدق . وطلب مني كذلك أن أعد تقريراً عما ينبغي أن تكون عليه سياسة الثورة بخصوص البترول . فعدت ونظمت إضراباً ناجحاً . ولقد كان هذا الإضراب ، هو الذي فرض أكثر من أي شيء آخر ، على الجيش وعلى الامريكيين أن يجثوا على ركبهم » .

* * *

في ٢٩ ديسمبر عين الشاه شاهبور بختيار رئيساً للوزراء وكان عضواً في الجبهة القومية ، ولكنه كان في الواقع البديل الثالث في عملية البحث عن رجل مدني يرأس الوزارة بعد أن رفض كريم وغلام حسين صديقي وهما من زعماء الجبهة ، الدعوة لتشكيل الوزارة . كان بختيار مشتركاً في المفاوضات التي دارت بين بازرجان والأمريكيين بشكل مباشر أو من خلال زوج ابنته الدكتور بافرودي ، العضو السابق بمجلس الشيوخ والأستاذ في كلية طهران الفنية ، وقد عقد أحد الاجتماعات مع الأمريكيين في منزله . وعندما عاد بازرجان من باريس يحمل تعليمات الخميني بعدم التهادن في الطريق الثوري كان من السهل على بختيار أن يستمر في المفاوضات من النقطة التي تركها بازرجان . لكن على الرغم من أن سوليفان كان معجباً ببختيار بشكل شخصي إلا أنه كان يرى أن قدراته ليست كبيرة ثم ان تعيينه تأخر جداً عن الوقت المناسب ، وقد وصف تعيينه بأنه الآن مثل «ورقة التوت» . وكان بختيار واثقاً من أن في مقدوره تنفيذ البرنامج الذي تم الاتفاق عليه بين بازرجان والأمريكيين . وقد أصر أيضاً على الشرط موضع الخلاف وهو أنه كرئيس للوزراء يجب أن يكون لديه السلطة لإصدار الأوامر لقوات الجيش .

وفي ٣ يناير وصل رسول جديد من واشنطن وهو الجنرال روبرت هويزر نائب قائد القوات الجوية الأمريكية في أوروبا . وعلى الرغم من أن الجنرال هويزر قام بزيارة إيران عدة مرات في الماضي فلم يكن يعلم إلا القليل عنها وعن شخصياتها ولا يتحدث الفارسية . وكان الهدف من مهمته ، التي عارضها بشدة رئيسه المباشر الجنرال الكسندر هيج ، (قائد قوات حلف الأطلنطي وقتها ووزير الخارجية الآن مع ريجان) هي اقناع القوات المسلحة بتحويل ولائها من الشاه إلى بختيار . وكان من المفترض أن يجلس هويزر في مكتب رئيس الأركان الجنرال عباس غراباغي لكي يستطيع التنسيق المستمر معه . وكان مطلوباً منه على أي حال أن يتأكد من ولاء القوات المسلحة لحكومة بختيار بعد رحيل الشاه وباستعداد هذه القوات لتوجيه ضربة نهائية قاضية إذا بدا أن نجاح الثورة الشعبية في الاستيلاء على السلطة أصبح لا مفر منه ! . ولم يعلم الشاه بوصول الجنرال

هويزر للبلاد إلا بعد عدة أيام ، اذ لم يعد الأمريكيون ولا مدير مكتبه الخاص ، الجنرال افشار أميني يكلفون خاطرهم بابلاغه بما يدور حوله .

وقد اختلف هويزر عن سوليفان في تقديره للموقف ، إذ كان يعتقد أن القوات المسلحة ستبقى متماسكة على حين كان يرى سوليفان أنها ستتفكك في أول مواجهة لها مع آية الله كما كان سوليفان يعتقد أن هويزر قد قدم آراءه الشخصية وآراء سوليفان إلى البنتاجون .

* * *

وحينما اتضح أن بختيار كان ينوي تطبيق العديد من الأشياء التي كان المتظاهرون يطالبون بها لعدة شهور ويموتون من أجلها مثل اخراج الشاه من إيران واجراء انتخابات جديدة وخلافه – بدأ القلق يساور بعض هؤلاء الذين كانوا في باريس ، ويساور بازرجان أيضاً في طهران . إذ بدا من الممكن جداً لحكومة اصلاحية أن تسحب البساط من تحت أقدام الثورة خاصة عندما بدأ بختيار في تقديم لفتات أخرى مثل التوقف عن تزويد اسرائيل وجنوب افريقيا بالبترول ، مما يدل على اتجاهه سياسة مخالفة تماماً لسياسات الشاه . وكان هناك مصدر آخر للقلق هو تلك الرسالة التي بعث بها كارتر من خلال الرئيس جيسكار ديستان . «وكانا قد تقابلا لتوهما في مؤتمر القمة الذي عقد في جواد لوب» من أن الأمريكيين ينوون تأييد بختيار ، ولأنه قد تبنى برنامج المعارضة فان كارتر كان يتوقع أن الخميني لا بد أن يؤيده أيضاً . واستمرت رسالة كارتر تقول إن لم يفعل الخميني ذلك ، فمن المحتمل أن يتدخل الجيش ، الأمر الذي يعني انقلاباً عسكرياً .

وكان رد الخميني أنه لن يؤيد بختيار لأن تعيينه غير شرعي طالما أن الشاه هو الذي قام بتعيينه ، والتهديد بانقلاب عسكري «لن يخيفنا لأن هناك انقلاباً قائماً بالفعل فحكومة أزهري كانت انقلاباً عسكرياً وحكومة بختيار ما هي إلا واجهة لانقلاب عسكري . وبختيار ألعوبة في يد الجنرالات ، وإذا تدخل الجيش فإن ذلك سيكون تحت قيادة أمريكا ، في هذه الحالة فإننا سنعتبر أنفسنا في حالة حرب مع أمريكا» .

وعندما سمع الشاه بوجود الجنرال هويزر في طهران منذ عدة أيام دون أن يبذل أي محاولة لمقابلته ، تضايق بطبيعة الحال وأخيراً قام هويزر بمصاحبة السفير سوليفان بزيارة الشاه . ولكن حسبما جاء في مذكرات الشاه التي كتبها في المنفى سأله هويزر على الفور « متى سترحل يا سيدي ؟ هل حددت تاريخاً لذلك ؟ » وكان الشاه في الواقع قد أصدر بياناً يوم ٦ يناير اليوم الذي تقلد فيه بختيار الوزارة بشكل رسمي قال إنه يعتزم مغادرة البلاد للقيام بإجازة لحين استتباب النظام وقال إنه متعب ، وفي احتياج للراحة . وإن مجلس وصاية سيحل محله .

كان بختيار متلهفاً على رحيل الشاه بأسرع ما يمكن ، إذ شعر أن بقية رجال السياسة لن يتعاونوا معه بشكل كامل إلا بعد رحيل الشاه . وتبرأت الجبهة القومية من بختيار (بل طردته في الواقع من صفوفها عندما عارضه الخميني نفسه) وان كان قادتها ظلوا على اتصال تليفوني به . وكان الشاه جاهلاً بالاتفاق الذي تم التوصل إليه مع الأمريكيين بخصوص إقامة جمهورية في نهاية الأمر ، وكان لا يزال يصر حتى بعد مغادرته البلاد ، على أنه القائد العام للقوات المسلحة اسماً وفعلاً ويدّعي أنه الحلقة الوحيدة التي تنسق بين القيادات المتفرقة . ولكن الأمريكيين كانوا يعلمون ان الشاه بدأ يشعر بأنهم قد غدروا به ، وأنهم الآن قد التزموا تجاه حكومة بختيار ، فلم تكن لديهم النية لأن يتركوا الشاه يتحكم في القوات المسلحة وكانوا مصرين على أنه لو وقع إنقلاب عسكري فيجب أن يقوم به الجيش كله وليس الحرس الملكي . كما أنهم وحدهم الذين يحددون توقيته وليس الشاه . وكان مخطط الانقلاب في واقع الأمر في مراحله الأخيرة من الإعداد . وتكشف الأوراق التي عثر عليها في مكتب الجنرال إفشار أميني بعد الثورة ، أن المخططين كانوا يتوقعون خسائر في الأرواح تصل إلى ٥٠ ألف شخص . وقد شغل هويزر نفسه بتعيين القواد الجدد في الجيش وكان ضمن الذين خرجوا من الجيش وقتها الجنرال عويسي الحاكم العسكري لمدينة طهران . فأعلن في ٤ يناير أنه مسافر للولايات المتحدة (لأسباب صحية) .

* * *

في ٩ يناير أصدر الشاه أمراً لأعضاء الأسرة المالكة أن يحولوا كل ثرواتهم

الخاصة إلى مؤسسة بهلوي – وهي لفتة جاءت متأخرة ولم تكن تعني الكثير لأن المؤسسة كانت من البداية أحد المواقع الرئيسية التي تقوم فيها الأسرة المالكة باصطياد الثروات ، هذا بالإضافة إلى أنهم قد وضعوا خططاً أخرى ، فأعضاء الأسرة المالكة شأنهم في ذلك شأن باقي الإيرانيين الأثرياء ، كانوا منهمكين في نقل أموالهم إلى الخارج ، ويقترضون آنذاك من البنوك الإيرانية على المكشوف وكانت البنوك مضطرة لأن تدفع لهم ما يريدون مع أنها تعلم كما يعلم المدينون أنفسهم أن هذه الديون لن ترد . فبنك عمران ، الذي كانت تمتلكه المؤسسة وأنشئ عام ١٩٧٧ وكانت ممتلكاته تقدر بحوالي – بليون دولار – كان بمثابة البنك الخاص للأسرة المالكة وبعض الشخصيات الهامة المنتقاة من خارجها . وفي تلك الأيام الأخيرة قام الشاه وأعضاء أسرته بسحب ٧٠٠ مليون دولار من البنك ، كما أن البنك اضطر أن يزودهم بقروض قصيرة الأجل تبلغ ٨٠٠ مليون دولار ، ولذا فليس من الغريب ان البنك أعلن إفلاسه بعد الثورة .

ولم يغادر الشاه طهران يوم ١٦ يناير ، وهذا تأخير عما كان متوقعاً وعما كان يريده بختيار . وكان التأخير مرده إلى أن الشاه كان يريد أن يأخذ معه إلى المنفى بعض جواهر التاج على الأقل ، وكان ما يريده على وجه الخصوص هي التيجان التي استخدمها في تتويج نفسه والأمبراطورة وولي العهد . كانت كل هذه الجواهر مودعة في خزائن البنك المركزي (بنك مللي) وكان موظفو البنك مضربين شأنهم في ذلك شأن الآخرين . فأمر الشاه كتيبة من الحرس الملكي الذي يسمى الخالدين (وهو نفس الاسم الذي كان يطلق على الحرس الخاص لأكاسرة الفرس) أن ترغم المسؤولين في البنك على تسليم المجوهرات المطلوبة . وهكذا كانت كتيبة الحرس المكلفة بالمهمة تتجه في عرباتها المدرعة متحدية المتظاهرين ، ثم تضطر للعودة صفراء الأيدي ، لأن هذه الكنوز المودعة داخل خزائن على عمق عشرين متراً تحت الأرض لا يمكن العثور على الموظفين الذين يعرفون أرقامها السرية .. وهكذا في النهاية كانت كل احتياطات الأمن العديدة التي اتخذها الشاه قد تسببت في إحباط مخططه . واضطر أن يغادر البلاد دون التيجان ، وظلت الجواهر المؤمن عليها بما يوازي ٢٥٠ – ٥٠٠ بليون دولار حسبما يقال – في البنك .

وافق المجلس على وزارة بختيار يوم مغادرة الشاه لإيران ، وكان قد أعلن عن تشكيل مجلس الوصاية قبل ذلك بثلاثة أيام ، يترأسه جلال الدين طهراني وهو سياسي قديم . وقد دعي سنجابي وبازرجان ليكونا أعضاء بمجلس الوصاية ولكنهما رفضا .

وما ان تولى بختيار قيادة الجيش من الناحية النظرية حتى تصور أنه في وضع قوي إذ كان يرى أن هذه السلطة الجديدة أكسبته قاعدة القوة التي كان في احتياج إليها ، غير مدرك ان السياسي لا يمكن أن يتحصل على مثل قاعدة القوة هذه بين يوم وليلة وكأنها منحة أو قرض . ولم يكن هناك سوى الخميني الذي يتحدث من مركز قوة ثابت وقوي ، إذ تجمعت لديه في ذلك الوقت شواهد عدة يستطيع أن يؤكد بها أن الناس سيطيعون أي تعليمات يصدرها لهم ، فهو إمامهم وهم المريدون في حوزته ، لقد كان هو وليس بختيار ، الذي يمتلك قاعدة القوة الشرعية الحقيقية التي يؤمن بأن الشاه كان قد اغتصبها ، لذا ، فقد أعلن من «نوفل لو شاتو» رفضه لبختيار ، قائلاً إن من يطيع أمره كمن يطيع الشيطان . وقال إنه سيعلن تشكيل مجلسه الثوري . وبدأ وزراء بختيار في التساقط ، وحتى قبيلته هو «بختياري» تخلت عنه وأعربت عن تأييدها للخميني .

كان الشاه يأمل قدر المستطاع أن يجعل من رحيله كما لو أنه بداية لسلسلة من الزيارات التي يقوم بها لعدة دول . وكانت المحطة الأخيرة في هذه الرحلة هي الولايات المتحدة . لكنه كان يفكر في عدة نقط يتوقف فيها في طريقه إلى هناك . كان المفروض أن يكون أول مضيف للشاه هو الملك حسين ، لكن الملك اعتذر عن هذا الشرف بأدب شديد ، بينما قبل ملك المغرب والرئيس السادات استقبال الشاه وكأنه ما زال رئيس دولة !

وطار الشاه وحاشيته إلى أسوان مباشرة . وحاولت السلطات المصرية أن تحيط وصوله بكل مظاهر الهيبة الممكنة ، وتم إقناع بعض الناس بالخروج إلى الشوارع للترحيب به ، ولكنها كانت في الواقع مناسبة بائسة . فالشاه نفسه كان رجلاً حزيناً حائراً ، لا يزال عاجزاً عن إدراك ما حدث له . وراح يلقي باللوم على مستشاريه وعلى الأمريكيين . يقول إنه كان محاطاً بسياج من المنافقين أخفوا

عنه الحقيقة ، بل إنه في بعض اللحظات كان على استعداد لأن يلقي باللوم على الأمبراطورة متهماً إياها بأنها كانت جزءاً من المؤامرة التي حيكت ضده .

كان هناك شيئان أساسيان يشغلان فكره - أن يحتفظ باتصالاته بالجنرال غراباغي والحرس الملكي ، والذي كان يتكون من فرقتين مدرعتين ، وأن يكتشف ما إذا كان الخميني ينوي العودة إلى طهران . وكان يعتقد ان أي شيء يقوم به الخميني قد يكون لصالحه ، فإذا عاد الإمام إلى طهران فإن الجيش سيتولى امره ، وإذا لم يعد فإنه سيفقد احترامه لأنه سيظهر بمظهر الشخص غير الواثق من استقبال الشعب له .

حينما كان الشاه في أسوان كان يتصرف وكأنه لا يزال رئيس دولة . فعقد مؤتمر قمة ثلاثيًّا مع الرئيس السادات والرئيس الأمريكي السابق جيرالد فورد عبر فيه عن شكواه من الأمريكيين فقال إن كارتر قد خدعه فقد استمر يصرح علانية انه يؤيد الشاه تأييداً كاملاً ، بينما كان يتفاوض مع المعارضة في الخفاء . وإذا كان هناك ثمة حاجة للاتصال بالمعارضة لكان هو ، الشاه ، في وضع أفضل من الأمريكيين ليفعل ذلك . وأضاف أنه من الغريب ، ان ملك المغرب ، الذي لم يكن عنده أي التزام بذلك ، أبدى استعداده لإرسال قوات لمساعدته ، على حين أن الأمريكيين والمفروض أنهم حلفاء لم يقدموا مثل هذا العرض . فسأله فورد سؤالاً عاقلاً : وما فائدة المزيد من القوات طالما أن الشاه كان لديه قوات كثيرة تحت إمرته ؟ .. أما بخصوص شكوى الشاه من عقوق السياسة الأمريكية ، فلم يكن هناك ما يمكن لفورد أن يفعله سوى أن يحيط واشنطن علماً بها عند عودته .

* * *

كانت رسالة الخميني للشعب الإيراني هي أن التخلص من الشاه لم يكن سوى الخطوة الأولى «ليس هذا هو نصرنا الأخير ، ولكنه مقدمة للنصر» ، ودعا الجيش الى تحطيم سلاحه الأمريكي الجديد المعقد ، ودعا الشعب أن يستمر في الاضرابات والمظاهرات ضد نظام بختيار ، أما بخصوص اقتراح كارتر بأن

يتعاون الخميني مع بختيار فقد رد الخميني ببساطة قائلاً «إن هذا الأمر لا يخص كارتر» .

واستمر بختيار في ثقة بنفسه لا محل لها . وتصور إن الجيش تحت سيطرته ، بينما كان الجيش يتلقى أوامره في واقع الأمر من الأمريكيين مباشرة وليس منه . وأحس ان بإمكانه تحدي الخميني فقال «لن أتنازل عن موقعي لآية الله خميني تماماً مثلما يرفض هو أن يتنازل عن موقعه لي» ولم تكن هذه ملحوظة ذكية . ومع هذا فقد تزايد الإحساس بنفاد الصبر بين المنفيين في باريس إزاء استمرار بختيار في تنفيذ البرنامج السابق للمعارضة - الانسحاب من الحلف المركزي ، وطلب إيران الانضمام إلى دول عدم الانحياز والإصرار على عدم عودة الشاه وهكذا - وبدأ يخامرهم الإحساس ان الانتقال إلى طهران لا بد أن يتم دون تأخير ، إذا أرادوا حماية ثمار الثورة من أن تسرق منهم .

وأخبرني يزدي بأن رسالة أخرى وصلتهم من الأمريكيين أرسلت من خلال السلطات الفرنسية ، لكن بختيار كان مشاركاً فيها هذه المرة . كانت رسالة بختيار وكارتر المشتركة تقول «نرجو ألا تذهب إلى طهران كما تنوي لأنك إن فعلت ذلك فستراق دماء كثيرة» . كما أرسل بختيار رسالة خاصة إلى الخميني يطلب منه فيها منحه هدنة لمدة ثلاثة أشهر ، ينتهي خلالها من وعده بتنفيذ البرنامج الذي كان يريده كلاهما ولكنه أضاف «إنه إذا ما عاد الخميني فإن الجيش سيقوم بمذبحة لا محالة» .

كان بازرجان يبعث هو الآخر رسائل إلى الخميني ، حيث اقترح أن يشكل الخميني حكومة في المنفى ويعلن الجمهورية وفي نفس الوقت يترك لبختيار إنهاء الأعمال القذرة مثل التعامل مع الجيش والإعداد للانتخابات . وقد اقتنع كثيرون من حاشية الخميني بهذا الرأي ، خاصة وأن الخوف كان ما يزال يمتلكهم لما قد يقوم به الجيش . لكن الخميني رفض وقال ينبغي أن نذهب جميعاً إلى طهران .

وجاءت رسالة جديدة من بختيار «أعطني مهلة لمدة شهرين» وكان رد الخميني بالرفض وعاد بختيار يلح «ثلاثة أسابيع» وكان الرد لا يزال بالرفض .

* * *

قضى الشاه خمسة أيام فقط في أسوان طار بعدها في ٢٢ يناير إلى مراكش بالمغرب ، وكان المفروض أن يقضي خمسة أيام أخرى هناك ينتقل بعدها إلى الولايات المتحدة ، لكن بعد وصوله مباشرة تسلم رسالة من زوج ابنته ، أردشير زاهدي سفير إيران في واشنطن تفيد ان السلطات الأمريكية قد غيرت رأيها وأنه لن يقابل بالترحاب ، لذا فإنه من الأفضل له أن يبقى في المغرب . وإذا كان ذلك قد سبب له خيبة الأمل ، فقد سبب الحرج لمضيفه . فقد تظاهر الطلبة المغاربة ضد الشاه عند وصوله واستمروا في ذلك . وبما كان للثورة الإيرانية في ذلك الوقت من سحر خاص في قلوب المسلمين أينما كانوا فإن وجود الشاه في أي دولة إسلامية كان يشكل خطراً بالنسبة لحكومتها . وأخيراً أحس الشاه من نفسه بالحرج ولكنه بعث إلى الملك الحسن يقول له « إنه ليس من المناسب له أن يرحل الآن ، ذلك انه كان على اتصال دائم بالحرس الملكي الذي ظل محتفظاً بولائه له ، وأنه يتوقع طلباً بالعودة إلى طهران في أي لحظة ، وأنه لو عاد من الولايات المتحدة فسيبدو الأمر كما لو كانت وكالة المخابرات المركزية هي التي رتبت لعودته » . وسكت الملك الحسن على مضض لكنه بعد قليل بعث رئيس ديوانه ليشرح للشاه « إنه على الرغم من أن الملك يود كثيراً منحه حق اللجوء السياسي إلا أن التغيير الكبير الذي طرأ على الموقف سيجعل ذلك مستحيلاً بكل الأسف » .

وكان الباب موصداً في كل من المغرب والولايات المتحدة دون الشاه ، ولم يجد له أصدقاؤه – ديفيد روكفلر وهنري كيسنجر – سوى المكسيك لتكون ملجأ له . ولكن ظهرت في ذلك الوقت تعقيدات غير متوقعة إذ أن الحكومة الجديدة في طهران بادرت بإلغاء جوازات السفر الامبراطورية الزرقاء التي كان يحملها الشاه وأسرته أثناء رحلاتهم ، وذلك من ضمن الإجراءات الأولى التي اتخذتها . وقد أرادت السلطات المكسيكية أن تعرف أي جوازات سيسافرون بها . ولم يكن المغاربة على استعداد لتزويد الشاه وأسرته بجوازات سفر ، لأن هذا يعني ان كل الحاشية ستتوقع ذلك أيضاً ، وقد يستخدمون هذه الجوازات للعودة إلى المغرب وهذا شيء لم يكن الملك الحسن يرغب فيه على الإطلاق .

وهكذا وصلت الأمور إلى طريق مسدود .

ودق جرس التليفون ذات يوم في مكتب الأمير صدر الدين آغا خان رئيس هيئة الإغاثة الدولية للاجئين بالأمم المتحدة في جنيف . فردت السكرتيرة وأخبرته ان هناك مكالمة خارجية من سيدة تقول إنها « الأمبراطورة فرح » . كان ذلك أمراً غير متوقع . ولكن الأمير صدر الدين لما أخذ التليفون تعرف على الصوت . وقالت الأمبراطورة «آسفة لإزعاجك ، لكننا نواجه صعوبة بخصوص جوازات السفر . إذ يقول البيروقراطيون في المكسيك إننا يجب أن نقدم لهم قطعة ورق كي يختموها . هل يمكن أن تساعدنا ؟» وأخبرته ان الأميرة أشرف كانت على اتصال دائم بكورت فالدهايم في نيويورك بخصوص المشكلة ، وهي تأمل أنه سيكون من الممكن أن تصدر لهم الأمم المتحدة جوازات سفر تابعة لها أو تصدرها لهم باعتبارهم لاجئين . لقد دارت الدائرة حقاً ، وها هي ذي امبراطورة إيران تتوسل أن تمنح هي والشاهنشاه بطاقة اللاجئين .

* * *

في ذلك الوقت كان الوضع داخل إيران يزداد فوضى بعد رحيل الشاه . إذ لم يكن الجنرال الأمريكي هويزر ولا الجنرالات الإيرانيون الذين يؤيدون حكومة بختيار يعرفون ما الذي ينبغي عليهم عمله . وكانت الطريقة الوحيدة التي خطرت لهم لمنع آية الله من تنفيذ تهديده بالعودة إلى طهران هي اغلاق كل المطارات . وتم تنفيذ ذلك في ٢٥ يناير .

كان معاونو الخميني يواجهون صعوبة متوقعة في العثور على طائرة تقلهم إلى الوطن . وفي نهاية الأمر قام أحد أثرياء الشيعة بإيداع ثلاثة ملايين دولار لتغطية أجر طائرة نفاثة من طراز جامبو تابعة لشركة ايرفرانس والتأمين المرتفع عليها وعلى طاقمها من الرجال الفرنسيين الذين تطوعوا لهذه المهمة . وبما أن المطارات كانت لا بد وأن تفتح في ٣٠ يناير حيث أن اغلاقها المستمر سيؤدي إلى إيقاف الحياة التجارية للبلاد تماماً ، فقد تحدد اليوم الأول من فبراير لعودة الإمام .

وحدثت اضطرابات خطيرة في طهران وتبريز في ٢٦ ، ٢٨ يناير ، أدت إلى قتل ما يزيد على مائة شخص .

وفي اليوم السابق لوصول الخميني قام قواد القوات المسلحة باتخاذ التدابير لاستعراض قوتهم في العاصمة وسمائها عن طريق الوحدات المدرعة والقوات الجوية . لكن بعض قوات الجيش في قاعدة بالقرب من طهران قامت بالعصيان ، وكان لا بد من إرسال قوات الحرس الملكي لاستعادة السيطرة . وقامت الجماهير بتحية الجنود في الشوارع بالورود . ومما لا شك فيه ان استعداد كل الجماهير في أغلب المدن الرئيسية لمواجهة الاستشهاد والترحيب «عقدة كربلاء» هو الذي ضمن للثورة النصر .

* * *

واستقل الخميني طائرة اير فرانس النفاثة ليلة أول فبراير . وتوجه إلى الجزء العلوي حيث توضأ وصلى من أجل أولئك الذين سيواجهون الموت . وأكل قليلاً من الزبادي — وفرش الدوشك على أرضية الطائرة وخلد إلى النوم . وكانت حاشيته وكذلك فريق كبير من الصحفيين الذين كان يصل مجموعهم كلهم إلى مائة يشغلون الجزء الرئيسي من الطائرة . (وقد منع الخميني زوجته وزوجات مؤيديه من القيام بالرحلة معهم) . كان هناك توتر شديد حتى إن بعض أفراد طاقم الطائرة تساءل «هل سيطلقون علينا النيران» لكن لم يكن هناك أحد يملك الإجابة .

نام «آية الله» في المكان الذي كان يشغله في الطائرة بمفرده ، إلى أن استيقظ في الخامسة وتوضأ مرة أخرى وأدى صلاة الفجر وصلاة الشهادة ، وتناول قليلاً من الزبادي . ولم يتمكن يزدي مثل بقية المنفيين العائدين من النوم طيلة الليل ، وحينما اقتربت الطائرة من طهران ذهب إلى الخميني ووجه انتباهه إلى منظر المدينة من خلال النافذة — المدينة التي لم يرها منذ أربعة عشر عاماً .

كانت مناسبة للابتهاج الديني العارم ، الذي قد لا يكون له نظير في العصر الحديث . ولو أن الإمام الغائب قد عاد حقاً بعد ألف ومائة عام ، لما كانت حماسة الناس أعظم من ذلك . كان الناس يصيحون «إن روح الحسين تعود» . «لقد فتحت أبواب الجنة مرة أخرى» . «لقد حانت ساعة الاستشهاد» . وصيحات النشوة المماثلة — وان كان لم يتوقع أحد أن يعود الإمام الغائب في طائرة نفاثة

من طراز الجامبو – كما قال آية الله شريعة مداري متهكماً – ولم يسعد الخميني كثيراً بهذا التعليق حينما سمع به .

* * *

وحينما رأت الحكومة والجيش ان كل سكان العاصمة في حالة هيجان أعلنا أنهما غير مسؤولين عن استقبال الإمام أو عن أمنه . ربما لأنهم كانوا يعتقدون أنه حينما تحيط الملايين بالرجل العجوز الضعيف الذي بلغ الثمانين من عمره فإن فرصة بقائه على قيد الحياة قد تكون ضعيفة – الأمر الذي يرحبون به – والأفضل لديهم أن يقتل ذلك الرجل من جراء حب مؤيديه وليس بدبابات الجيش . لكن اللجنة المحلية استولت على زمام الأمور وقامت بدور الحراسة حول الخميني وأظهر الناس درجة مدهشة من النظام . وكانت الشوارع مكتظة إلى درجة أصبح من المستحيل معها أن يشق الخميني طريقه من خلالها . لذا تقرر أن يكمل رحلته بالهليكوبتر . وعلى الرغم من وجود تمرد في قاعدة القوات الجوية إلا أنه تم الحصول على هليكوبتر وطاقم لقيادتها . وطار الخميني فوق رؤوس مؤيديه الذين كانوا يحيّونه بحماسة شديدة إلى أن وصل إلى مقر الزهراء مقبرة الشهداء يزورها ثم إلى المدرسة الحسينية حيث تقرر أن يقيم هناك .

كانت كل السلطات إلا تلك التي تنبع من الخميني آخذة في الذوبان . وعلى الرغم من أن بختيار لم يستقل فقد تجاهله الخميني وعين بازرجان رئيساً للوزراء وأخبر الجنرال غراباغي الجنرال هويزر أن وحدات الجيش كانت تنضم إلى المتظاهرين في الشوارع . وصدرت الأوامر من واشنطن : برجينسكي إلى الجنرال هويزر بأن لحظة الانقلاب المضاد قد حانت ولكن لم يكن هناك جيش للقيام به ولذا قرر الجنرال هويزر بعد اتصاله بواشنطن ان أفضل شيء أمامه هو أن يختفي . وقد فعل ذلك تاركاً زملاءه الجنرالات الإيرانيين يدافعون عن أنفسهم قدر استطاعتهم . ولكن لم يكن هناك الكثير ليفعلوه قائلين لغاراباغي إنهم أصبحوا جنرالات بدون جيش .

* * *

وكحل أخير أعلن بختيار حظر التجول . وحين سمع الخميني ذلك أخذ

قصاصة من الورق وكتب عليها «تحدوا حظر التجول بعون الله» . أخذت الورقة إلى التليفزيون قبل أن يحتله بعض ما تبقى من الجيش وظهرت صورة قصاصة الورق بخط الخميني على شاشات التليفزيون وتدفق الناس إلى الشوارع وكان هذا هو اليوم الأخير قبل أن تصل الثورة الإسلامية إلى السلطة .

واتصل الجنرال غراباغي تلفونياً ببازرجان رئيس الوزراء الذي عينه الخميني وطلب منه أن يرسل «مندوباً» يمكنه أن يسلمه الجيش .

وكان الجيش والحكومة قد أصبحا مثل الأشباح .

وانضم معظم صغار الضباط إلى صفوف الثورة وانحازوا إلى جانبها ، ولم يبق على ولائه سوى كبار الضباط من رتبة كولونيل فصاعداً وكثير منهم إما قتل سريعاً أو آثر الانتحار . فالجنرال عبده بدري قائد القوات البرية وقائد الحرس الملكي من قبل ، أطلق أحد ضباطه عليه النار والجنرال كمال حبيب الله قائد البحرية ، اختفى ثم هرب إلى مكان بالخارج . وقدم الجنرال أمير حسين ربيعي قائد القوات الجوية إلى المحاكمة وأعدم رمياً بالرصاص وقد لاقى نفس المصير الجنرال أمير رحيمي حاكم طهران العسكري . ولم يكن أمير رحيمي مثل بعض كبار الضباط الآخرين مثل الجنرال ناصري الذي كان على استعداد لأن يكشف كل شيء ويورط أي شخص ليفلت بجلده ، بل كان رحيمي شجاعاً حتى النهاية وواجه الفرقة التي أطلقت عليه النار وهتف « عاش الشاه » .

أما الجنرال علي رشابي قائد الحرس الملكي ، فقد طلب من الجنرال غراباغي ان كان يسمح له بأن يستعير سيارة القيادة الخاصة به وقادها تاركاً المكان ليقابل مظاهرة ضخمة أحاطت بسيارته وهددت من فيها فأطلق رشابي النار على نفسه من مسدسه العسكري . كما انتحر الجنرال محمد علي حاتمي مدير الطيران المدني (وهذه وظيفة هامة في بلد كان يعتمد على النقل الجوي في معظم اتصالاته . وكان الطيران الداخلي يضم اثنتين وثلاثين طائرة نفاثة من طراز الجمبو) .

وهكذا وصل الصراع الطويل بين الدين والامبراطورية وبين الإمام والشاه إلى نهايته .

الفصل الخامس عشر

مدفعية بغير مشاة

كان آخر وهج للحكم الأمبراطوري في إيران ، عندما ناشد الجنرال « غراباغي » رئيس الوزراء الجديد مهدي بازرجان الذي عينه الخميني ، لكي يرسل بمندوب عنه لكي يتسلم منه الجيش ، ولكن في الحقيقة لم يكن هناك جيش ليسلم . ولم يكن الجيش وحده هو الذي تلاشى ، بل إن كافة أجهزة الدولة كانت قد اختفت – إذ توقفت كل مناحي الحياة في البلاد ، انتظاراً لما سوف يتصرف به الإمام حيالها .

أصبحت سلطة الخميني مطلقة بشكل أكبر بكثير من سلطة الشاه . فثروة البلاد ومكانتها كانت تحت تصرفه . حتى هؤلاء الذين عارضوا الشاه بشكل مستقل ولمدة طويلة ، الساسة القدامى للجبهة القومية وللتجمعات الأخرى واليسار ، بمن فيهم الشيوعيون اعترفوا به كقائد لهم . وأصبح الخميني على الصعيد الدولي البطل الجديد الذي لا بديل له ، بالنسبة لكل حركة ثورية .

لقد بدأ فصل جديد كل الجدة من تاريخ إيران . لكن ماذا سوف يسطر الإمام فيه ؟

عندما قابلت الخميني في باريس في نهاية عام ١٩٧٨ ، أخبرته انه ليس عندي أدنى شك في مقدرته على القضاء على النظام القديم ، لكنني لست واثقاً بنفس الدرجة في قدرته على تشييد النظام الجديد . ثم قلت «إذا جاز لي استخدام الاصطلاحات العسكرية فإنك قد أظهرت مقدرتك على استخدام المدفعية بكفاءة عالية ، لكن بعد أن انتهت مدفعيتك من أداء مهمتها ، ألست في حاجة إلى المشاة ليحتلوا المواقع التي تم الاستيلاء عليها . فأين مشاتك ؟ والمشاة في الثورة هم الكادرات السياسية ، والبيروقراطيون والتكنوقراطيون ،

الذين سيقومون بتنفيذ البرامج التي ناضل من أجلها الثوار ؟ مما لا شك فيه ان بعض البيروقراطيين والفنيين القدامى في إيران ، كانوا فاسدين وعاجزين ، لكنك ستحتاج إلى خدمات الخيِّرين منهم » .

كانت إجابة الخميني « إن إيران لن تحرم من خدمات الفنيين المسلمين الخيرين الذين تلقوا تدريبهم في الغرب وسيعودون إلى الوطن لتنفيذ برامج التحديث على أساس المبادئ الإسلامية » . وعندما الححت عليه ليشرح لي ماذا يعني « بالمبادئ الإسلامية » التي ستعمل الحكومة الجديدة بهديها قال « الحرية والعدالة » ، فقلت أنا لا أرى أي تناقض بيننا بخصوص هذه النقطة .

* * *

لكن هل كان تفسيره كافياً ؟ في الأيام الأولى للثورة أخذ كثير من الناس بمن في ذلك بعض رجال السياسة مثل بازرجان وسنجابي ، يصفون الخميني بأنه ببساطة « ولي من أولياء الله » – ورأوا فيه قطبا من الأقطاب بدد قوى الظلام ، وهو بهذا قد ترك المسرح خالياً لحسني النية أمثالهم ليتسلموا زمام الحكومة . وقد اعتقد هؤلاء ان « ولي الله » بعد انتصاره سيقضي عدة أيام في طهران ، ثم يذهب بعدها إلى مدينة قم حيث يجمع حوزته مرة أخرى ويستمر في تعليم أتباعه أمور الدين ، كما لو كان كل ما حدث – منذ عام ١٩٦٣ ، يمكن نسيانه . وكان الخميني في الواقع ينوي أن يفعل ذلك . ومثل كثير من الثوار العسكريين في العصر الحديث الذين استولوا على السلطة ، ثم أعلنوا عن عزمهم للعودة إلى ثكناتهم العسكرية في أول فرصة ممكنة ، كان الخميني حقيقة لا يرغب في الحكم . لكنه ، مثل كثير من هؤلاء الثوار العسكريين ، وجد أن الحنين إلى الحياة الخاصة أيسر بكثير من القيام بتحقيق تلك الأمنية .

والحقيقة ان نجاح الثورة قد أدى إلى الإطاحة بمراكز السلطة القديمة دون أن يقيم لها بديلاً ، إلا من الخميني نفسه . فأي نظام حتى يضمن لنفسه البقاء ، لا بد وأن تسانده طبقة ما ، أو قطاع له مصلحة في ذلك ، لكن لم يحدث شيء من هذا في الأيام الأولى للثورة في طهران . فبازرجان (الذي يبلغ خمسة وسبعين عاماً) وسنجابي وآخرون مثله كانوا بقايا من جيل مصدق . وعلى

الرغم من أنهم كانوا يدينون بظهورهم الآن على الساحة إلى آية الله ، إلا أنهم كانوا عبارة عن أفراد معزولين ، ليس لهم قاعدة تساندهم أو أتباع منظمون في البلاد .

وحتى إذا كان الخميني قد تفهم ذلك فإنه لم يسبب له القلق . فقد كان يعتقد اعتقاداً راسخاً ان واجب الثورة الأول هو تحطيم كل شيء يتصل بنظام الشاه ، وقد أظهر نجاحاً كبيراً في هذا المضمار .

كان لا بد من تحطيم الجيش ، لا لأنه من صنع الشاه ، ولكن لأنه يمثل التهديد الحقيقي الوحيد للثورة . فقد كان كل من الشاه المنفي والأمريكيون يضعون أعينهم عليه باعتباره نواة الثورة المضادة . وكذلك كان لا بد من الإسراع في تصفية الأداة التي استخدمها الشاه لفرض طغيانه . أما المصير الأسوأ فقد كان ينتظر السافاك الذين ينبغي القصاص منهم جزاء أفعالهم الدموية .

وعندما تحدثت مع الخميني فيما بعد في مدينة قم أبدى إيماناً طوباوياً بمقدرة المجتمع على الحياة في وئام بدون قسر خارجي . وقال لي : «يقيناً ، بإمكاني أن أفرض القانون والنظام على البلاد اعتباراً من الغد ، لكن لا يمكن انجاز ذلك دون الاستعانة بالجيش وشرطة جديدة تشبه السافاك . هل ألجأ إلى القمع مثل الشاه ؟ لقد عاش شعبنا خمساً وثلاثين عاماً في السجن ، ولن تضعهم أي حكومة في السجن مرة أخرى . يجب أن يمنحوا الفرصة للتعبير عن أنفسهم كما يشاؤون ، حتى لو أدى ذلك إلى درجة من الفوضى » .

لم تكن الضحية الوحيدة هي الجيش والشرطة بل كان لا بد من تصفية البيروقراطية القديمة كذلك . وأذكر أن قطب زاده أخبرني ذات يوم في مكتبه بوزارة الخارجية « ان العدو الحقيقي الذي يجب أن أواجهه ليس في الخارج — انما هو داخل وزارتي . ان الموظفين المدنيين يبذلون قصارى جهدهم لإحباط جهودي كي يستمروا فيما كانوا يفعلونه أيام الشاه . يجب أن اتخلص من مستويين من المسؤولين وأن أستعين بالمستوى الثالث » .

ولم يكن المثقفون محل ثقة ، بالإضافة إلى أنه لم يكن لديهم أية اقتراحات عملية لمعالجة المشاكل الجارية ، وفي الأيام الأولى للثورة ، عندما كان الوصول

إلى الخميني متيسراً للجميع ، وجد نفسه يمطر يومياً بعدد ضخم من الخطط التي يقدمها المثقفون بخصوص كل موضوع يمكن تصوره ، ومن ناحية أخرى ، كان هناك العديد من الفنيين الذين تلقوا تعليمهم في الخارج وظلوا فيه تحاشياً للعمل في نظام كانوا يمقتونه . كما ان الموظفين الإيرانيين الذين كانوا يعملون في الوكالات الدولية مثل هيئة الأمم والبنك الدولي كان عندهم الكثير ليقدموه ، كما اعترف الخميني نفسه . لكن أغلب هؤلاء عادوا إلى الوطن وكلهم شغف ليعرفوا مدى امكانية استفادة الثورة بخدماتهم ، توصلوا وكلهم أسف إلى نتيجة مفادها ان فرصتهم لم تحن بعد .

أما البرجوازية التي تخلت أساساً عن الشاه في سنواته الأخيرة ، فقد وجدت نفسها في عالم لا يمكنها التعاطف معه ، ولا يمكنه التعاطف معها ، فضربت الفوضى أطنابها في الشوارع والأسواق ، وتوقفت التجارة والمعاملات المالية ولم يعد هناك ما يمكن أن يفعلوه أو يأملوا فيه .

وبالتالي أصبح هناك فراغ بالفعل ، لذا فقد عين ابراهيم يزدي نائباً لرئيس الوزراء للشؤون الثورية ، وكان المفروض أن ينسق بين كل القوى التي كانت تقف خلف الثورة ويوفق بينها ، إلا أن ذلك لم يكن إلا من قبيل تزيين الواجهة . لم تكن هناك سوى سلطة واحدة في البلاد ، كما قال لي يزدي نفسه ، فالثورة تتكون من رجل واحد ، الإمام ، والملايين من اتباعه ، ولا يوجد أي شيء بينهما .

وحينما ترك الخميني طهران بعد عدة أسابيع وعاد إلى منزله في مدينة قم لم يعد كمواطن عادي أو ولي من أولياء الله ، أو معلم سيجمع حوزته من حوله مرة أخرى لأن المشاكل التي تركها من ورائه كانت من الصعوبة بمكان بحيث يصعب على أي شخص أو جماعة من الناس أن يتولوا حلها — لذا ذهبت طهران بأسرها وراءه إلى قم . وفي الواقع كان الخميني هو حكومة بالفعل لا بالاسم . وعبثاً احتج قائلاً « بأنه لا يود ان يحكم » لكن إذا لم يكن حاكماً ولا مواطناً عادياً فماذا يكون إذن ؟ وكانت الإجابة بأنه «الحَكَم» .

* * *

وكان هناك العديد من المجالات للتحكيم . فالقوى الجديدة كانت منقسمة

على نفسها . كان هناك صراع بين رجال الدين والمثقفين ، سواء كانوا بالداخل أو بالخارج . ولم يكن المثقفون - من أمثال بني صدر ويزدي وشمرانْ وقطب زاده ، علمانيين كما كان يطلق عليهم أحياناً عن طريق الخطأ ، فقد كانوا يؤمنون بأن الثورة لا بد أن يظل طابعها إسلاميًّا ؛ ولكن لأنهم تلقوا تعليمهم في الغرب فإنهم رأوا بطبيعة الحال الأشياء بشكل مختلف عن رجال الدين . وكالعادة ، وكما في كثير من الثورات ، كان هناك تنافس بين هؤلاء الذين مكثوا في إيران طوال الوقت وتعرضوا لتعذيب السافاك ورصاصات الجيش ، وبين أولئك الذين نظموا الثورة في الخارج وعادوا مظفرين مع الإمام . ولم يكن أي من الطرفين قوياً بما فيه الكفاية ليهيمن على الطرف الآخر . كان بعض رجال الدين يتمتعون بتأييد محلي قوي ، لكن لم يتمتع أحدهم بقاعدة شعبية على الصعيد القومي ، في حين كان المثقفون العائدون من الخارج لا يملكون حتى مجرد بيت ، فما بالك بقاعدة شعبية . فبني صدر - مثلاً - كان ما يزال يقطن في منزل أخته في طهران ، عندما انتخب رئيساً للجمهورية . وكانت ممتلكاته الشخصية لا تزيد عن بضعة كتب أحضرها معه من الخارج .

وكان الخميني - كما قال لي - يعتقد انه من المستحسن أن تظهر الخلافات والتي غالباً ما تكون حادة ، بين هذه المجموعات المختلفة ، اثناء حياته ، لأن لديه القدرة على حسم هذه الخلافات لما يتمتع به من مكانة خاصة . وهذا أفضل من أن تترك هذه الخلافات الى أن تتفتح وتنفجر بعد موته - فلقد كان يشعر ان أجله قريب - ولذا بدأ يحاول خلق التوازن . ومثلما كان في الدستور الأمريكي من ضوابط وموازين بين رئيس الجمهورية والكونجرس والقضاء ، فقد قرر أن يخلق نوعاً من التوازن في إيران الثورية بين الرئيس والمجلس وبين الإدارة الحكومية ورجال الدين .

وكان مرشح الخميني للرئاسة هو مؤيده الوفي بني صدر ، رئيس لجنة باريس والشخص الذي أعد ترتيبات إقامة الخميني هناك . ولم يعلن الخميني تأييده لبني صدر في كلمات واضحة ، لكن الغالبية العظمى كانت تعرف تماماً المرشح ، الذي ينبغي أن تدلي له بأصواتها . وقد دعيت مرة لتناول طعام العشاء مع

بني صدر في منزل أخته وزوجها . وقد تأخر وصوله بسبب بعض الأمور في المجلس فقلت إنني سأذهب على أن أعود فيما بعد - لكني أثناء مغادرتي للمنزل قابلت حسين حفيد الخميني داخلاً المنزل وهو يقول : «سنتناول العشاء مع أول رئيس للجمهورية الإيرانية» . فأخبرته أنه قد أعطاني خبراً هاماً لتوه ، ومع أنه حاول أن يتظاهر بأنه كان يمزح ، إلا أنه كان من الواضح لمن سيدلي الخميني بصوته . وحصل بني صدر على ٧٥ ٪ من الأصوات كما هو متوقع ولو كان الخميني قد أفصح بشكل أكثر صراحة عن رأيه لربما حصل على ١٠٠ ٪ .

وإذا كانت الرئاسة من نصيب ممثل عامة الناس فإن المجلس النيابي كان من نصيب رجال الدين . فحينما جرت الانتخابات العامة في مارس ومايو سنة ١٩٨٠ نجح الحزب الجمهوري الإسلامي بقيادة آية الله بهشتي كما هو متوقع وحصل على أغلبية قدرها ٢٧٠ مقعداً ، في نفس الوقت قرر الخميني ، لكي يضفي على وضعه شكلاً رسمياً ، توسيع إطار دستور ١٩٠٦ بإدخال تعديل عليه . يقرر أنه في حالة وجود فقيه أكبر (مثله) يخول له الحق ، بأن يكون هو السلطة العليا في الدولة ، أما في حالة غياب مثل هذا الفقيه فإن السلطة تنتقل إلى لجنة يقوم أعضاؤها بدور الأمناء بالنيابة عن الفقيه .

وفي حركة أخرى ، تهدف إلى التخلص من أي تهديد لسلطته ، فرغ الخميني من رجل الدين الآخر آية الله شريعة مداري الذي كان له أتباع كثيرون . فقد كان معروفاً أن الأمريكيين كانوا يأملون في الاستفادة من آية الله شريعة مداري . وذهب الخميني إلى بيت شريعة مداري في قم زائراً وأطلع مضيفه على وثائق عثر عليها في الأرشيف الأمبراطوري تشتمل على اسمه . وخلال نصف ساعة كان كل شيء قد انتهى . وتوارى آية الله شريعة مداري من الساحة .

* * *

على أن التوازن الدقيق الذي كان الحكم يحلم به لم يتحقق . والذي حدث لم يكن توازناً وانما مأزقاً كاملاً . كان أول ضحاياه هو بازرجان ، أول مرشحي الخميني لرئاسة الوزراء . فقد استقال من منصبه في نوفمبر ١٩٧٩ ، وعندما قابلته

بعد ذلك بوقت قصير وسألته عن دوافع استقالته أجاب بكلمتين عربيتين وهي كلمات شأنها شأن كلمات أخرى دخلت ضمن قاموس اللغة الفارسية . قال : مداخلات (أي تدخل) – ومزاحمات (أي تزاحم) . وكان بازرجان يكرر دائماً انه لو أعطي خمس سنوات لاستطاع أن يبني حزباً قوياً . وقد سمعت نفس الرجاء من ساسة قدامى آخرين . لكن أثناء هبوب العاصفة من ذا الذي يتحدث عن مهلة لخمس سنوات – أو حتى سنة واحدة ؟

وكان يزدي ضحية للمأزق السياسي التام ، حيث وجد نفسه وزيراً للشؤون الثورية دون سلطة أو نفوذ ولا شك انه كان مغلول اليدين بسبب تلك الفترة الطويلة التي قضاها في أمريكا ، وماذا يستطيع أي شخص آخر أن يفعل أفضل من ذلك لو كان في موقعه . ثم انتقل بعد ذلك إلى وزارة الخارجية ، لكنه لم يكن أسعد حظاً من بني صدر أو سنجابي أو قطب زادة الذين شغلوا هذا المنصب قبله وبعده .

ووجد بني صدر انه كرئيس ليست لديه القدرة على تعيين وزراء من اختياره ، رغم انه كان على استعداد لأن يركز سيطرته على بضعة مناصب أساسية فقط مثل الشؤون الخارجية والاقتصادية . فقد رفضت أغلبية المجلس المكونة من رجال الدين كل ترشيحاته . وفي النهاية اضطر لتقبل محمد علي رجائي كرئيس للوزراء ، بعد أن فرضه عليه رجال الدين ، والذي لم يخف بني صدر رأيه فيه بأنه غير مناسب على الاطلاق لهذه الوظيفة ...

وأدى هذا الصراع بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء إلى نتيجة غريبة وسوء فهم كبير في الخارج . فبعد نشوب الحرب مع العراق ، تقرر أن يناقش الموضوع في مجلس الأمن وكان المندوب الذي يريد بني صدر إرساله هو « علي شمس الدين أردكاني » سفير إيران في الكويت الذي كان بني صدر قد عينه في وظيفته هذه عندما كان وزيراً للخارجية . وعندما أصبح بني صدر رئيساً للجمهورية كان يود تعيين « أردكاني » وزيراً للخارجية ، لكن رجائي رفض ذلك . والآن رفض أن يسمح « لأردكاني » بمخاطبة مجلس الأمن لأن الأمر سيبدو كما لو أن رفضه له كوزير للخارجية لا وزن له . ولكي يتأكد من عدم

حدوث ذلك ، قرر رجائي أن يسافر بنفسه إلى نيويورك – وسافر بالفعل . الأمر الذي أدى إلى تكهنات على نطاق واسع من أن الغرض الحقيقي لرحلته هو أن يبدأ محادثات مباشرة مع الأمريكيين بخصوص الرهائن . لكن في الواقع لم تكن عنده مثل هذه النية ، ولم تكن رحلته إلى نيويورك إلا تعبيراً واضحاً عن الصراع الداخلي على السلطة في إيران* .

كما ان ظهور الطلبة كعنصر آخر في المعادلة جعل الحفاظ على التوازن بين القوى الثورية أمراً أكثر صعوبة . فالطلبة لهم أهمية خاصة لأنه من المحتمل أن تظهر من بين صفوفهم التجمعات والقيادات السياسية في المستقبل . ويمكنني الشهادة بأنهم مثاليون ، فخورون بأنهم استولوا على انتباه العالم ، لكنهم كانوا سذجاً فيما يختص بأمور عديدة . فعندما تحدثت معهم كان يبدو كما أنهم يعتقدون بالفعل ، ان بقية العالم الإسلامي بأسره ، يتطلع إليهم لقيادته . وقد أدى عمق ايمانهم الديني إلى أنهم أصبحوا حلفاء لغالبية أعضاء المجلس ، مما نتج عن ذلك التحالف المتناقض بين رجال الدين والجامعات ضد من يسمون بالعلمانيين ، الذين كان المتوقع لهم في ظل أي ظروف عادية ، أن يكونوا القيادة الطبيعية للطلبة .

وأدت صحة الخميني المعتلة إلى تعقيد الأمور أيضاً . فهو يناهز الثمانين من عمره ، أصيب بأكثر من نوبة قلبية بعد عودته إلى مدينة قم . كانت الطاقة التي أظهرها في المنفى قد أخذت في الضعف . كما أصبح من المستحيل عليه أن يركز أكثر من عشرين دقيقة في اللقاء الواحد . ورغم ان كل التساؤلات الهامة ظلت تقدم إليه ليتخذ قراراً بشأنها ، فقد كانت استجابته لها غريزية أكثر منها عقلية . وفي الأيام الأولى لعودته إلى مدينة قم كان يشكو من أنهم يرسلون اليه يومياً ثلاثة تقارير – واحد من وزارة الخارجية عن الأمن الخارجي وآخر عن الشؤون الداخلية ، وثالث عن الشؤون الاقتصادية . وتوسل إلى المسؤولين في طهران ألا يرسلوا إليه هذه التقارير وقال : «أنا لا أقرأها قط» .

* * *

---

* انتهى الصراع بعودة بني صدر إلى باريس لاجئاً مرة أخرى بعد أن فقد منصب الرئاسة .

لا توجد في مدينة قم طريقة رسمية لإدارة الأمور . فقد أجهضت العلاقة الشخصية المباشرة بين الخميني والجماهير كل المحاولات الرامية لخلق نوع من الحياة السياسية الحقيقية . فكل صباح يأتي اليه مؤيدوه من سائر أنحاء إيران ، بالاتوبيسات والتاكسيات وبأي طريقة تتوفر لهم . ويحييهم من فوق سطح منزله ويدخل معهم في حوار قصير . ومن الصعب أن نتصور ان كل هذا التمجيد لم يترك أثره على الخميني . فهو في نهاية الأمر بشر . وإحدى نتائج ذلك انه أقنع نفسه بأن الجهاز الرسمي الحكومي ليس على قدر كبير من الأهمية . فالمؤسسات في اعتقاده يمكن أن تأخذ وقتها .. تسقط أو تقوم .. وما عساها أن تكون بالقياس إلى الواقع المتمثل في الاتصال الدائم بينه وبين الجماهير ، والفهم المتبادل بينهما ؟ هو الإمام ، وها قد عاد الإمام إلى شعبه .

والخميني ماهر ومحنك للغاية ، لكن أحاديّته في التفكير تقوده لتبني مواقف تجعل المرء يشهق من فرط الدهشة . فقد أخبرني « ان الثورة لم تقم لتزود الناس بالطعام » . – ومما لا شك فيه ان الإنسان لا يحيا بالخبز وحده لكن مشكلة البطالة ، وهي مشكلة كانت حادة أيام حكم الشاه ، قد ازدادت منذ قيام الثورة ، وهؤلاء العاطلون يريدون ما يكفيهم من الطعام بطبيعة الحال . والعمل هو الذي يستطيع وحده أن يزودهم بذلك . والخميني غير مهتم بالنظريات الاقتصادية ، وحينما يتحداه أحد ، كما قلت من قبل ، فإنه يشير إلى أن الضباط الذين استولوا على السلطة في عديد من البلاد العربية ، والأفراد الذين ورثوها لا يعرفون سوى القليل مثله عن علم الاقتصاد ، أما هو كفقيه فإنه يستطيع أن يدعي عن حق ان لديه من الحكمة ما يفوق حكمتهم . ومع هذا لا يمكن مناقشتهم أو إسداء النصح اليهم فكيف يمكن إذن التحاور مع المطلق ، أو إسداء النصح لفقيه ملهم ؟

إن إيران ما بعد الثورة ، كانت في حاجة ماسة لنوع من أنواع التخطيط الاقتصادي ، وعلى الرغم من تخفيض إنتاج البترول ، إلا أن هناك ثلاثة ملايين برميل تنتجها إيران تصل إلى الأسواق العالمية كل يوم ، وهذا يعني دخلاً يومياً حوالى ١٢٠ – ١٥٠ مليون دولار – . لذا يجب أن يكون هناك برنامج متفق

عليه لاستخدام هذا العائد خير استخدام . وقد أوضح لي الرئيس بني صدر انه توجد عدة مشروعات بدأها النظام السابق ، ومن الحكمة أن نستكملها فليست كل المشروعات التي أشرف عليها الشاه كانت بوحي من جنون العظمة – فعلى سبيل المثال ، هناك مشروع الإسكان الجديد ويكلف ٦٠٠ مليون دولار ، خارج طهران ، الذي كان سيزود مئات الأسر بالمساكن التي هي في أمس الحاجة اليها ، وكان من الممكن الانتهاء منه ، بعد الثورة خلال ثلاثة أشهر من العمل المكثف . لكن لم يتم شيء من هذا القبيل . وكان بني صدر يرغب في تبني خطة قصيرة الأجل ، لتغطية كل المشاريع الجديرة بالتنفيذ والتي بدأت بالفعل والتي يمكن الانتهاء منها خلال عام ، وبعد ذلك يضع خطة طويلة الأمد للتنمية المنظمة .

لكن بدلاً من ذلك كانت الجماهير تدعى يوماً بعد يوم للقيام بمظاهرات جديدة لا ضابط لها تقريباً . كيف يمكن لبلد ما يُفْتَرَض بأن لـه حكـومـة أن يسمح فيه للطلبة بإلقاء القبض على وزير لمجرد انهم وجدوا وثيقة تدل على انه قابل ذات مرة في الماضي شخصاً من القارة الأمريكية ؟ .

كان الناس إذا أرادوا فعل شيء توجهوا إلى الخميني وليس إلى بازرجان فقد كان الإمام والمحيطون به ، وليس الوزارة ، هم الجديرين بالاهتمام من وجهة نظر الناس .

ومما ذاع عن الخميني انه يقتنع بسهولة برأي آخر شخص يتحدث إليه ، مما كان يجعل الأمور تزداد سوءاً – فقد كانت مناقشات تدور بين الخميني وزائر أو مجموعة من الزوار وبعد ذلك يقوم هؤلاء باعلان بعض ما جاء في هذه المناقشات ويقدم على أنه أحكام قاطعة من الإمام ، وكانت نتيجة ذلك الفوضى الشاملة .

* * *

لا بد من الاعتراف بأن الخميني قد أظهر كفاءة بالغة في الاستراتيجية الثورية فقد كان لديه من الصبر والإصرار ما يقلب نظام حكم رهيب كما أظهر حساسية لمزاج وتطلعات أمته بشكل يكاد يكون فريداً في التاريخ الإيراني . وهذا

ما سيضمن له دائماً مكانة عالية في تاريخ العصر الحديث . لكن عجزه عن تثبيت أقدامه في الأرض التي اكتسبها سيقلل بعض الشيء من عظمته الحقيقية .

والذين يعرفون الخميني يدركون انه رجل عطوف ، لكنه لا يحاول جاهداً أن يقدم هذا الجانب الرقيق من شخصيته للعالم ، وعندما فاتحه البابا بشأن موضوع الرهائن الأمريكيين كانت إجابته هجوماً قاسياً وبأسلوب خشن «لا تشغل نفسك بما يحدث في إيران . ولتوجه ناظريك إلى ما يحدث في أمريكا . لماذا لزمت الصمت عندما احتلت القدس» ؟ وهكذا . ولم يكن من المتوقع أن يتعلم الخميني لغة الدبلوماسيين لذا كان ينبغي عليه أن يدع الدبلوماسيين التابعين له يتحدثون للدبلوماسيين الآخرين .

ومما لا شك فيه ان بعض الأفعال المتطرفة التي وقعت في الأيام الأولى للثورة – قد خلقت انطباعاً سيئاً للغاية في الدول الأخرى – ولم يفعل الخميني ولا المحيطون به أي شيء لإصلاح ذلك الوضع . فقد قبض على بعض الناس بشكل تعسفي ، وقدم للمحاكمة ما يقرب من ٥٥,٠٠٠ شخص ، بُرِّئ عشرات الألوف منهم ولكن أعدم ٣٥٠ شخصاً في الثلاثة أشهر الأولى – واستمر تنفيذ أحكام الإعدام منذ ذلك الوقت بعد تقديم أوهى الاتهامات ، وبعد محاكمات تعد ضرباً من السخرية بالعدالة . ويصر الخميني على ان هذه المحاكمات والأحكام كانت تسودها روح القصاص وليس الانتقام . ولكن الفرق بينهما لم يكن واضحاً . ويفكر الخميني ويتحدث بأسلوب «المطلق» وتهيمن عليه رؤيته لتاريخ الشيعة هيمنة كاملة فهو لا يمكن أن ينسى قط موقعة صفين ولذا رسخ في نفسه شك عميق من أي شيء له علاقة بالتحكيم أو الحلول الوسط .

وقد تسبب عجزه عن التوصل إلى حلول وسط ، إلى تعقيدات عديدة في الشؤون الخارجية والداخلية ، وهي تعقيدات كان من الممكن تلافيها لو تعرف بشكل أوسع على الدنيا ، أو كما ينبغي أن نقول ، لو تم تناول الموضوعات بشكل أكثر دنيوية . ولا تزال إيران بسبب موقعها الاستراتيجي الجغرافي وثروتها الطبيعية مغنماً تتطلع اليه القوى العظمى . وبغض النظر عن من يحكمها ، أو

يفشل في حكمها فستظل إيران منطقة للصراع بين القوى الأعظم . لكن الخلاف دب بين الخميني وروسيا وسُمح لرجال الدين باستغلال مشكلة الرهائن الأمريكيين . وربما أراد بعض رجال الدين بسبب دوافعهم الخاصة أن يبقوا البلاد في حالة هيجان دائم ، وفي الواقع فقد تم تناول مشكلة الرهائن بشكل غير ذكي على الإطلاق من جميع النواحي .

* * *

وقد قُدِّر لي أن أتعرف إلى سوء التناول هذا بنفسي ، وأرجو أن أكون قد استطعت أن أشرح رأيي في أن احتلال السفارة الأمريكية كان أمراً مفهوماً ، إن لم يكن أيضاً مبرراً بالمعنى الدقيق للكلمة ، على الرغم من إيماني أيضاً بأن كل فعل سياسي ينبغي أن يكون له هدف ودافع أيضاً .. خطأ الثورة يكمن في فشلها في أن تظهر للعالم الغرض من إمساكها بالرهائن .

كان اهتمامي بالرهائن في بداية الأمر مسألة صحفية فحسب ، لكن عندما دخلت السفارة الأمريكية وتحدثت مع الطلبة هناك كما تحدثت مع قواد الثورة الآخرين كان ذلك موضع اهتمام عالمي . ثم فاتحني صديق لي ، وهو سياسي معروف ، في بداية عام ١٩٨٠ ، عندما كنت ماراً بلندن ، وسألني عما إذا كنت أوافق على الذهاب إلى واشنطن لمقابلة سيروس فانس وزير خارجية أمريكا بخصوص الإفراج عن الرهائن . فأوضحت لصديقي بأن هذا مستحيل ، إذ أنني عائد لتوي من واشنطن . فسألني عما إذا كنت مستعداً لمقابلة ممثل عن الحكومة الأمريكية في لندن فوافقت شريطة ألا يكون لهذا الشخص علاقة بالمخابرات المركزية الأمريكية . فسألني عما إذا كان «هارولد سوندرز» مساعد وزير الخارجية الأمريكية مناسباً ، فأجبت «إنه مناسب بالتأكيد» حيث أنني أعرفه شخصياً وأكن له الاحترام منذ أن قابلته في القاهرة عندما كان مصاحباً لهنري كسينجر في تنقلاته أثناء مباحثات فك الاشتباك الأول في ديسمبر ١٩٧٣ .

في اليوم التالي وصل مساعد وزير الخارجية الأمريكية بشكل غير رسمي إلى لندن وعقدنا اجتماعاً خاصاً في شقة صديقي . وسألني هارولد سوندرز عما إذا كنت على استعداد لمساعدة الرئيس كارتر ، فأجبته بأنني على استعداد

لمساعدة الإيرانيين ، لأنني كنت أرى انهم سيجنون ربحاً وافراً من وراء حل مرض لمشكلة الرهائن . لأنه بات من الواضح ان مشكلة الرهائن ، لا تفسد علاقة إيران بالعالم الخارجي فحسب ، بل كانت تزيد أيضاً من تعقيد صراع القوى المتنافسة داخل إيران – حيث كان الافتراض العام – والصحيح – ان أحد القادة العلمانيين سيظفر بمنصب الرئاسة ، بينما سيسمح لرجال الدين بالسيطرة على المجلس – كما أن قطب زاده وزير خارجية إيران كان يتمنى أن تنجح مجموعة المحامين الفرنسيين الذين ندبتهم الحكومة الإيرانية في الحصول على أمر بإلقاء القبض على الشاه الذي كان موجوداً حينئذ في « بنما » ، وكان هذا سيزيد من فرصة حصوله على الرئاسة . وفات قطب زاده شيء هام جداً له ثقله وفعاليته وهو تأييد الخميني ، الذي كان يتمتع به بني صدر .

وبعد انتخاب بني صدر كما كان متوقعاً في نهاية يناير ، اعتقد الأمريكيون بأنه سيكون في مقدوره اتخاذ الترتيبات اللازمة لإطلاق سراح الرهائن ، مما يدل على فهمهم المحدود لحقيقة الموقف في إيران . وفي نفس الوقت فإنهم كانوا يعملون من خلال الأمم المتحدة ، فقد طالب مجلس الأمن كورت فالدهايم الأمين العام للأمم المتحدة أن يبذل مساعيه لحل الأزمة . ولم يتردد فالدهايم في القبول لأن احتمال انتخابه لفترة ثانية في وظيفته سيحل عام ١٩٨٢ .

وكان هناك أنواع شتى من المتطوعين الذين يقدمون أنفسهم كوسطاء في مشكلة الرهائن ، إذ كانوا يعرفون ان هذا هو الطريق الأكيد للشهرة الفورية ، بفضل اهتمام وسائل الإعلام الأمريكية المفرط بمشكلة الرهائن .

* * *

وكان الأمريكيون على استعداد للتعلق بأي قشة ، لأنه لم يكن لديهم أي اتصال مباشر على الإطلاق مع الإيرانيين ، ولذا كانوا يستجيبون لأي شائعة تأتي من هنا أو هناك . وكانت هناك فترة ، على سبيل المثال ، وقبل وصول بعثة الأمم المتحدة إلى طهران ، وردت فيها تقارير أثارت قلق الأمريكيين البالغ ، ومفادها ان الطلبة يخططون لقتل كل الرهائن ، بدلاً من تسليمهم إلى البعثة ، إذا ما أمرتهم الحكومة بذلك . وقد استطعت أن أتأكد من خلال اصدقائي

في طهران وقم ، ان هذه الشائعات لا أساس لها من الصحة ، ولكن مما كان يثير الأسف أن يرى المرء قوة عظمى لا تعجز فقط عن الحصول على المعلومات الصحيحة وإنما كانت أيضاً غير قادرة بشكل تام على فهم تفكير شعب كانوا على علاقة وثيقة به للغاية لما يزيد عن ثلاثين عاماً .

وتمت عدة لقاءات أخرى مع هارولد سوندرز ومع عديد من المسؤولين الإيرانيين الآخرين ، لكني قطعت الاتصالات بعد أن قامت غارة تاباز بتخريب كل محاولات الوساطة تماماً . ولم يستسلم الأمريكيون ، فبعد فترة ليست بالطويلة اتصل بي نفس الصديق الذي كان قد رتب المقابلات الأولى مع هارولد سوندرز ، وأخبرني أنه قد تلقى رسالة من واشنطن ، كانت من الغرابة بمكان بحيث لم يكن أمامه إلا أن يسلمني إياها كما هي .

واتضح انها عبارة عن اقتراح ، القصد منه أن أقوم أنا باستخدامه في محاولة جديدة لمفاتحة السلطات في طهران ، وكانوا يأملون أن أوافق على هذه الخطوة . وكانت الوثيقة غريبة بالفعل . ولعل أفضل طريقة لإظهار مدى ابتعاد التفكير الأمريكي عن الواقع هو أن أورد الوثيقة كما هي :

«الفكرة هي أن يذهب هيكل إلى إيران ، ويقدم إلى بني صدر طريقة تمكن الإيرانيين من استخدام كارثة عملية الإنقاذ ، لإطلاق سراح الرهائن وأن يضعوا نهاية لهذه القضية . كما يقوم هيكل بإقناعه أن مثل هذا العمل هو فرصة نادرة ليركب موجة قومية إسلامية لتدعيم مركزه — ويمكن تقديم نفس الفكرة إلى الخميني باعتباره مشاركاً في نفس الرغبة للتخلص من المشكلة .

«ويمكن لهيكل أن يستفيد من النقاط التالية : ـ

أ ـ ان نجاح الثورة الإيرانية أمر قد اتضح وتمت البرهنة عليه من جراء الهزيمة المخزية لبعثة الإنقاذ الأمريكية . فلقد بين الله سبحانه وتعالى للعالم ، أنه مهما كان العدو جباراً ، فإن الحق في جانب المظلومين . وفي هذه الحالة ستتاح الفرصة للجميع ليشهدوا التسامي الخلقي للجمهورية الإسلامية .

ب ـ خدمت الرهائن الأمريكية الغرض الذي كانت ترغب فيه إيران .

فقد كانت بمثابة الأداة التي أظهرت للعالم وبشكل مثير مساوئ حكم الشاه ودعم الحكومة الأمريكية له . إن عجز الحكومة الأمريكية عن القيام بعملية

إنقاذ لهو الشهادة الثانية والأخيرة على عدالة أخذ الرهائن . (وعلى سبيل المثال . أدى الفعل الايراني إلى رد فعل أمريكي ، نتج عن فشله تأكيد للرسالة التي كانت إيران تود أن تنقلها أساساً) لذا لم يعد هناك أي حاجة للرهائن .

جـ ـ سيتم الإفراج عن الرهائن . لأن إيران لم تكن تنوي أبداً إلحاق الأذى بهم . وهذه اللفتة ستظهر بشكل مثير وواضح مدى سماحة الإسلام ورحمته وليس هناك شعور بالكراهية تجاه الشعب الأمريكي ، وإنما ينصب الكره على الحكومة وحدها (فليطلق سراح الرهائن الآن ، وليظهر غباء الأمريكيين وعدم مهارتهم أكثر من ذي قبل ولتقلهم الطائرات من تاباز نفسها أمام مندوبي الصحف ولتدون كل ملاحظاتهم الساخرة المستخفة بالولايات المتحدة الخ ..) ولتظهر إيران ، والجمهورية الإسلامية بمظهر المنتصر ذي الأخلاق السامية .

د ـ وهكذا يظهر مختطفو الرهائن بمظهر المنتصرين والأبطال القوميين فهم لم يلحقوا الأذى بأحد ، كما أنهم نفذوا تعاليم الإمام . وستقوم الحكومة بمكافأتهم بسخاء ، ويعترف الإمام بفضلهم بشكل خاص ، قد تكون هذه هي آخر فرصة لقوة المختطفين لترك مجمع السفارة دون حدوث ضرر لأحد في إيران .

هـ ـ يجب أن تعلن إيران بنفسها قرار الإفراج وكأنه حدث درامي يدل على الرحمة والعطف بالرهائن ، وهي خطوة اتخذها الخميني بنفسه . وإجراءات الإفراج عن الرهائن ستمنح إيران فرصة هائلة للدعاية ، تغطي بها الخمسة أشهر البائسة بمسحة من الأخلاق الحميدة والرحمة وهكذا تجدد إيران صورة الإسلام ، وهذا شيء يسعد كافة المسلمين في العالم . وتهاجم الحكومة الأمريكية مرة أخرى لعدائها للقضايا العادلة ، وهذا لا يقلل من معركة إيران مع الحكومة الأمريكية ولا يمثل أي نوع من المهادنة معها» . انتهت الرسالة .

* * *

ولقد تلقيت رسائل أخرى من واشنطن بعد ذلك ، لكن حسب معلوماتي التي كانت ترد من طهران ، كانت كل خطوط الاتصال مع الأمريكيين قد تداخلت بشكل يبعث على اليأس . فلم يكن لدى الإيرانيين أي فكرة عن مَن المفترض فيه أن يتحدث مع من ، ولا حتى عن تلك الإشارات التي كانوا يتلقونها من الأمريكيين وتعبر عن الموقف الأمريكي الحقيقي . عند هذه النقطة اقترحت أنا وآخرون أنه

قد يكون من الحكمة التخلي عن فكرة الوسطاء – كلية . وقد طرح الدور الجزائري نفسه كبديل . فالجزائر كانت البلد الذي يرعى المصالح الإيرانية في أمريكا ، والتي كان لها حكومة إسلامية وثورية ، ويمثلها في واشنطن سفير على قدر كبير من الكفاءة ، هو عبد الكريم غريب ، وقد ثبت فيما بعد انه هو الذي كانت لديه القدرة على تحريك ودفع عملية المفاوضات ، التي كللت بالنجاح في يناير ١٩٨١ .

وأعتقد أنه لا بد من الاعتراف بأن التقدير النهائي للموقف بخصوص الرهائن يدل على أن خسائر الإيرانيين كانت تفوق أرباحهم . ولا يمكن إنكار أنهم قد أذلوا أمريكا عدوهم الأكبر من خلال الرهائن ، ولكنهم لم يكونوا أول من أذل قوة عظمى ، كما كانوا يتباهون . إن فشل الأمريكيين الحقيقي يتمثل في سقوط الشاه . ولم يكن هناك ضرورة لإضافة أي شيء لهذا وإن الاستمرار في حجز الرهائن ساعد أمريكا على عزل إيران واظهار حكامها بمظهر القساة والعجزة .

ويمكنني أن أتفهم وجهة نظر الخميني . فعندما سألته بأن أخذ الرهائن كان ضد القانون الدولي . فكان جوابه «بالسؤال عن الفوائد التي عادت على إيران من القانون الدولي . هل منع الشاه من وضع يده على ثروات البلاد ؟ هل منع الأمريكيين من الإطاحة بحكومة إيرانية دستورية وقتل زعمائها . اننا لا نرى أن القانون الدولي قد احترم مطلقاً في حالة إيران وبالتالي لا نرى أي مبرر يفرض علينا أن نحترمه الآن» ومهما كانت حكمة هذا الرأي ، الذي كان من العسير على بقية دول العالم أن تستوعبه أصبحت معركة الرهائن التي طالت أقل اقناعاً عن ذي قبل .

الفصل السادس عشر

نيران فوق الخليج

في إحدى لحظات الحماسة ، قال الخميني «إن بإمكانه أن يحول الخليج إلى كرة من النيران ، ان جرؤ أحد على المساس بنا» . وسواء وضع هذا التهديد موضع التنفيذ أم لا ، فمما لا شك فيه أن أصوات مدفعية الخميني لم تترك أصداء منذرة بالسوء في مكان ما أكثر مما تركت في الخليج . ولا يرجع ذلك إلى أن إحدى ضفتي الخليج أرض إيرانية ، بل يرجع بشكل أكبر إلى كونها منطقة تتكون من خليج متفجر عناصره الموقع الجغرافي والتطورات السياسية الأخيرة .

* * *

ينتج الخليج نصف البترول الذي يستهلكه العالم . كما أنه أصبح الآن أيضاً مستورداً لنصف الأسلحة التي تصدرها البلاد الصناعية . وهذه الحركة المرورية الحساسة المتبادلة في مسارين منفردين ، تقع في أيدي دول صغيرة إلى درجة أن عدد سكانها يقدر بالآلاف ودخلها يقدر بالبلايين . والتركيب السكاني لهذه الدويلات لم يعد متجانساً ، لأن الثروة اجتذبت العديد من المهاجرين الأجانب إلى الخليج ولم يكن الإيرانيون الشيعيون أقلهم عدداً ، وذلك أدى إلى تغيير الطابع المتجانس الذي كان يتسم به السكان الأصليون ، تغييراً كبيراً .

وقد تم بفعل تطورات دولية وإقليمية تنظيم البنيان السياسي للخليج في السنوات الأخيرة على ثلاثة مستويات . المستوى الأدنى ويضم الدول الصغيرة التي تقع على الشواطئ الجنوبية والغربية – الكويت والبحرين وقطر ودولة الإمارات العربية المتحدة ، ومسقط .

أما المستوى الثاني : فيتكون من ثلاث قوى متوسطة الحجم ، وكلها لها منافذ على مياه الخليج – وهي العربية السعودية والعراق وإيران . لكن فوق كل

دول الخليج هذه ، تقبع عيون الدولتين الأعظم ترقبها بعناية بالغة ، فأساطيلها تبحر في المحيط الهندي ، ومصالحها فيما وراء مضايق هرمز مصالح حقيقية ، لدرجة أن أحدهما لا يسمح للآخر هذه الأيام بتحقيق موقف مهيمن هناك ، مماثلاً لموقف بريطانيا في القرن السابق لمجيء البترول .

* * *

وعلى الرغم من المخاطر والتعقيدات الكامنة في هذا البناء ذي المستويات الثلاثة ، إلا أن دول الخليج الصغيرة قد تكيفت معه إلى درجة معقولة . فقد قنعوا بترك المشاكل المتعلقة بدبلوماسية القوى الأعظم إلى هؤلاء الذين لهم علاقة مباشرة بها – مثل السعودية وإيران والعراق ، ثم إلى مصر الّتي كانوا ينظرون إليها دائماً بصفتها قائدة العالم العربي . كان اهتمامهم المباشر هو الإبقاء على العلاقات الطيبة مع جيرانهم الكبار : السعودية وإيران . وبازدياد طموح الشاه ليصبح شرطي المنطقة الأوحد أصبح من الواضح لهم ومن الأكيد ضرورة الحفاظ على علاقات الود معه على وجه الخصوص . فهو رغم كل شيء ، الحاكم المطلق لِرعايا يبلغ عددهم سبعة وثلاثين مليوناً ، والمؤسس لقوة عسكرية واقتصادية كبيرة ، وهو قائد البحرية الضخمة الوحيدة في مياه الخليج ، رجل تتصدر أخبار طموحاته العظيمة وأخبار بلاطه الرائع العناوين الرئيسية للجرائد كل يوم . رجل يسعى إليه الغرب وهو الذي ساهم في أن يدخل الفوضى في اقتصاديات الغرب بأن لعب دوراً قيادياً في الحملة الهادفة إلى زيادة سعر البترول زيادة هائلة . رجل تعرف شبكة مخابراته كل شيء ، ويخشى الجميع بوليسه السري – فهو إذن الشرطي والحامي والصديق لهم .

وقد أصبح من عادة حكام الخليج أن يقوموا بزيارة سنوية للبلاط في طهران . وعندما تمت ، ما ظهر أنها آخر زيارة من مثل هذه الزيارات في أغسطس ١٩٧٥ .. كانت الظروف قد تغيرت تغيراً ملحوظاً عما تعود عليه هؤلاء الحكام . فقد وصل الشيخ عيسى بن سليمان آل خليفة ، حاكم البحرين إلى طهران ، بعد أن كان الشاه قد قام بجولته الهامة بالهليكوبتر فوق العاصمة حيث شاهد لأول مرة بعينيه الناس وهم يتظاهرون ضد حكمه . ولم يكن الشيخ عيسى يعلم

شيئاً من هذه الرحلة ، وقد أدرك البحرانيون لأول وهلة أن هناك شيئاً ليس على ما يرام ، فبعد أن استقبلوا كالعادة من الشاه في المطار ، ذهبوا معه إلى نصب الشاهياد فقط . وبدلاً من مواصلة الموكب بالسيارات وجدوا طائرتي هليكوبتر في انتظارهم . استقل الشاه احداها إلى قصر نيافاران ، بينما أخذت الثانية الزوار إلى قصر جولستان – قصر الضيافة .

وكان هناك همس بأن ما دعا إلى هذا التغيير في النظام ، وكان لازماً ، هو وجود مظاهرات في الشوارع .

وفي حفل العشاء الذي أقيم تكريماً لهم لم يملك البحرانيون إلا أن يلاحظوا جو العصبية والتوتر الذي ساد تلك الليلة ، فقد كانت الأمبراطورة تدخن سيجارة وراء الأخرى . كما أن الشاه الذي كان من عادته عدم التدخين ، أخذ يدخن هو أيضاً . وقد انتابت الشاه اثناء العشاء فترات من الصمت التام حتى بدا كما لو أنه لا يعير ما كان يقال أي انتباه . وفي فترات كان ينفجر بالاتهامات :

«إنكم أنتم ، الدول الصغيرة ، الذين تمثلون نقاط الضعف في منطقة الخليج . أنتم والعربية السعودية – أنتم مسؤولون عن ضعف المنطقة كلها . فأنتم تكشفونها لتهديد الشيوعية . لقد سمعت أنكم تفكرون في إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي . لماذا تريدون فعل ذلك ؟ أنا لا أمانع لكن إذا أقمتم علاقات مع الاتحاد السوفيتي فينبغي أن تقيموا في نفس الوقت علاقات مع الصين – في نفس الوقت وليس دقيقة بعدها . فالصينيون هم وحدهم الذين يعرفون ماذا يدور في الاتحاد السوفيتي . أود أن أقول لكم ، إن الشيوعية تنتشر في منطقة الخليج . قد يقول البعض انهم لا يلمحون أثراً لها وأنا أؤكد لكم أنكم لو خدشتم أي شجرة في المنطقة فستجدون سائل الشيوعية الأحمر ينساب منها» (*) .

وتحدثت الامبراطورة كثيراً عن ابنها ، ولي العهد ، الذي قرر أن يصبح طياراً ، وكان يتلقى تدريبه في هيوستون ، بتكساس ، وقالت إنها قلقة طول الوقت بسبب احتمال وقوع حادثة له . وعزاؤها الوحيد انها عندما تستيقظ

* مقابلة مع الشيخ محمد آل خليفة وزير خارجية البحرين .

في الصباح فإنها تعرف ان الوقت ما زال مبكراً في الولايات المتحدة ولم يبدأ تدريبه على الطيران بعد . وعندما تذهب إلى فراشها بالليل تكون ساعات تدريبه قد انتهت . أما خلال النهار فإن لديها أموراً أخرى تشغل تفكيرها .

ورغم أن الشاه قد شجع ابنهما على اختيار هذه المهنة إلا أن الأمبراطورة كانت ترى أنه ينبغي أن يعود ليبدأ تدريباً سياسيًّا قبل أن يرث العرش . وخرج البحرانيون وهم قلقون للغاية – إذ لم يجدوا أحداً لا في البلاط ولا في الحكومة كان لديه الاستعداد ليتحدث بشكل جدي في أي شيء .

* * *

وسرعان ما شارك بقية حكام الخليج ، البحرانيين في قلقهم . ولم يكن تزايد القلاقل في إيران السبب الوحيد لعدم اطمئنانهم ، فمصر إحدى الدعامات التي كانوا يستندون إليها – كانت تبتعد عنهم . وقد ساورتهم الشكوك لأول مرة بعد ورود التقارير عن المظاهرات التي كانت بسبب مشكلة الطعام عام ١٩٧٧ ، في القاهرة . وكل حكام الخليج كانوا يعرفون نصيحة الملك عبد العزيز التي أسداها لأولاده قبل وفاته ، وهي أنه يمكن الحكم على صحة العرب عموماً ، بمدى صحة مصر ، فإذا كانت مصر عليلة ، فكل العالم العربي عليل .

وما كان يقلقهم الآن ، ليس مجرد أن القاهرة قد شهدت لأول مرة منذ عدة أعوام اضطرابات خطيرة لقي عديدون أثناءها مصرعهم ، وإنما كان لسبب هو ما قيل رسمياً من أن الاضطرابات كانت من تنظيم الشيوعيين . والشبح الذي يطارد حكام الخليج الأثرياء هو شبح الشيوعية .

ولم يكن قلقهم بخصوص اضطرابات القاهرة يشبه من قريب أو بعيد دهشتهم عند سماعهم اقتراح السادات بزيارة القدس . ولعل بعضهم قد أعجب سراً بجسارته . واستراح للخطبة التي ألقاها في الكنيست . في خطبته هذه لم يسلم إسرائيل شيئاً ، وأعاد ذكر وجهة النظر التي يؤمن بها كل العرب ، بما في ذلك هم أنفسهم ، وذلك بطريقة يمكن الموافقة عليها بكل يسر .

ثم جاءت كامب دافيد ، حيث كانت النتائج جد مختلفة ، عما توقعوه . وقد أخطأ الأمريكيون عندما حاولوا ممارسة الضغط على بعض الدول العربية

الأخرى ليساندوا الاتفاق . لأن الرئيس السادات لم يوقع إلا بعد أن أعطاه كارتر ضماناً بأنه سيقنع السعودية والأردن لينضما إلى الصف .

(وإذا حدث ذلك ، فمن الواضح أن دولاً عربية أخرى ، بما في ذلك دول الخليج ستفعل نفس الشيء) . وقد أعطى كارتر ضمانة ، فبادر بإرسال سيروس فانس وزير الخارجية ليحاول تجنيد بعض الدول للانضمام . وفي الواقع ، كان أول سؤال وجهه الرئيس السادات لهيرمان ايلتس السفير الأمريكي الذي ذهب لوداعه في الطائرة المتجهة إلى القاهرة بعد رحلته : « هل غادر فانس بعد ؟ » .

* * *

كان فانس قد قام بمهمته ، لكنها فشلت ، كما فشلت مهمة بريجنسكي لمتابعة الموضوع ، حيث لجأ إلى أسلوب أكثر عنفاً في لوي الأذرع . وكان فشل كارتر في تقييم الموقف يرجع إلى خليط من محاولته أن يكون ماهراً جداً وكذلك ساذجاً . خلال انعقاد إحدى مفاوضات السلام ، كان الملك خالد ملك السعودية ينزل في مستشفى فيلادلفيا للعلاج . واتصل كارتر به تليفونياً وطلب منه أن يبارك « السلام » ، وقام المترجم بنقل الرسالة وأخبرهم باجابة الملك التي قال فيها : « إنه دون شك سيبارك السلام » .

وكان الملك يرى أن هذا مجرد تبادل للمجاملات – إذ كيف يتأتى له أن يرفض مباركة السلام ؟ .. لكن كارتر سارع بتفسير ذلك على أنه تصديق على عملية مساومة محددة لا يزال الجدل يدور بشأنها .

وعندما بحث السعوديون وأصدقاؤهم في الخليج في اتفاقية كامب دافيد لم يجدوا أي شيء فيها بخصوص القدس . كان هذا التجاهل بالنسبة للسعوديين تجاهلاً قد يفضي إلى كارثة . خاصة وأن شرعيتهم تستند إلى الدور الذي يضطلعون به كحراس للأماكن الإسلامية المقدسة . كما أن مبادرة الرئيس تصادف وقوعها مع زيادة شواهد على معنى الثورة الإيرانية من الناحية الإنسانية فهؤلاء الحكام – حكام الخليج الذين اعتادوا على أن يكونوا ضيوفاً على عظماء إيران الأمراء – والجنرالات والمليونيرات – وجدوا أن مضيفيهم السابقين يأتون الآن

إلى أعتاب أبوابهم فقراء يتوسلون في طلب المساعدة ليستقلوا طائرة إلى أوروبا . وفي دبي كانت القوارب الصغيرة تقوم بشكل منتظم بتهريب اللاجئين من شواطئ إيران الجنوبية إلى الأمان على الجانب العربي في الخليج .

ولم يسمع حكام الخليج في الاذاعة والتليفزيون عن العاصفة التي تدمر الأمبراطورية وحسب ، بل كانوا يسمعون القصص الرهيبة عما تسببه الثورة من أفواه اللاجئين الموالين للنظام القديم أنفسهم ، شأنهم في هذا شأن بلاطات أوروبا بعد الثورة الفرنسية .

* * *

ومع بداية عام ١٩٧٩ ، كان العالم الذي تعود عليه هؤلاء الحكام قد تغير وتحولت معالمه تماماً . وتوقعوا حدوث كثير من الصدمات . فقد يسقط عرش الطاووس ، وقد تترك مصر المعادلة العربية . لكن ماذا عن البيت الملكي السعودي ، دعامتهم الثالثة ، كان يقف راسخاً على ما يبدو ثم وقعت حادثة غير عادية إلى أقصى درجة في تاريخ الشرق الأوسط الحديث . وهي حادثة يمكن أن يعزى وقوعها لأثر الثورة الإيرانية مباشرة . ففي ديسمبر ١٩٧٩ ، قامت مجموعة من المتطرفين بمحاولة الاستيلاء على الحرم المكي .

وكما بينا من قبل ، فمن العناصر الأساسية في معتقدات الشيعة ان الإمام سيعود في النهاية ليملأ العالم عدلاً . لكن فكرة المهدي ، أي الرجل الذي يعمل بهدى من الله ، وهو سيعيد الإيمان والإسلام إلى عصره الذهبي ، هي فكرة شائعة بين السنة كذلك . والمهدي الذي استولى اتباعه على معظم السودان عام ١٨٨٠ ، ما هو إلا زعيم واحد من ضمن عدد كبير من هؤلاء الزعماء الذين ظهروا عبر التاريخ . وثمة حديث ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم جاء فيه ما معناه أنه في بداية كل قرن هجري سيظهر رسول يحمل اسمه ، وسيعرفه الناس في الحرم بمكة بين الحجر الأسود ومقام ابراهيم . وقد شهد عام ١٩٨٠ بداية القرن الخامس عشر الهجري مثلما شهدت بداية القرن الرابع عشر ظهور المهدي في السودان . وباقتراب القرن الجديد كان هناك جو عام من التوقع بين الأتقياء إذ تذكروا كلمات رسول الله ، كما كانوا واعين بانبعاث الاسلام خاصة في

إيران ، بل إن بعضهم ذهب إلى حد اختيار الخميني على أنه المهدي المنتظر .

ترك هذا الجو المشحون ، بترقب وصول المهدي أثراً عميقاً للغاية على مواطن سعودي يدعى «جهيمان العتيبي» ، وهو يؤمن بضرورة العودة للأصول الأولى بشكل متطرف . ورغم أنه لم يحضر إلى مصر أبداً إلا أنه نشر كتيباً صغيراً يسمى «الإسلام الحق» ، طبعته إحدى المطابع الصغيرة بالقرب من الأزهر ، ولم يحظ باهتمام أحد . اختلف هذا الرجل مع السلطات السعودية فألقي القبض عليه ورحل إلى الكويت ، مبعداً عن البلاد ، ثم أبعد عنها هي الأخرى .

بعد ذلك قابل جهيمان شاباً يدعى « محمد عبد الله قحطاني » . ها هو ذا شخص يحمل اسم النبي حقاً . لأن والد الرسول اسمه عبد الله ، أما قحطان فهو جد العرب الأسطوري .

وأقنع جهيمان قحطاني بالقدر العظيم الذي ينتظره . فأخذه وقدمه للقبائل على أنه المهدي المنتظر .

ومما لا شك فيه ان دوافعه كانت دينية محضة . ولو أراد أن يقوم بانقلاب لذهب إلى الرياض بدلاً من مكة . وعلى أي الأحوال ، فقد تجمع حوله ٤٠٠ شخص من رجال القبائل المسلمين لهم دربة عسكرية وعلى استعداد للموت في سبيل قضية باتوا يؤمنون بها .

ولم يتوقع جهيمان بأي حال من الأحوال ، أن يموت قحطاني . فقد كان مقتنعاً بأنــه حينما سيراه الناس في المسجد فإنهـم سيتعرفـون عليه وعلى ماهيته ويقدمون له البيعة ، وكان يأمل أن يكون الملك خالد في المسجد في ذلك الوقت ، ووضع خطة للقبض عليه ، وربما أخذ بعض أعضاء الأسرة المالكة كرهائن . وقام باتخاذ الترتيبات بدقة عسكرية بالغة الدقة . فقام بتخزين الأسلحة والمؤن قبل اليوم المحدد للتنفيذ بعدة شهور داخل سراديب تحت المسجد ، وكانت هذه السراديب بمثابة مخبأ أرضي يمارس فيها عمله دون أن يكتشفه أحد .

وفي الماضي كانت هذه السراديب تستخدم كمأوى للحجاج عندما كان السفر أكثر مشقة مما هو عليه الآن . إذ كان بعض الحجاج يمكثون في مكة بعد انتهاء مناسك الحج ، إما لمرضهم وعجزهم عن السفر ، أو لعدم وجود مال

معهم للعودة . أما الآن في زمن الثراء والسفر بالطائرة فلم تعد تستخدم .

وعندما حان اليوم ، دخل عتيبي وأعوانه المسجد من مخبأهم في هذه السراديب وأمسك هو بالميكروفون الذي يستخدمه خطيب المسجد وخاطب المصلين :

« انتبهوا أيها المسلمون .. الله أكبر .. لقد ظهر المهدي .. إنه هنا بين الحجر والمقام .. تذكروا كلمات الرسول .. لقد حان الوقت الآن ..... هذا هو الرجل ... بسم الله الرحمن الرحيم » .

ولم يصغ أحد لكلماته .. ولم يستجب الناس لعتيبي كما كان يعتقد ...... وأخذوا يتطلعون إليه في حيرة ، وسارع بعضهم بترك المسجد ، ومكث البعض الآخر بدافع من حب الاستطلاع ، ولم يكن هناك أي علامة على حركة تلقائية بين الناس لمبايعة المهدي . بعد ذلك تدخل الحراس وبدأ اطلاق النيران .

وكان عتيبي مسلحاً أيضاً .. وأتباعه يعرفون ماذا ينبغي عليهم فعله .. فاحتلوا المآذن ، مما مكنهم من السيطرة على مداخل المسجد . وكذلك الجزء الداخلي .

ولم يكن الملك خالد في المسجد حينئذ ، وبذلك نجا من القتل أو الأسر لكنه أخذ هو وحكومته على حين غرة ، ولم يدروا ماذا ينبغي عليهم فعله .. فإن هذا المكان في نهاية الأمر ، أكثر الأماكن قدسية في العالم الإسلامي .

ماذا يكون رد الفعل لو استخدموا الدبابات واقتحموا أبواب المسجد عنوة بعد أن أغلقها المتمردون ؟ .. ولمدة أربعة أيام وجد كل من الجيش والحرس الوطني نفسه عاجزاً تماماً عن السيطرة على الموقف .

* * *

ومن شواهد الفوضى الشاملة التي سادت في ذلك الوقت تجربة الملك حسين ملك الأردن . فقد صدم صدمة عنيفة ، مثله في ذلك مثل سائر المسلمين ، حينما سمع بما يحدث في المسجد الحرام ، وشعر أنه في وضع يسمح له بأن يفعل شيئاً إزاء ذلك . فقد كان الاتفاق بينه وبين السعودية منذ عدة أعوام ، على أن يخصص فرقة من جيشه للتدخل في حالة وجود اضطرابات في السعودية .

وأقيم خط اتصال مباشر بين المملكتين ، وقام قائد الجيش الأردني ، اللواء « زيد بن شاكر » بالاتصال مباشرة بنظيره في الرياض مستخدماً الشفرة الخاصة

التي اتفق على استعمالها في حالة الطوارىء . لكن لم يجب عليه أحد . ولمدة أربعة أيام حاول الاتصال فيها بالقائد العام السعودي لكن دون نتيجة . وفي النهاية قرر أن يجرب الاتصال بالتليفون العادي على الرغم من أنه لا يمكن الاحتفاظ بسرية المكالمة على هذا الخط . ونجح هذه المرة . وحث القائد السعودي على فتح الخط المباشر حتى يمكنهم التحدث في سرية ، وسأل عما إذا كانوا قد تلقوا إشاراته ؟ فكانت إجابته ، نعم ، لقد تلقينا كل رسائلك ، لكن يجب أن تعرف أننا كنا مشغولين لدرجة لا تسمح لنا بالرد عليك .

* * *

إن ما كانت السعودية مشغولة به هو إيجاد طريقة للتصنت على المتمردين الذين انسحبوا إلى السراديب ، حتى يمكنهم معرفة ما يخططون له . فوجدوا ممراً تحت الأرض يؤدي إلى مكان قريب من المتمردين لكن ما إن حاولت القوات شق طريقها عنوة حتى وجدوا أنفسهم معرضين لنيران المتمردين .

لذا اضطرت السلطات لأن تنقل بالطائرة من الخارج فريقاً من الفدائيين المدربين على هذا النوع من العمليات . وعن طريق حصار المنطقة كلها التي يحتلها المتمردون ، وباستخدام أجهزة تنصت دقيقة جداً واستخدام الغاز أمكنهم أخيراً أن يقتلوا البعض ويأسروا البعض الباقي ، ولم يتم هذا إلا بعد خمسة عشر يوماً من الهجوم الأول . وقد اكتسب المتمردون مزيداً من التعاطف يوماً بعد يوم داخل وخارج العربية السعودية .

* * *

عندما تطلع حكام الخليج حولهم في إيران ومصر ومكة ، لم يجدوا سوى رمالاً متحركة أساساً . ولم تكن هذه هي النهاية . فبعد حادثة المسجد الحرام مباشرة قام السوفيت بغزو أفغانستان ، وبكل ما يتضمنه ذلك من تغييرات في توازن القوى العالمي – فإن هذه التغييرات كانت تحدث أثرها أيضاً على أعتاب أبوابهم .

وقد تضمن رد فعل حكومة كارتر للاحداث في إيران وأفغانستان ، اعادة ، انتشار القوات الأمريكية في منطقة الخليج ، وكان المرجو من هذا الإجراء أن

يؤكد لحكام الخليج أن أصدقاءهم لم يتجاهلوهم ولم يتخلوا عن حمايتهم ، لكن حدث عكس ذلك بأن أصبحوا أكثر انزعاجاً .

ولقد اظهرت حكومة كارتر ان قبضتها كانت رخوة دائماً في معالجتها لمشاكل الخليج . وقد تذكر كثيرون من قبل محاولتها الصاخبة بعد عقد اتفاقية كامب دايفيد . وحتى الآن لم يتلق حكام الخليج أي مساندة رغم الملاحظات اليومية التي تقول انه يجب الاهتمام بهم لأنهم أصدقاء – معتدلون – ولهذا فهم يستحقون الرعاية . وهم يخشون أن تكون هذه التسمية (معتدلون) هي قبلة الموت . ولم أقابل حاكماً واحداً من حكام الخليج إلا ويشكو لي من هذه التسميات المشبوهة التي تلصق به . حتى بني صدر اشتكى لي بقوله «هذه العادة السيئة لديهم ، بالاشارة لي بأنني معتدل ، قد تؤدي إلى هلاكي » .

* * *

وكان أي زائر أمريكي إلى منطقة الخليج سواء أكان سياسياً أو عسكرياً أو دبلوماسياً يشعر عند عودته بضرورة أن يصرح لأجهزة الإعلام بأنه وجد روحاً عظيمة من التعاون ، وأن الخليج منطقة من العالم يمكن لأمريكا أن تعتمد فيها على أصدقائها . وقبل أن أصل إلى إحدى دول الخليج بيومين في إحدى زياراتي الأخيرة ، كان وزير الدفاع الأمريكي يقوم بزيارة هناك . وعقد محادثات أولية مع الحاكم . وقبل موعد الاجتماع الثاني اطلع الحاكم الوزير على نسخة من نشرة أخبار صوت أمريكا جاء فيها ان نائب وزير الدفاع قد صرح بأن القوات الأمريكية ستمنح تسهيلات هناك . وعندما تحدثت مع الحاكم كان غاضباً لأسباب معروفة . وقال لي : أولاً ، هذه البيانات غير صحيحة ولكن الأهم ، حتى لو كانت صحيحة كان يجب عدم نشرها على الإطلاق . ولا يسع حكام الخليج إلا التحسر على تلك الحصافة التي كانت تبديها بريطانيا القوة الأمبريالية ذات الخبرة الفائقة والتي حل محلها الأمريكيون .

والنتيجة التي يميل معظم حكام الخليج إلى استخلاصها من الخطة الأمريكية لانتشار القوات بسرعة في المنطقة ، كانت في الواقع تتضمن أحد أمرين :

إما أن واشنطن تظن أن نظمهم تحتضر .

وإما أن الشك كان يخامرها في ولائهم وأنهم يرتبون لإحلال أحد آخر محلهم يمكنهم الاعتماد عليه بشكل أكبر .

وكانوا يعلمون ان أقل الأشياء احتمالاً هو تحرك سوفيتي في الخليج على غرار ما حدث في أفغانستان – وهو الخطر الذي كان من المفروض ان القوات الأمريكية ستتحرك لإيقافه – لأنهم كانوا يعرفون ، ويعرفون ان الروس يعرفون ، ان مثل هذا التحرك ، كان يعني تخطياً للحدود المتعارف عليها ضمناً ، والتي تضم مناطق نفوذ القوتين الأعظم ، ويمكن أن يؤدي تخطيها إلى نشوب حرب عالمية ثالثة .

* * *

وهكذا بدأ الحكام يتخذون طريقاً خاصاً بهم ، ليتكيفوا مع الظروف الجديدة ، ويعملوا على حماية أمنهم . وكبداية – كان من الواضح أنه ينبغي عليهم أن يجدوا طرقاً أخرى للحوار مع النظام الجديد في طهران – لكن محاولتهم الأولى في هذا الصدد لم تكن مشجعة على الاطلاق . فقرروا تناول الموضوع كالتالي : أن يقوم وزير خارجية الكويت الشيخ صباح الأحمد الصباح بزيارة رسمية إلى طهران على أن يقوم وزير خارجية البحرين الشيخ محمد مبارك الخليفة ، بالاتصال بابراهيم يزدي نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية والشؤون الثورية أثناء وجودهما في نيويورك لحضور اجتماعات الأمم المتحدة .

كانت زيارة الشيخ صباح بمثابة كارثة . فقد وصل إلى طهران وسط اهتمام إعلامي كبير ، وبعد أن خلص إلى التعرف ، عن صواب ، على مصدر السلطة الحقيقي في البلاد ، آية الله الخميني ، طلب أن يسمح له بمقابلته . وتمت الموافقة على ذلك . وذهب إلى المطار في الموكب المعتاد – راكبو الدراجات البخارية وقوات حرس الشرف ، وموظفو وزارة الخارجية وهكذا ، حيث وجد طائرتي هليكوبتر لنقل الجميع إلى مدينة « قم » .

وانتابت الشيخ الصباح بعض الحيرة عندما اكتشف أنه يبدو أن الجميع سيصحبونه . ولكنه فسر ذلك على أن السلطات تود أن تعامله معاملة لائقة ولعل « قم » ينقصها القوة البشرية اللازمة لموكب مناسب . وبالتالي يجب إرسال

العناصر اللازمة لهذا الموكب بالطائرة إلى هناك .... ثم انتقلت الجماعة كلها إلى أتوبيسات أقلتهم إلى بيت الخميني .. وبدأ الشيخ الصباح يفكر في اللحظة التي يختفي فيها مرافقوه ، ولكنه اكتشف لدهشته ان الجماعة كلها تكدست في المنزل معه . وأصبح من الواضح أنه من المستحيل مناقشة أي شيء ذي أهمية أمام مثل هذا الجمع الكبير من المستمعين ، وبما أن أحداً لم يقترح تركهما بمفردهما ، طلب الوزير الإذن بالانصراف بعد تبادل المجاملات والتحيات ولم تستمر مقابلته أكثر من سبع دقائق . وعندما عاد إلى طهران وناقش ما حدث مع الوزراء ، قيل له : إن الإمام لا يحب التحدث في السياسة . فهو هناك ليسدي النصيحة .

* * *

وكان وزير خارجية البحرين أسعد حظاً في نيويورك . فقد قابل يزدي وعقد محادثات صريحة معه . وعبر له عن شكواه أنه رغم تلهف دول الخليج على أن يكون لها علاقات طيبة مع النظام الجديد في إيران ، إلا أنهم يجدون أنفسهم مهاجمين من النظام بشكل دائم . فقد وجه لهم الاتهام بأنهم أمريكيون وصنائع الشاه . ويضطهدون الأقلية الشيعية ، ويسمحون ببيع الخمور . وقال الشيخ محمد مبارك :

« لكن ، نحن دولة صغيرة ، تحاول فقط أن تحتفظ باستقلالها . وعندما كان الشاه في الحكم . كنا نخشاه بالطبع . ومن في إيران لم يكن يخاف من الشاه ؟ .. لكننا لم نعد رجال الشاه بعد رحيله . أنتم تتهموننا بالتعاون مع الأمريكيين – بالطبع نحن نحاول أن نتعاون معهم . أما بالنسبة للأقلية الشيعية في بلدنا ، فهذه مشكلة قديمة كانت قائمة بيننا وبين الشاه . وطالما أن البحرين معنية بهذا الموضوع فدعنا لا نناقش الاحصائيات .. انك تقول إن الشيعة هم الأغلبية في البحرين ، أما نحن فنقول إنهم أقلية فلنقل إنهم يشكلون خمسين في المائة .

وهناك موضوع الخمور . صحيح أننا نسمح ببيع الخمور في البحرين ، لكنها لا تباع لمواطنينا ويجب أن تعرف أن البحرين هي أول دولة عربية تدخل

مرحلة ما بعد البترول . لقد نضب بترولنا . لذا يتحتم أن نجد مصادر أخرى للدخل . نحن نحاول أن نجعل من البحرين مركزاً رئيسياً للتجارة والاتصالات الدولية . ان كل العالم يمر الآن من خلال البحرين ويجب أن نوفر للمسافرين كل أنواع المعاملة التي يتوقعونها » .

وقد نجح « محمد مبارك » في توصيل بعض من هذه الرسالة الى يزدي لكن في الوقت الذي قدم فيه وزيرا خارجية البلدين تقريرهما لزملائهما كان يزدي قد طرد . لذا لم يكن هناك سوى الاجتماع الذي تم مع الخميني . وهو اجتماع لم يكن يبعث على التفاؤل .

* * *

وإذا كان الحوار مع طهران عسيراً . فان العثور على بديل يقوم بدور الشرطي للمنطقة ، أو بدور الأمريكيين كحراس كان أكثر صعوبة .. وفي هدوء ودون جلبة ، ظهر إلى الوجود اتحاد دول الخليج ، وفي ربيع عام ١٩٧٩ عقد الاجتماع الافتتاحي في القاعدة الجوية السعودية « خميس مشيط » ، وعُقد بعده عدة اجتماعات منتظمة للوزراء المختصين – بالأمن والاعلام .. الخ كما تمت محاولة للتوصل إلى سياسة عامة بصدد العلاقات الخارجية والبترول – ثم دعي العراقيون بعد ذلك لحضور بعض الاجتماعات ليس بصفتهم شركاء وإنما بصفتهم طرفاً قد يكون له بعض النفع في المستقبل . لقد كانت هناك بعض الأمور ، تفضل حكومات الخليج مناقشتها في غياب العراقيين .

أما السلطان قابوس فكانت عنده أفكاره الخاصة مما ينبغي أن يتم ...... في عام ١٩٧٥ ، حينما تحسنت العلاقات بين إيران والعراق قام الرئيس صدام حسين بزيارة طهران . وقام هو والشاه بمناقشة السبل والطرق لضمان سلامة الملاحة في الخليج . وكان الشاه يريد نوعاً من أنواع التخطيط للدفاع المشترك يتضمن قوة وقواعد بحرية مشتركة ، بعضها في عمان . وكان هذا أبعد من الحدود التي رسمها العراقيون لأنفسهم وتوقفت المحاولة . لكن الآن وبعد مجيء النظام الجديد في طهران ، قرر سلطان عمان أن الوقت قد حان لإعادة بعث خطة الشاه . في نهاية الأمر كان يمر يومياً ما تقارب قيمته بليون دولار بترول

من خلال مضايق هرمز ، التي تضيق أحياناً في بعض الأماكن حتى يصل اتساع الممر الملاحي الصالح للملاحة إلى ٦٠٠ متر ، يكفي فقط لمرور سفينتين .. وقد كان العالم يبدي انزعاجاً مفهوم الابعاد لما تتضمنه جغرافية المنطقة من نتائج .. فزادت شركة لويدز قيمة التأمين على الشحن في الخارج بشكل كبير للغاية . ولم يكن الهجوم الروسي المباشر على المنطقة هو مصدر الخوف بقدر ما كان الخوف من امكانية زرع الألغام في المضايق ، مما كان يؤدي إلى اغلاقها في وجه الملاحة ملحقاً الكوارث بالجميع .

لذا قرر السلطان قابوس ، الذي تنصب مسؤوليته على الشواطئ الجنوبية للمضايق ، اتخاذ الاحتياطات المناسبة ، فكان يفكر في إنشاء قوة أسطول صغير يتكون من ست أو سبع كاسحات للالغام وثلاثة أسراب من طائرات القتال والاستطلاع ، تقوم بحراسة المنطقة بصفة دائمة . لكنه ارتكب خطأ في أنه أطلع كثيراً من الناس على خططه . فأخبر اليابانيين بسبب اعتمادهم التام على بترول الخليج لكن هذا ضايق زملاءه الحكام الذين رأوا «انه إذا كانت الخطة ستوضع موضع التنفيذ فهم يفضلون أن يقوموا بها هم أنفسهم ويدفعوا كل تكاليفها ، حتى لو كانت مائة مليون دولار» .

* * *

ومن السمات المميزة لكل من هاتين المحاولتين التي قامت بهما دول الخليج مجتمعة والسلطان قابوس بمفرده ، محاولة إقناع العراق بالاشتراك فيهما . وهذا يعكس مدى التغيير العميق الذي حدث في تحالف القوى في العالم العربي ، خلال السنين الثلاث أو الأربع الماضية .

ان نقطة الارتكاز الطبيعية للعالم العربي ينبغي أن تكون مصر دائماً ، بموقعها على الجسر الموصل بين أفريقيا الشمالية وآسيا ، وامتلاكها لتقاليد القيادة اللازمة بفضل تعداد شعبها وقدراته . ولكن حينما تتخلى مصر عن مسؤولياتها القيادية وتقرر أن تسلك طريقها وحدها ، فإن بقية العالم العربي يعقد تحالفاته حتماً على أساس اقليمي .

وبعد الثورة في إيران ورحلة الرئيس السادات إلى القدس ، كانت العراق

والسعودية هما أكثر البلاد العربية حاجة إلى إعادة تقييم موقفهما على وجه السرعة . فمنذ جيل مضى ، منذ أيام نوري السعيد والهاشميين كانت كل طموحات العراق متجهة نحو المنطقة الغربية ، نحو سوريا ، ونحو تحقيق أحلام العراق في دولة واحدة للهلال الخصيب تتوحد من خلالها العاصمتان المتنافستان الأموية والعباسية دمشق وبغداد . أما الآن فقد انتقل مركز الجاذبية من الشرق الأوسط إلى الخليج ، من قناة السويس إلى مضايق هرمز . وبدأ قادة العراق يوجهون اهتمامهم ناحية الجنوب لا ناحية الغرب .

والعراق في نهاية الأمر ، واحدة من أهم الدول المصدرة للبترول في العالم ، والتي من الممكن أن تكون من أكثرها ثراء بفضل قدراتها الكامنة .. كان بترولها في البداية يصل إلى الأسواق العالمية عبر أنابيب تنتهي عند الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، لكن الحروب العربية الإسرائيلية وقلاقل لبنان تسببت في اعتراض هذا التدفق . وجعلها تهتم أيضاً بممرات الخليج البحرية .

وثمة اعتبار آخر أحدث تقارباً بين العراق وبين دول الخليج وهو الدين ....

فثلث سكان العراق من الشيعة – وهي العقيدة الغالبة في إيران ، فيما عدا بعض الأقليات .

وعندما ألقى حكام الخليج بنظرهم ناحية الشمال وجدوا هناك بحراً متماسكاً من الشيعة يمتد من حدود باكستان إلى البحر الأبيض المتوسط . وهذا هو الاحتمال الذي كان يقلقهم . لذا بدأوا يظهرون مزيداً من الاهتمام لجارتهم في الشمال ، العراق ، خاصة وأن السعوديين كانوا مشغولين بنتائج معركة المسجد الحرام بمكة .

* * *

وقد بادلهم قادة العراق نفس الاهتمام . فالعراق دائماً كان يشعر ان له دوراً قيادياً يلعبه في العالم العربي ، والآن أدركوا ان منطقة الخليج وليس البحر الأبيض المتوسط هي المنطقة المقدر لهم أن يلعبوا فيها هذا الدور .

ومنذ إنشاء المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢ ، كان حكامها يفضلون أن يلعبوا دور الدولة المساندة وراء دولة قائدة على أن يتخذوا خطاً خاصاً بهم . وهكذا قام الملك عبد العزيز بن سعود بتأييد الملك فاروق لإنشاء جامعة الدول العربية

عام ١٩٤٤ ، وقام الملك فيصل بتأييد عبد الناصر في معارضته لحلف بغداد . ووقف الملك فيصل بصلابة خلف الرئيس السادات أثناء وبعد حرب اكتوبر .

وعندما وجد السعوديون أنهم غير مستعدين لمسايرة السادات في مبادرته ، بدأوا يحولون دعمهم للتحالف الجديد الذي كان في طور التكوين بين سوريا والعراق . وعندما تحطم هذا التحالف كانوا على استعداد للاستمرار في دعم العراق وحدها . بعد ذلك انشغلت العراق في الحرب مع إيران . وفي النهاية كانت الكويت هي التي بادرت بحشد دول شبه الجزيرة العربية ، وأرسل حاكم الكويت رسالة لكل الحكام يحثهم فيها ألا يهابوا ويوحدوا صفوفهم ، وخلال اجتماع القمة الذي عقد في عمان بالأردن عام ١٩٨٠ ، أصر أمير الكويت على أن يؤكد للرئيس صدام حسين ، أن توحيد الصفوف هذا ليس موجهاً ضد أحد .

وزادت الحرب بين العراق وإيران من الانقسامات بين العرب والتي ظهر أثرها في مؤتمر عمان . هذه الحرب التي باغتت الناس ، كانت بذورها واضحة عبر التاريخ وشهدت السنين الأخيرة انفجار كثير من الصراعات الكامنة بشكل عنيف ، مثل الصراع بين البروتستانت والكاثوليك في أولستر والموارنة والمسلمين في لبنان والصينيين والفيتناميين .

(وكما بينا في الفصل السادس) فإن مسيرة الجيوش الفاتحة بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، أدت إلى الدخول في صراع مع حضارتين قديمتين – الحضارة البيزنطية والحضارة الفارسية .

وقد استوعب الأمويون سكان الامبراطورية ونظمها الادارية – حيث تقبل الناس كلا من الاسلام والعروبة . أما في إيران فلم يكن الأمر كذلك ، فقد تقبل الناس الإسلام أو على الأقل تصور الأقلية الشيعية له . أما العروبة فقد رفضت وظلت منطقة الحدود بين إيران وبلاد ما بين النهرين في حالة عدم استقرار دائم عبر القرون . ولم يحدث أبداً أن تشكلت حدودها على نحو مستقر .

كانت الاتفاقية الموقعة في الجزائر ١٩٧٥ ، بين الرئيس صدام حسين والشاه تقضي بتسوية كل المشاكل القائمة بين البلدين . وبالفعل أدت الاتفاقية إلى تسوية أهم مشكلة بالنسبة للعراق وهي مشكلة حرب الأكراد . وقد

أخبرني الرئيس صدام حسين أنه حينما ذهب إلى الجزائر كان لديه تفويض من زملائه في المجلس الثوري بتقديم أي تنازل يرى أنه ضروري لإنهاء الحرب ، طالما ان هذا التنازل لن يمس جزءاً من أرض الوطن أو من مبادئ الثورة .

ولتصوير مدى حدة الأزمة ، أخبرني أن القوات العراقية لم يكن لديها آنذاك سوى خمس قنابل ثقيلة باقية لطائراتها وخمسة آلاف قذيفة لمدفعيتها الثقيلة . ولم يكن لديهم أي احتمال للحصول على مؤن إضافية للذخيرة من أي مكان .

وتوقف القتال في كردستان كما هو متوقع وقدمت التنازلات لإيران في شط العرب ، لكن الاتفاق كان يتضمن إعادة تخطيط كامل للحدود تحصل العراق من خلاله على مائة كيلومتر مربع من الأرض يستقيم بها خط الحدود العراقية . وأقيمت لجان مشتركة لتحديد المناطق التي ستحصل عليها العراق .

وعندما قامت الثورة في إيران توقفت أعمال اللجان فجأة . وأحس العراقيون أنهم نفذوا الجزء الخاص بهم في اتفاقية الجزائر ، لكنهم لم يتسلموا الجزء المقابل الذي يستحقونه ، ولم يجدوا أي تشجيع من خلال كلمات « الخميني » أو أفعاله . فهو كما كان متوقعاً ، لم يقم باعادة الثلاث جزر في الممرات الغربية ومضيق هرمز – أبو موسى وطنب الكبرى والصغرى – إلى أصحابها العرب ، وهي التي استولى عليها الشاه بشكل غير شرعي قبل أن تسحب بريطانيا حمايتها عنها عام ١٩٧١ . وقد وجهت السلطات العراقية نظر « حجة الإسلام محمود دعائي » أول سفير للنظام الثوري بعث به « الخميني » إلى بغداد ، إلى كل هذه التعقيدات ، وكذلك وجهت نظره إلى النشاط الذي يقوم به حزب الدعوة ، ولم يكن لذلك كله صدى .

ومن الأشياء التي سببت القلق للرئيس « صدام حسين » وزملائه ، تلك المضامين الكامنة في برقية بعث بها « الخميني » رداً على برقية تهنئة أرسلتها حكومة العراق بمناسبة نتيجة الاستفتاء الذي صدق بمقتضاه الناخبون على الدستور الإسلامي الجديد . وبعد أن قدم « الخميني » الشكر للعراقيين في عبارات غامضة أنهى برقيته بالكلمات التالية : « والسلام على من اتبع الهدى » – وكان هذا هو

التعبير الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام يستعمله لمخاطبة الجماعات غير الإسلامية في الجزيرة ، وكان من المستحيل تصور أن الكلمات لم يتم اختيارها عن عمد ، وهكذا فإن النتيجة الوحيدة التي يمكن استخلاصها أن « الخميني » كان يعتبر أعضاء الحكومة في بغداد من المشركين .

وأحست الحكومة العراقية حتماً أنه يتم تحريض الجماعة الشيعية ضدها . واتخذت تدابير حازمة لحماية الدولة مس التمزق . ورحل إلى إيران الشيعة الذين يعيشون في المناطق الحساسة على الحدود المجاورة . وقد لاقى نفس المصير عدد من قادة الشيعة من أماكن أخرى في البلاد – فقد تلقوا دعوات للذهاب إلى نادي المنصور في بغداد وقيل لهم إنهم سيقابلون مسؤولاً سياسياً كبيراً لمناقشة بعض الأمور . وعند وصولهم قيل لهم إن مكان الاجتماع قد تغير ، فركبوا حوالى عشرين سيارة أتوبيس أخذتهم إلى الحدود – وطلب منهم أن يشقوا طريقهم إلى طهران ، وكان كثير منهم صاحب أملاك كبيرة ، لكنهم اضطروا إلى تركها .

* * *

وتصاعد التوتر على الحدود ووقعت بعض الصدامات المسلحة ، وقد صرح بني صدر بعد أحد هذه الصدامات بقوله : « إذا استمرت الاستفزازات العراقية فأنا لا أستطيع أن أمنع جيشي من الزحف على بغداد ، وكما حدث في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، عندما ذهبت قوات الجانبين إلى الجبهة وهم يصيحون « إلى باريس » « إلى برلين » فقد بعثت هذه الكراهيات القديمة على الحدود بين عنصرين وعقيدتين .

وكان العراقيون واثقين ان إيران ستعاني من انهيار في الداخل أو أن النظام الحالي سيحل محله نظام عسكري يدرك حقيقة الموقف العسكري ويكون على استعداد للسعي من أجل السلام . يمكن لأي شيء أن يحدث بطبيعة الحال . لكن ليس من المحتمل أن تكون القوتان الأعظم على استعداد لاتخاذ موقف المشاهد أبداً من انهيار إيران ، وذلك لأهميتها الاستراتيجية ، كما أن أي نظام عسكري لن يكون أكثر استعداداً للمهادنة من حكومة رجال الدين .

ويؤمن الخميني بالإسلام كحقيقة عالمية وقوة موحدة تطغى على القومية . لكن بلداً مثل العراق يستند على فكرة القومية من أجل بقائه - يصبح مهدداً بالمخاطر بدونها . فإذا ما استبعدت الفكرة القومية فسيتفتت العراق سنة وشيعة وأكراداً وربما إلى أقسام أصغر . وبنفس الطريقة يوجد اناس في الجناح الآخر من الهلال الخصيب ، كلهم لهفة للقضاء على مفهوم القومية العربية وعلى تقسيم المنطقة إلى دويلات صغيرة ، يهودية ومارونية ، وعلوية ودرزية وهكذا . وهذه ليست بفكرة جديدة . لكنها على طرف النقيض من كل ما حاربت من أجله حركة القومية العربية خلال هذا القرن .

وحقيقة ، فإن من أحد تناقضات حرب العراق وإيران .. أن الروح التي دفعت القوات الإيرانية للصمود كانت القومية أكثر منها الدين ....

من الأمور الصادقة ، أن العراقيين كانت تنتابهم الدهشة لتلك الشجاعة المتعصبة لبعض الجنود الإيرانيين الذين كانوا يقاتلونهم . وقد سمعت بعض كبار ضباطه يخبرون الرئيس صدام حسين « إنهم يندفعون نحونا مثل المجانين » .. لكن هذه الحرب أصبحت بالنسبة للإيرانيين حرباً وطنية ، تماماً مثلما حارب الروس من أجل روسيا الأم وليس من أجل الشيوعية - وهكذا رأى الخميني في حياته المضمون الإسلامي لثورته ، يفقد بريقه إذ تخللته القومية ، التي يقول إنه لا يعبأ بها كثيراً .

الخاتمة

ماذا يخبئ المستقبل ؟ طالما أن الخميني على قيد الحياة ، فليس من المتوقع أن تتغير الأشياء كثيراً ، فمكانته لا زالت عملاقة ، وهو قادر على أن يبقي الجماهير في حالة يقظة دائمة ، تجعل من الاستحالة أن تتحول بعض التجمعات الأخرى الى مراكز قوى .

أما طراز رجال السياسة القدامى ، أو الجدد من أمثال الرئيس بني صدر (*) فلن يتمكنوا من التحصل على مهلة الخمس سنوات التي اعترفوا بضرورتها لبناء موقف قوى لأنفسهم . في حين ان رجال الدين يمكنهم أن يكونوا جبهة متحدة ضد رجال السياسة ، لكنهم منقسمون بسبب التنافسات الشخصية والاقليمية العديدة . ومن الناحية النظرية ، من المتوقع أن يخلف الخميني آية الله حسين منتظري ، وقبل ذلك كان آية الله محمود الطلقاني ، هو المتوقع لخلافة الخميني ، وربما كان سيساهم في إدخال شيء من الاستقرار . لكنه لسوء الحظ مات بعد عدة شهور من قيام الثورة . ومنتظري رجل طيب وصادق ، لكنه لا يعرف من أمور الدنيا كثيراً . كنت اتحدث مرة مع يزدي في وجوده ، وعندما سمعنا نتكلم باللغة الانجليزية أصيب بالذعر وقال : « هل تستخدمون لغة المشركين ، هل نسيتم أن لغة القرآن هي العربية ؟ هل نسيتم أن لغة الملائكة هي العربية ؟ ان أهل الجنة يتكلمون العربية . »

بذلك لا يبقى سوى الشيوعيين والجيش . ويخشى كثير من الناس أن الشيوعيين سيملأون حتماً الفراغ الذي سينشأ باختفاء الخميني ، وأعتقد أن

---

* لم يبق بني صدر في الرئاسة غير أكثر قليلاً من عام .

هذا أمر غير محتمل ، إلا إذا قام جيش سوفيتي غازٍ بتوصيلهم إلى السلطة . وهذا الكابوس الذي يقلق الغرب يمكننا أن نستبعده لأن إيران ليست مثل أفغانستان ، وهي لا تقع ضمن مناطق النفوذ غير المحددة للقوتين الأعظم .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن الشيوعيين في إيران يعانون من عدة نقاط قصور تشلهم عن الحركة . ففي المقام الأول بغض النظر عن الخميني ، فإن الإيرانيين الشيعة متدينون حتى النخاع ، مما يجعل الشيوعية بإلحادها عقيدة غير مقبولة لديهم بتاتاً . كما أن التزام حزب توده الكامل بموسكو جعله مرتبطاً في الأذهان بأحد أعداء إيران التقليديين . فالتوسعية الروسية أيام القياصرة كانت في صراع دائم مع القومية الإيرانية ، وقد أثبت ستالين وحلفاؤه أن غرائز روسيا كعملاق مفتوح الشهية لم تخمد بعد . كما أن تأييد حزب توده لجمهوريات أذربيجان وجيلان العميلة لم يمسح بعد من الذاكرة . هذا بالاضافة إلى أن الحزب لم يلعب أي دور هام في شؤون إيران . بل كان من المعارضين في الواقع خلال الكفاح العظيم لتـأميم البترول . وعندما بدأت الحركة الثورية يزداد لهيبها عام ١٩٧٧ ، فشلت قيادته في فهم فحواها ، وركبوا الموجة الثورية في وقت متأخر . ولم تجتذب الشيوعية عدداً كبيراً من الأعضاء الجدد إلا بعد الانقلاب المضاد . وفي الوقت الحاضر ضعفت الشيوعية بسبب الانقسامات ، إذ يوجد ما لا يقل عن احدى عشرة مجموعة ماركسية في حالة شرذمة تقوم بنشاطاتها تحت أسماء مختلفة لكنها كلها بعيدة عن الحياة السياسية .

لكن ماذا عن الجيش ؟ – وهو لا يزال القوة الوحيدة المنظمة في البلاد ، لقد تحسن موقفه حتماً من جراء الحرب العراقية . وكما أخبرني الجنرال ولي الدين فلاحي رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإيراني وقائده العام فيما بعد :

« لقد تطهر الجيش من ذنوبه بفضل الحرب . ولم يعد الآن جيش الشاه الذي كان يطلق النار على المواطنين العزل ، بل أصبح الجيش الذي يدافع للاحتفاظ بسلامة أراضي الوطن » .

وكان الكثيرون قد خططوا للاستفادة من الجيش لأغراضهم الخاصة . فبعد سقوط الشاه سارع الأمريكيون لتشجيع الأقليات – الأكراد ، والبالوش

وآخرون على التمرد ، على أمل أن يضطر النظام الثوري لإعادة بناء الجيش ، وينجح في قمع ذلك التمرد – وبعد ما يحدث ذلك – يلتفت إلى رجال الدين في طهران . وقضت الحرب على كل هذه التقديرات وصلاحيتها . كما أنه لا رجاء للساسة والجنرالات المنفيين الذين يدعون أنهم على اتصال بعناصر في الجيش . فإذا كان هناك خلية للمقاومة في الجيش فإنها ستعمل بمفردها ولن تنتظر أي توجيه من الخارج . فقادة أي انقلاب ليسوا على استعداد عادة لكي يسلموا الغنيمة التي حصلوا عليها إلى أي شخص آخر .

إن الثورة الإيرانية ، شأنها في ذلك شأن الثورتين الفرنسية والروسية ، سرعان ما وجدت نفسها تواجه تهديدات من الداخل ومن الخارج . وقد تساعد هذه الحرب على تدعيم هذه الثورة ، كما فعلت للثورتين السابقتين . وسوف يتوقف الكثير على الانتماءات الاجتماعية والطبقية للضباط وصف الضباط الجدد الذين حصلوا على ترقيات بسبب الثورة والحرب . وقد يكرر التاريخ نفسه أيضاً بطرق أخرى ، وقد يكون هناك في هذه اللحظة في مكان ما في أحد صفوف الثوريين ، بونابرت يتحين فرصته .

المحتويات

رقم الإيداع . ٨٨/٣٠٥٨
الترقيم الدولى : x ـ ٢١٩ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب٠ ٨٠٦٤ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)